# حطب سراييفو

طبع في لبنان

# حطب سراييفو

رواية

**سعيد خطيبي**

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

**الطبعة الثانية**

**1440 هـ - 2019 م**

**ردمك 978-614-02-1689-1**

**جميع الحقوق محفوظة**

منشورات ضفاف
**Editions Difaf**
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
**Editions El-Ikhtilef**
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

**يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

إلى النّاس

**لا أحد يتكلّم غيري**
**إلاَّ أنني سأتكلّم بفم مُغلق.**

***(جمال الدّين بن شيخ)***

**نحن إخوة في الألم**
**عدا ذلك؛ فإنَّ كلَّ شيء يُفرّقنا.**

***(فيسنا هلاواتشك)***

# سليم

عشت كما يعيش أي نكرة؛ أنام وأعمـــل، آكـــل وأشـــرب، وأختلي، بين الفينة والأخرى، بمليكة. أزحف، مثل هرٍّ ممسوس، على جسدها النَّحيف، وأتحمّل نزقها وخوفها وضحكاتها. قبل أن تنقلب حياتي، بدءًا من ذلك اليوم، الذي هاتفني فيه فاروق، وأصير شخصًا آخر. أبلغني أن عمّي، قد اشترى مسكنًا جديدًا، ويدعوني إلى زيارته في سلوفينيا. باغتني عرضه. هل شعر برغبتي في الفـــرار مـــن أنبـــاء الموت؟ تساءلت في نفسي. وافقت وأقفلت الخطّ. ثمّ شعرت بصداع يدبّ، في رأسي. ظللت، متراخيًا، في مكتبـــي، أتخيّل شكل البلـــد، الذي يُقيم فيه سي أحمد؛ هكذا تعوّدنا على مناداة عمّي في البيـــت، وقبل أن أخرج، خطر في بالي أن أشتري قاموسًا للغـــة الســـلوفينية، أقتنص منه ما تيسّر من كلمات وجمل للمحادثات السّريعة.

أوقفت سيّارة أجرة، بينما المحلات شرعت في غلـــق أبوابهـــا. وطلب منّي السّائق أن أدفع، قبل أن أركب؛ فهُنا، لا أحد يثـــق في الآخر. تفحّص الدّنانير التي سلمته إيّاها، دسّها في جيـــب ســـترته العلوي، ثم انطلق، وهو يُثرثر مع راكبين آخرين، في غلاء المعيشـــة، تدنّي الرّواتب وارتفاع سعر العملات الأجنبية. وما أن وصـــلت إلى شقّتي حتى تفقّدت الحنفية. كالعادة، الماء انقطع. «وجوه الشّـــر. لا رحمة ولا شفقة»، غمغمت. وفي زاوية من الحمّام، يتجاور سطلان،

متوسطًا الحجم، ممتلئان، خمّنت أنهما يكفيان إلى الغد. لمحت بعض الغبار يتناثر على الطّاولة الخشبية، التي تنتصب في الصّالون، مع نصف باغيت خبز، مضى عليه يومان، ومثلثي جبن، تعلوهما صورة صبيّ ضاحك. تذكّرت أنني لم أُنظّف الشّقة، منذ أكثر من أسبوع، تكاسلت عن حمل المكنسة وأغفلت مسح الأثاث القليل الذي يُقاسمني المكان. بعض الخنافس باتت تتسكّع أسفل رجليّ، تجري وتقفز ليلاً، ثم تختفي نهارًا. مرّة أُطاردها ومرّة أتركها في سلام. ذلك اليوم، لم أتناول شيئًا منذ قهوة الصّباح، التي شربتها، مع قطعتي خبز بالزّبدة ومُربّى المشمش، في مقهى «الأحباب»، على طرف الحيّ، ولم تكن لي في الأصل شهيّة للأكل.

رفعت رأسي للسّاعة المعلّقة على الحائط. وتذكّرت أنّها توقّفت عن الحركة، وتقاعست في تغيير بطّاريتها. جرّبت أن أضربها بكفي اليمنى، من الأمام ومن الخلف، لكنها لم تشتغل. أعدت تعليقها في مكانها كديكور لا أكثر. عقاربها تجمّدت في السّاعة الثّانية، لست أدري هل الثّانية زوالاً أم الثّانية صباحًا! كنت أعتمد، في الاستيقاظ، على مُنبّه صغير، في وسطه ديك أحمر، يحرّك منقاره الأصفر، كما لو أنّه يلتقط حبّة قمح، كلّ ثانية، وأعرف الوقت من ساعة يد، لم يكتب عليها اسم البلد الذي صُنعت فيه، وأغلب الظنّ أنها من بلد آسيوي. اشتريتها من بائع متجوّل، في باب الوادي، ولم تتوقّف عن الحركة يومًا، رغم أنني لم أغيّر بطّاريتها قطّ.

لم أعد أهتمّ بتوالي السّاعات ولا أُبالي بعدّ سنوات عمري أيضًا. قبل تخرّجي من الجامعة، في الثّانية والعشرين من عمري، والانتقال من البراءة إلى ما يُشبه حياة البريّة، كنت أحسب الأيّام

والأشهر، أضبط عمري بتحديد دقيق. حين يسألني أحد ما عن سنّي، أُجيبه فورًا بالسّنة والشّهر واليوم والسّاعة. ففي شهادة ميلادي، لم يغفل موظّف البلدية عن تدوين الوقت بدقّة. كنت أحفظ تواريخ ميلاد بعض المشاهير، في الغناء والأدب وكرة القدم، تواريخ ميلاد والداي وأخي وعمّي وخالاتي الثّلاث. لكن ذاكرتي ثُقبت مع مرور الزّمن. وصرت أنسى أحيانًا محفظة وثائقي، أو اسم زميل لي في العمل. مع ذلك لم أنس سنوات رحيل كُتّاب أو مثقّفين أو صحافيين أو فنّانين أو أصدقاء أو زملاء أحببتهم: مولود معمري، 1989. جيلالي اليابس والطّاهر جاووت، 1993. عبد القادر علولة والشّاب حسني، 1994. رشيد ميموني، بختي بن عودة ورابح بلعمري، 1995. الشّاب عزيز، 1996. ومصطفى بلغربي أيضًا رحل في العام ذاته. درسنا معًا في المتوسّطة ثم الثّانوية، وكنّا ننعته بـ «النّخلة» نظرًا لطوله الفارع. رسب ثلاث مرّات في امتحانات البكالوريا، ونجح في الرّابعة، ومات في حادث سير، بعد تخرّجه من معهد البيطرة. «هشّمت وجهه شاحنة، وبالكاد تعرّفنا على جثمانه»، أخبرني شقيقه الأصغر كمال. كلّهم أذكر سنوات رحيلهم وأنسى سنوات مولدهم. تعلّمت، في السّنين الأخيرة، أن أُمرّن ذاكرتي على النّسيان، على التّحرّر من الذّكريات. عندما أنسى أشياءً فأنا فقط أوطّنها في نقطة سوداء من ذاكرتي، وأعود إليها كلّما احتجت إليها، وعندما أنسى أشخاصًا؛ فأنا أمنحهم فرصة لتذكّرهم لاحقًا. ساعتي الحائطيّة توقّفت عن الحركة لكنني لم أنسها. وساعتي اليدوية أتلصّص عليها وأنسى، في كلّ مرّة، الوقت الذي تُشير إليه. كما لو أنني أنظر إليها لأنساها هي أيضًا.

شغّلت الرّاديو، ليس بقصد الاستماع للأخبار، بل فقط لكسر صمت الشّقة الموحش. كلّ الأخبار كنت أعرفها، وقد كتبت عن بعض منها في الجريدة، وتكرار الاستماع إليها، يجعل منها أخبارًا مبتذلة، مما يُخفّف من توتري ويجعلني أفكّر في أشياء أخرى أهمّ منها. تحدّث المُذيع عن خسارة ثالثة لمنتخب كرة القدم ضدّ الكاميرون، بعد خسارتين سابقتين أمام غينيا ثم بوركينافاسو، وإقصائه من دورة كأس إفريقيا. أطال في كلماته وفي تعليقاته وفي حزنه وغيظه، من اللاعبين ومن المدرب، وأسفه وتحسّره كما لو أنّه فقد شخصًا عزيزًا عليه، كي لا يُعجّل الوصول إلى الأخبار الأخرى، الأكثر كآبة وحُرقة وسوداوية. وصف فشل منتخب الكرة بالنّكسة العابرة، التي يُمكن تجاوزها، وأضاف: «حان الوقت لإعادة بناء ما تهدّم». سحب نفسًا عميقًا، قطعه فاصل موسيقي يُشبه موسيقى عسكرية، وشرع في تلاوة أخبار الدّم، وفي عدّ ضحايا حرب لم نتّفق على اسم لها، بلكنة جافّة... سيارة مفخّخة انفجرت هنا وعدد من المواطنين قُتِلوا غدرًا في ليلة واحدة هناك... تحدّث عن الموت بكلمات مُختصرة، كما لو أنّه مُرغم على قراءة أخبار الرّاحلين، ومتورّط، رغم أنفه، في وظيفته كمُذيع. اختتم نشرة الأخبار بتكرار: «إنا لله وإنا إليه راجعون». وأردف قائلاً: «أُحيل الميكروفون إلى زميلتي سلوى لتطلعنا على أحوال الطّقس». الموت صار طقسًا، تعودّنا عليه. والمنجّمون ضحكوا علينا. كتبوا على الحيطان وعلى شواهد القبور والصّومعات أنّ المدينة التي يحرسها أولياء الله والدّراويش والعجائز موشومات الذّقن والجبين، لن يبلغها الطّاعون ولن يتسلّل إليها الخوف. الطّاعون جانبها، لكن الخوف انتشر في

أزقتها وشوارعها. يحرمنا صباحًا من شمس خجولة، تلـــوح بعجـــل، ويمنع عنّا إغماض أعيننا في جوف الليل.

بما أنّ الموت قدرنا، قررت أن أتناساه. لكن حياتي المتأزّمـــة لا تدفعني للأمام بقدر ما تذكّرني في الموت. فقد طلب منّـــي رئـــيس التّحرير، قبل أن يتّصل بـــي فاروق، في ذلك اليوم الذي قسم حياتي إلى نصفين، أن أذهب، إلى «سيدي لبقع»، التي لا تبعد عن الجزائـــر العاصمة سوى مسافة ساعة بالسّيارة، لكتابة استطلاع عـــن تلـــك القرية، بعدما أُهدر فيها دم ثلاثين شخصًا.

هجم مسلّحون على «سيدي لبقع»، مباشرة بعد إفطار سادس يوم من رمضان، محمّلـــين برشّاشـــات كلاشـــينكوف ومـــاط 49 وخناجر، يرتدون قشّابيّات من وبر، أسفلها سراويل جينز، بعـــض منهم ينتعل أحذية رياضية من ماركات أميركية أو ألمانية، يعتمـــرون قبعات بكول الأفغانية ويطلقون لحى طويلة. اختاروا ضحاياهم بدقّة. فقد دوّنوا قائمة بأسماء المستهدفين على ورقة. ذبحوا البالغين، كمـــا يُذبح الدّجاج، وقسموا جثث أطفال نصفين طوليًا، ثم رحلـــوا. ولم يصل العسكر سوى بعد انتهاء المجزرة. لكن، لماذا ما زلـــت أتـــذكّر الفظائع التي حصلت؟ ألم أُلزم نفسي بتناسيها؟

شعرت بدمي يغلي واحتجت أن أتّصل بمليكة، أن أسمع صوتها الرّخيم، الذي يُشبه صوت يافعة في الخامسة عشـــرة أو السّادســـة عشرة. كلماتها تخرج ما بين شفتيها كلحن عذب، ولا يُخيّل لسامعه أن خلف ذلك الصّوت امرأة في عقدها الثّالث. وأخبرها عن المهمّـــة التي كلّفت بها وعن نيّتي في السّفر. لكن هاتف البيت كان معطّـــلاً. أهملت دفع الفاتورة وموظّفو البريد والاتّصالات لم يتأخّروا في قطـــع

الخطّ. عزمت على أن أتّصل بها في اليوم الموالي، من المكتب أو من هاتف عمومي، وأدفع فاتورة هاتفي حين أجد متسعًا من الوقت. أو أنتظر زيارتي لها في شقّتها.

حصل كثيرًا أن اختلفت مع مليكة، أن تشاجرنا، مثل مراهقين أرعنين، وافترقنا لأيّام، ثمّ سرعان ما كنّا نعود لبعضنا بعضًا. هي تكبرني بخمس سنوات، لكن فارق العمر لم يظهر في علاقتنا، سوى حينما كانت تغضب أو تكتئب، فتُعاملني كأخ أصغر لها، وتنسى نفسها، مرّات، وتُخاطبني كواحد من تلامذتها في الثّانوية، بنبرة آمرة.

تعرّفت على مليكة في مركز ثقافي، تحوّل إلى مقر حزب سياسي، حيث قضت بضعة أشهر في تقديم دروس تقوية لطلبة البكالوريا، في الإنجليزية، تكسب منها دخلاً إضافيًا. كنت أذهب هناك للعب الدّومينو أو تنس الطّاولة مع رفاق سابقين، من الكشّافة الإسلامية، تفرّقوا الآن، كلّ واحد منهم ذهب إلى وجهة؛ منهم من التحق بالجيش، ومنهم من ذهب للعمل في الصّحراء، ومنهم من هجر البلد. ذات يوم، بينما أنا أجلس مع مدير المركز مسعود، الذي عرّفني به فاروق، في مكتبه المُشابه لمكاتب بيروقراطيي الحزب الواحد، نتحدّث في شؤون عامّة، دخلت، تجرّ رائحة عطرها، ولم أركّز في ملامحها. «هل أجد عندك كراسٍ إضافية، سيدي المدير؟». «كلا»، أجابها مسعود بلكنة باردة. ما إن استدارت، خائبة، حتى قمت من مكاني: «هناك ثلاثة كراسٍ في القبو. سأحضرها لك». «شكرًا»، ردّت. ورمقني مسعود بنظرة حانقة، لم أفهم سببها سوى بعد سنة. ثم حضرت واحدًا من دروسها، وجلست في الخلف، كتلميذ مُهذّب يُتابع ويسأل أستاذته بحيوية ولُطف. فعلي تلك

أعجبتها، فقد ظلّت مُبتسمة ومتحمّسة للإجابة عن أسئلتي طوال الحصّة. وتكرّر حضوري مرتين أخريين. ثم فرّقت بيننا الحياة والتقينا صدفة، بعد عام من ذلك، في مبنى المسرح الوطني، عقب عرض مُقتبس من «المغنية الصّلعاء» ليوجين يونسكو، وجلسنا في مقهى مُجاور لساحة بورسعيد.

- أحتاج دروس تقويّة في الإنجليزية؟
- في الإنجليزية فقط؟ ليس في أمور أخرى؟

ردّت عليّ بنبرة ماكرة، وهي تشيح بوجهها عنّي وتنظر إلى المارّة.

سرعان ما تطوّرت بعدها علاقتنا، وفتحت لي باب التّلميحات واسعًا. صرنا نتحادث في الهاتف أو نجلس ونثرثر في مقهى أو في مطعم شعبي بشارع طنجة أو في نهج العربي بن مهيدي، وأعلمتني أن مسعود أراد مُواعدتها، وحين رفضت، حقد عليها، وأنها شعرت بمغناطيس يجذبها إليّ، رغم أنها لا تفتح قلبها إلى أي رجل بسهولة. «حاولت أن أتفاداك لكنني لم أقدر»، صارحتني. وقبل ثلاثة أعوام، دعتني إلى الشّقة التي استأجرَتها، في الضّاحية الشّرقية من العاصمة، في حيّ راقٍ، يُجاورها فيه موظّفون من علية القوم، وسكنتها برفقة شقيقتها الصّغرى حورية، الطّالبة في كلية الحقوق، بحجّة أن أُساعدها في تثبيت صحن مقعّر، لالتقاط الفضائيات الأجنبية، واستدرجتني إلى غرفتها، المرتّبة والمنظّمة عكس غرفتي تمامًا، بعد أن أتممت مساعدتها. وبينما أختها في المطبخ تتصفّح كتبها وكراريسها، لعقت عسل شفتيها، تحت صوت الشّاب خالد الخافت. «أنا أكبر منك سنًّا، لكنني أجهل منك في شؤون الحبّ»، قالت لي وضحكت حتّى بانت أنيابها.

حينذاك، خرجت لتوّها مُحبطة، من علاقة حبّ، مع رجل يُدعى حميد، يكبرها بأربع سنوات ويعمل صيدليًا، هاجر إلى فرنسا، وتخلّى عن وعوده لها بزواج وعائلة وأطفال.

- لم يُقدّرني حقّ قدري.

مليكة ليست جميلة، لكنها جذّابة، قصيرة القامة، ببشرة بيضاء، مع أنف مستقيم، مستوٍ مع الجبهة، شعر كستنائي، وشفتان جدّ حمراوين. الشّيء المميّز فيها هو لون عينيها الكبيرتين، لها قزحية يمنى زرقاء ويسرى بنيّة.

- أنت ترين العالم بلونين مختلفين، لهذا لا يمكن أن نتّفق.

مازحتها.

- قلبي أيضًا بلونين مختلفين، واحد يحبّك والآخر يكرهك.

ردّت ضاحكة.

في الأيّام الأولى من علاقتنا، تخيّلتها توأم صوفيا لورين، في فيلم «فتاة النّهر». لها ابتسامة مُخاتلة مثل ابتسامة صوفيا. حين تضبط مزاجها، تسخر منّي وهي تحدّثني بإنجليزية فصيحة. والحقّ يُقال إنني من مُعاشرتها استعدت إنجليزيتي، التي كدت أن أضيّعها في زحمة الحياة. وحين تتكدّر، يصعد الدّم إلى رأسها، ثمّ يشحب وجهها، أتخيّل أن مخالبَ ستنبت مكان أظافرها وتغرزها في وجهي، وتتفوّه بقاموس من الشّتائم، بعامية فظّة وذكورية. تتحوّل إلى امرأة مسترجلة.

رغم ما جمعنا، لكن لم يسبق لها أن طلبت منّي الزّواج منها، بل على نقيض ذلك، سألتني، مرّة، ولست أعرف إن كان ذلك من باب الجدّ أو الهزل، عن صفات المرأة التي أنوي الزّواج منها.

- هل ستتزوّج صحافية مثلك؟
- لست أفكر في الزّواج.
- ...
- هل ستغارين لو تزوّجت امرأة غيرك؟
- بل هي التي ستغار لأنك أحببتني.

قهقهت، ثم أضافت:

- إن لم تجد امرأة مناسبة لك، نزوّجك من أختي حورية.

مليكة، التي تخلط الهزل بالجدّ، حاولت أن تبدو غير مُكترثة، أمامي، يوم تلقّت رسالة تهديد من نواطير الأرواح؛ هكذا دأبنا على تسميّة الجماعات المُسلّحة. طلبوا منها التّوقّف عن التّدريس ورسموا لها أسفل الكلمات خنجرًا ومسدّسًا.

- رسم سيئ وخطّ الكتابة أسوأ.

أبلغت الشّرطة بالأمر، وثّقوا معلوماتها، طلبوا منها الحذر، وواصلت حياتها، كما لو أن شيئًا لم يحصل.

خاطبتني مرّة بإنجليزية:

- من يخاف الموت، فلن ينعم بمباهج العيش.

أظّنها التقطت تلك الجملة من كتاب ما، فمليكة تخاف من الموت، دون أن تقرّ بذلك. لا تخرج من البيت سوى بخمار على شعرها. ترتدي ملابس فضفاضة، وتنانير طويلة للذّهاب إلى العمل. على عكس حالها في البيت، حيث تصرّ على ارتداء جينز، يضبط خصرها بدقّة، أو شورت يظهر وركيها العريضين. أعرف أنها محقّة في لبس الخمار، وفي ستر كامل جسدها، في الشّارع، تجنبًا لأي اعتداء أو مُضايقات، لهذا لم أرد إحراجها بملاحظتي.

قضيت ساعة وأنا أفكّر في الكلمات، التي وجب عليّ التّلفظّ بها لأخبرها عن نيّتي في السّفر إلى بلد سي أحمد، وقبل ذلك، عن تكليفي بالذّهاب إلى «سيدي لبقع». هل أقول لها: «سأذهب لتدوين شهادات النّاجين من مجزرة، ثم أُسافر وأغيب عنك». أو أقول: «سأكتب عن عائلات الضّحايا، ثم أطير إلى سلوفينيا، ونتواصل بالهاتف فقط». حدست أنهما جملتان قاسيّتان. ولزمني التّفكير في كلمات أخرى. رأسها عنيد صلب، مثل حجر الغرانيت. تزعم أنّها تقدّر حريّتي الشّخصية، لكنّها تُريد أيضًا أن تتملّكني. ذلك الحبّ القلق مع مليكة لم يقتلني، فما يؤرّقني دائمًا هو الموت الذي يحوم مثل غربان الجيفة على امتداد سماء المدينة، قد يصل إليّ في أيّ وقت.

تفقّدت جواز سفري، وفكّرت في أغراض أحملها معي؛ بعض الملابس وعرجون دقلة نور كهدية لسي أحمد، ثمّ فاجأني طرق خفيف على الباب.

- من هناك؟
- أنا شريف، جارك يا سليم.

فتحت الباب، بحذر، ووجدت جاري شريف، يقف أمامي بملابس داخلية وقدمين بجوربين أبيضين، ويقرّب منّي، بيده اليمنى، دلوًا صغيرًا فارغًا.

- ليس عندنا ما نغسل به وجوهنا، في الصّباح.

ذلك الأمازيغي المتقلّب لم يكن، من قبل، في مزاج حسن معي. عندما كنت أحييه، في سلالم العمارة، يرد عليّ بلا مبالاة، وهو يمتنع عن النّظر إليّ.

- أنا أيضًا لا أملك ماءً.

قلتها له بجفاء، وبملامح صارمة، كي لا يُعيد طرق بابـــي ليلاً، واستدار عائدًا إلى شقته الضّيّقة، التي يقتسمها مع زوجتـــه وأبنائـــه السّتة، دون أن يعلّق أو يقول تصبح على خير. استحممت بســـطل، وتركت الآخر لوقت الحاجة. مضغت نصف باغيت الخبز مع مثلثي الجبن، خفّ صُداعي، وغيّرت محطّة الراديو، التي اتّفقت نشراتها على بثّ أخبار الكرة والرّعب، إلى محطّة أجنبيّة، كانت تبثّ أغاني جـــاك بريل، وأنا أتصوّر نفسي أسير في شوارع سلوفينيا، دون أن أعلم ما ينتظرني من شؤم، حوّلني إلى شخص آخر، وجعلـــني أخجـــل مـــن مُصارحة النّاس بأمري.

## إيفانا

نجوت من الموت، وخرجت من حبس، ظننت أنني سأمكث فيه سنوات طوال. أزهقت روحًا، والتحقت بالقتلة، ثمّ تعثّرت، وتخيّلت أنني لن أقف على رجليّ، من جديد. شعرت أن عمري يتبخر، ببطء، ولن أحقّق حلمي، الذي حملته معي، هنا وفي غربتي، كما تحمل أمّ رؤوم جنينها الأوّل. تصوّرت أن الحرب التي مزّقت وجه سراييفو، ستجرفني معها، وتحوّلني إلى خرقة بالية، لا نفع منها. بزغت صورة شقيقتي الصّغرى في ذهني، وخفت أن يختلّ عقلي، وأجنّ مثلها. لكن يدًا خفيّة سحبتني إلى الأعلى، وقذفتني إلى حيثما أُريد. هل هي يد العذراء؟ التي طالما عصيتها! لست أعرف من أنقذني، دون أن يطلب مني مقابلاً، لكنني أقرّ أنني أنا السّبب في كلّ ما حصل لي من مصائب ومحن.

قبل أن أصل إلى هذه اللحظة، التي أكتب فيها الآن، كنت أشبه فُقاعة عائمة. وجودي أو عدمه سواء. قُنوطي بلغ ذروته، في ذلك اليوم البائس، الذي تأخّرت فيه عادتي الشّهرية عن موعدها. هل نقض بوريس وعده لي بأن لا تذهب علاقتنا أبعد من حدودها؟ همهمت. هو الشّخص الوحيد الذي تنازلت له عن جسدي، بعدما هجرني غوران. تأخّر العادة الشّهرية أقلقني، جعلني أتخيّل أحقر السّيناريوهات، وأنبت في رأسي رغبة ملحّة في هجر هذا البلد. أسوأ شيء يحدث لامرأة هنا هو

أن تستيقظ حُبلى وتنجب أطفالاً. وحدها الطّيور ما زالــت تتكــاثر. الكلاب والقطط قلّ عددها و لم نعد نُصادفها في الشّارع بنفس الــوفرة، كما ألفناها في الماضي. الأشجار والزّهور الموسمية أيضًا اختفت. لم أعد أرى زهر إكليل الجبل، الأبيض والبنفسجي، الذي عرفته في صــغري، ولا شُجيرات القرنفل، ببتلاتها الوردية، ولا زهور الجيرانيوم، التي كانت تُزيّن الشّرفات. اللون الأخضر يمّحي يومًا بعد آخر.

في صباح ذلك اليوم، دخلت الحمام أربع أو خمس مرّات لأطمئن على نزول قطرات، لكنها تمنّعت. تخيّلت أن بطــني ســينتفخ وأمّــي ستوبّخني: «أنت مغفّلة ومتهوّرة». نظرت إلى وجهي الشّــاحب في المرآة، دلكت نحري بيدي اليمنى ومنّيت نفسي أن يظهر اللون الأحمر في أيّ لحظة. لم أضف كلمة واحدة إلى نصّ المسرحية، التي تباطــأت في إتمامها و لم أفتح كتابًا للمطالعة. نرفزتي أثارت أعصــاب رأســي، الذي كان يُشبه كرة جلد بين يدي طفل يرتجف. وضحكات أخــتي وبكاؤها المتقطّع زادوا من توتري. منذ موت والــدي، قبــل خمــس سنوات، بشظايا قذيفة، دخلت آنا، أو آنتشي كما نُناديها، في اكتئاب حادّ. يحصل أن تبكي وتضحك في اللحظة ذاتها. نسيت اسمينــا أنــا وأمي، أو تدّعي أنها نسيت، لكنها تتذكّر وجهينا وتعرف أننا عائلتها. تُعانقنا، أحيانًا، بلا سبب أو تشيح بوجهها عنّا. تجلس معنا، مــرّات، حول مائدة الطّعام، لكنها لا تأكل. تفضّل أن نحمل لها صينية أكلــها إلى غرفتها. وإن سألناها عن شيء فهي لا تُجيب. هذه الحالة تســوء أكثر عند هبوط الظّلام. لا تنفع المهــدّئات ولا الحبــوب المضــادّة للاكتئاب، في تنويمها. تقضي الليل وهي تتكلّم في أشياء لا نفهمها، في مُحادثات طويلة مع أشخاص لا يراهم أحد سواها.

وجدت نفسي مطوّقة في بيت أشبه ما يكون ببيت أشباح، بين أمّ صموت، يمكنها أن تقضي أيامًا دون أن تُحرّك لسانها، وأختٌ فشل الأطباء في مداواتها، بينما شقيقي الوحيد هاجر إلى سلوفينيا، وانقطعت أخباره. أقنعت نفسي أنني سوف أُنهي المسرحية، التي أخذت منّي وقتًا طويلاً، فقد فضّلت أن أكتبها بالإنجليزية، بمساعدة بوريس، وأعرضها على ركح مدينة غربية تحترم موهبتي، وأُغادر هذا البلد، الذي لم أجنِ منه سوى كره نفسي وكره جيراني.

سكبت نصف كأس راكيا، لأخفّف من اضطرابي. لست مُدمنة، لكنني تعوّدت أن أحفظ قارورة في غرفتي، أضعها أسفل السّرير أو في الدّولاب، أشرب منها، من حين إلى آخر. تعوّدت أن أتجرّع نصف كأس أو كأسًا كاملة، كلما شعرت بصُداع أو دخلت في مزاج سيئ. لم أكن أعرف أين تقودني دروب الحياة. أردت أن أصير كاتبة مسرحية أو مُمثّلة وكفى. هذا ليس طموحًا صعبًا في مكان عادي، لكنه هنا أشبه بمعجزة. قضيت، سنوات من شبابي، في أكاديمية الفنون، مثّلت بعض الأدوار الصّغيرة، ثم جاءت الحرب، وأحسست بصدمة بعد غلق المسرح الذي عملت فيه. تحوّل إلى ملجأ أيتام ثم تهاوى، بعدما توقّفت القذائف ورصاصات القنّاصة، وتهاوى معه طموحي، وشيّدت مكانه، بناية جديدة، بمحلات تجارية في الطّابق الأرضي وشقق سكنية في الطّابقين الأوّل والثّاني منه.

كنت أتبجّح أمام زميلاتي:

- سرايفو أنجبت أمير كوستوريتسا في السّينما وإيفانا يوليتش في المسرح.

علّقت عليّ أحداهن: «أنت تبحثين عن الشّهرة وليس عن المسرح». من يومها خاصمتها، مثلما خاصمت صديقات أخريات، بسبب كلمة أسأت فهمها أو بسبب مزاجي المتقلّب. وحين صحوت من الصّدمة، وجدت أن من أعرفهم قد تشتّتوا، وكلّ شيء تغيّر، حتى لغة النّاس العاديين في الشّارع صارت غريبة عليّ. قضيت أشهراً بلا وظيفة ولا دخل يؤمن لي عيشًا كريمًا، إلى أن عثرت على عمل كنادلة في مطعم فندق ذي أربعة نجوم. قلت في نفسي إنه عمل مؤقّت وسأعود إلى المسرح، حين يتحسّن حال البلد، لكنني بقيت في ذلك العمل عامًا ونصف العام؛ أقضي ستّة أيام في الأسبوع، مع زبائن من بقاع مختلفة، وفي اليوم الذي أرتاح فيه، تخترق رأسي ضحكات أختي وشهقاتها، تستفزّني إلى درجة أفضل فيها العمل وتبعاته المرهقة على البقاء في بيت لا يختلف عن مصحّة مجانين.

أمّي لم تُبالِ بالقلق الذي سكنني طويلاً، غير أنني أشفق عليها. هي أيضا عانت مثلي. نالت نصيبًا كافيًا من الشّقاء والبؤس والتّعاسة في هذا البلد. لست أفهم كيف قبلت البقاء عمرًا كاملاً مع أبي، الذي كان يضربها، على وجهها وأسفل بطنها، ويركل مؤخرتها، ويصفها بالمخبولة، ويشتمها ويشتم أهلها، حين يتقلّب مزاجه أو يُسرف في الشّراب. كنت كلّما عجزت عن الدّفاع عنها، وعن صدّ صفعاته بسبب قصر قامتي أمامه، ألوذ بالبكاء وأتوارى أسفل طاولة المطبخ، أنتظر أن تنتهي طقوس تعنيفه لها، وينعزل في غرفته وهو يتمتم كلمات نابية، لأحضنها أو تحضنني، أسمع شهقاتها وتسمع شهقاتي، وهي تُحاول تطميني: «لن يطول الأمر ويعود إلينا كما كان». لكنه مات دون أن يعرف طريقًا إلينا.

مارس أبـــي مهنًا كثيرة، قبل أن يشتري مخبـــزًا، في الضّـــاحية الغربيّة من المدينة، وفّر له دخلاً محترمًا، وبدل صرفه علـــى عائلتـــه، فضّل أن ينفقه على شهواته، وعلى القمار والإسراف في السّكر. أمّي لم تُعاتبه على خياناته لها. ولا أذكر أنّه دخل البيت يومًا مبتســـمًا أو حاملاً معه هدية لها، بل دائمًا عابسًا ومغتاظًا. لم يسبق أن شـــاهدته يضرب شقيقي ساشا ولا شقيقتي الصّغرى، التي للغرابة عطف عليها. كان يأخذها معه أحيانًا، إلى منطقة باشتشارشيا، في وسط المدينـــة، يشتري لها ملابس جديدة ويملأ جيوبها بقطع نقدية.

تبدو لي أمّي مثل جبل من الألغاز. مُستسلمة لأمرها. لا تُمانع ولا ترفض ولا تحتج. تذهب، كلّ أحَد، إلى قدّاس الكنيسة، ثم تعود لتُمارس قدّاس الصّمت. تحمّلت كلّ الوقاحات وصبرت، ويوم مات أبـــي، خصمها ونقيضها، لم تذرف دمعة، لكنها حزنت بشدّة على فراقه، وما تزال إلى اليوم تكرّر للجيران ولنسوة تلتقيهن في الشّـــارع أو في الكنيسة أنها تشعر بوحدة في غيابه، وتمنّت لو أنّها رحلت قبله. تذهب أحيانًا إلى المقبرة، لإيقاد شمعة والاستئناس باسمه المكتوب على شاهد القبر، ولا تملّ من تأمّل صورة له، بشارب كثيف، علّقتـــها في الصّالون. المخبز الذي ورثناه عنه باعته لتُساعد شقيقي بمال احتـــاج إليه للهجرة إلى سلوفينيا، ولو فكّرت وفكّر معها في إعادة فتحـــه أو تأجيره لكان أفضل لهما. أعلم أنّ أمّي الصّموت لم يخف عنـــها مـــا يمور داخلنا، أنا وشقيقتي، لكنها آثرت الصّمت على الكلام. عطفت علينا بوجومها، بدل أن تُعاتبنا أو حتى تُواسينا. كان أبـــي شـــديد البأس بعضلاته وبصراخه، وظلّت أمّي أقوى منه بوحدتها وعطفهـــا على أبنائها. قلبها يُشبه إسفنجة، تتشرّب الأحقاد على مهل. ما أثار

نرفزتي أنها لم تسألني يومًا عن حالي؛ إن كنت راضية بعملي في مطعم الفندق أم لا! وإن كنت سعيدة بحياتي أم لا! أسئلتها لي لم تخرج عن أشياء حياتية تافهة: «هل أكلت؟»، «هل نمت؟»، «هل تودّين وضع ملابس لك في الغسّالة؟». كنت كلّما عُدت من العمل، قابلتني بكلمة واحدة: «زدرافو» (مرحبًا)، قبل أن تختلي بنفسها. لا بدّ أن بالها كان مشغولاً بوضع آنتشي أكثر منّي. فالابن الأصغر له حظوة أكبر من غيره في قلب الأمّ.

سهوت في انتظار قطرات دم، تنزل بين فخذيّ، ودار بخلدي دعوتها، هي وشقيقتي، للخروج قليلاً، وشرب قهوة أو تناول صحن غولاش، بالخضار ولحم البقر أو الضّأن، في واحد من مطاعم باشتشارشيا، رغم أنني أتفادى الذّهاب هناك، كي لا أُصادف صديقات قديمات يعملن أو يتسكّعن في الجوار. ذات مرّة، كدت أصفع ألكسندرا، زميلتي السّابقة في الدّراسة. قابلتها، وأنا في مزاج سيئ، بعد يوم عمل متعب، برفقة زوجها السّويسري الأشقر، الذي يكبرها بعشر سنوات، ورضيعها، قرب محلّ مجوهرات. اجتهدت في الابتسام لها وقبّلت صغيرها. ثمّ سألتني بلؤم:

- إيفانا، متى نراك عروسًا؟

بدا لي سؤالاً ماكرًا. ما دخلها في شأني؟ رددت عليها بنفس وقاحتها:

- حين أجد رجلاً يُناسبني.

انتظرت أن تتفوّه بكلمة أخرى، لأصفعها وأضع حدًّا لفضولها. لكنها صمتت. فهمت قصدي وواصلت طريقها. لحسن حظّها أنّ زوجها لا يفهم جيدًا لغتنا ولم يستوعب ما أردت قوله. تزوّجها

وألحقها بالمؤسسة الخيرية، التي يعمل فيها، والتي توزّع الشكولاتة والأشرطة المرسومة وأقمصة عليها شعارات أندية كرة القدم، بدل أن تبقى في عملها القديم كحاضنة أطفال، بعد أن فشلت في إيجاد وظيفة بدبلومها في السينوغرافيا.

لا شيء شغل بالي، ذلك اليوم، الذي ارتفع فيه قُنوطي، سوى انتظار خطّ أحمر رفيع، يخرج من الأسفل، يُريحني ويكبح قلقي، لأواصل كتابة المسرحية، التي تدور حول ممرّضة شابّة، تفشل في الحبّ، فتقرّر الطّواف حول جمهوريّات يوغسلافيا السّت، إبّان الحرب العالمية الثّانية. تُشارك في إسعاف ضحايا ستّ معارك، كلّ معركة في مدينة مختلفة، لتعود، في الأخير، إلى القرية التي وُلدت فيها، وتجدها أطلالا. ثمّ تدرك أن ستّة من الجرحى الذين أسعفتهم، كانوا يتتبعون خطواتها، على غفلة منها، ويحمونها، ليصلوا معها إلى قريتها، ويُساعدونها في إعادة بنائها. لست جيّدة في الكتابة بالإنجليزية، والزّاد القليل منها سمح لي بالعمل نادلة في مطعم الفندق، لكنني استعنت ببوريس، فهو صحافي وكاتب معروف في المدينة، يتقن الإنجليزية، ساعدني في كتابة المشاهد الأولى وفي تصحيح أخطائي، مُقابل أن أمنحه، مرّة أو مرّتين في الأسبوع، متعة عابرة، في واحدة من غرف التّأجير، التي تكاثرت مثل الصراصير، فأنا لم يكن بمقدوري اصطحابه للبيت، في وجود أمّي وأختي، وهو لا يستطيع دعوتي إلى بيته، في وجود زوجته وابنته.

في فجر اليوم التّالي، ظهر الدّم المنشود، ورغبتي في الهجرة تخمّرت، في رأسي، دون أن أعلم أنني أدخل عهدًا جديدًا، وأنسلخ من حياتي السّابقة.

## الجزء الأوّل

# ربوة النّاجين

# سقف يتداعى

والدي يضيع منّي وأنا غير قادر على الإمساك به. ينظرّ إليّ تارة ويحدّق إلى واحد من جدران الغرفة تارة أخرى. يرفــع بصـــره إلى المصباح المتدلّي أو إلى كادر كُتبت عليه آية الكرسي، بخطّ النّســخ. يتمتم بأدعية واستغفارات، يمدّ رجليه إلى موقـــد الغـــاز، ثم يشـــيح بوجهه. لا يتكلّم سوى حين أسأله، عن صحّته وأحواله، ويجـــب أن أقرّب فمي من أذنه اليسرى وأتكلّم بصوت عالٍ، أكرّر سؤالي مرتين أو ثلاث كي يسمعني. بصره ضعف ثم سمعه، وما تبقى له من شـــعر في القفا خضبه الشّيب. ومع الوقت، زادت تجاعيد وجهه وتقـــوّس ظهره وركبتاه صارتا لا تحملانه. يتوكّأ علـــى عكـــاز خيـــزران في البيت، ويجلس على كرسي متحرّك إذا أراد الخروج. وقبـــل أشـــهر بدأت ذاكرته تضطرب. عندما زرته، في عيد الفطر الأخير، بادرني: «هل ذهبت إلى الجامعة؟». بدل أن أُجيبه وأُصحّح له، بقيت أنظـــر إليه، لكنه لم يكرّر سؤاله. شعرت أنني بدأت أفقد والـــدي، بعـــدما فقدت أمّي، التي خطفها سرطان المعدة. كان ينســـى أيـــن وضـــع عكازه، أو ينسى تناول أدويته، يحدث أن يُغلي ماءً لتحضير شاي في المطبخ، ثم يتركه يبرد ويذهب لقضاء شأن آخر، لكن لم أتخيّـــل أن تضعف ذاكرته، إلى درجة ينسى أنني أنهيت الجامعة منذ ســـنين. في البدء، اعتقدت أنا وأخي الأكبر فاروق أن الحاجّ، كما نُناديه، بات

ينسى تفاصيل بسيطة، بسبب تقدّمه في السنّ. ثم صار ينسى أيضًا أشخاصًا التقاهم في اليوم ذاته. فاروق يعيش بالقرب منه، ويعلم ما يجري مع الحاجّ أفضل منّي، لكنَّه لا يقرّ بأنه أُصيب بالزهايمر.

أحسد والدي على ذاكرته المعطوبة، هو لا يعلم أن الحرب صارت سرطانًا يبتلع الأرواح مثلما ابتلع روح أمّي. في المرّات القليلة التي يخرج فيها إلى الشّارع، على كرسيه المتحرّك، برفقة أخي أو ابن أخي إبراهيم، لا يتوقّف عن التّذمّر من كثرة النّاس والجلبة. والتّلفزيون الموجود في غرفته، يبثّ أنباء الجنائز، وهو يستمع إليها من غير انتباه.

التحق والدي بثورة التّحرير، وهو في الرّابعة والعشرين من عمره، برتبة رقيب وترقّى إلى رقيب أوّل. تكنّى حينذاك باسم: عمّار، بدل اسمه الحقيقي إبراهيم... «يا عمّار جيب الأخبار»، كان يُمازحه رفاقه في الماضي... صادق الشّهيدين سي الحواس ومصطفى بن بولعيد، وقاد ثلاثة عشر كمينًا ضدّ جيش الاحتلال الفرنسي، ثمّ أُلقي القبض عليه عام 1959. سُجن في سور الغزلان، وترك أمّي وحيدة، ثم نُقل إلى سجن سركاجي، وخرج منه في ربيع 1962. عمل، بعد الاستقلال، بضع سنوات، في شرطة بوسعادة، ثم ذهب إلى الحجّ، وأنا في الثّالثة من عمري، كما أخبرتني المرحومة والدتي. عاد من مكّة وقرّر أن يتخلّى عن مدينته الجنوبية وينتقل إلى العمل والعيش في هذه المدينة، التي تحايلت على مدن أخرى وفرضت نفسها عاصمة للبلد.

جئت للاطمئنان عليه، لأحكي له عما شاهدته في قرية «سيدي لبقع»... جئت أحمل الأخبار لبابا عمّار... عن وديان الدّم التي سفحت في ليلة رمضانية واحدة وعن مشقّة الكتابة عن تراجيديا نتقاسمها بعدل ومساواة. لكنه صدمني بسؤاله: «هل ستزور سي أحمد في بوسعادة؟».

تأكّدت حينها أن والدي لم يعد كما عرفته. سي أحمد لا يُقيم في بوسعادة، لقد هجر البلد، قبل ربع قرن ويزيد، إلى يوغسلافيا، ويعيش في الدّولة النّاشئة المسمّاة سلوفينيا. سي أحمد يصغر الحاجّ بسبع سنوات. التحق بالثّورة برتبة عريف أوّل، لكن لم يُلق القبض عليه و لم يعرف السّجن. بعد الاستقلال، قضى ستّ سنوات في الجزائر العاصمة. عمل في مصنع لدباغة الجلود وشارك في إعادة دفن رفات الأمير عبد القادر، بعد استرجاعها من دمشق، وهي قصّة ظلّ يردّدها سنوات على الجميع، كما لو كان هو من استرجع رفات الأمير بنفسه. جمع بعض المال وساعده والدي، في أواخر السّتينيات، بقرض مُريح، فتزوّج من ابنة شهيد، لم ينجب منها أطفالاً، وافتتح ورشة لصناعة وتصليح الأحذية، في بوسعادة، تطوّرت مع الوقت وصارت مصنعًا صغيرًا، يوظّف ثمانية عمّال آخرين، وأطلق عليه النّاس اسم: أحمد السبابيطي. في العام الذي وُلدت فيه، انتحرت زوجته الأولى. دفنها وسافر إلى يوغسلافيا، بغرض زيارة مصنع للأحذية والاستفادة من تكوين مهنيّ فيه. تعرّف على فتاة تُدعى نادا، تزوّجها وأنشآ معًا مصنعًا للأحذية هناك. كان يُداوم على زيارتنا مرتين كلّ سنة. ولأنني الأصغر سنًّا في بيت الحاجّ، فقد كان يغدق عليّ من لعب وحلوى وملابس، بشكل يُثير غيرة فاروق. آخر مرّة جاء فيها، والمرض قد استبدّ بأمي وهزل بدنها، جلس معنا، أنا ووالدي وفاروق، لمشاهد مباراة بين هولندا والدّنمارك، في بطولة أمم أوروبا 1992. وسألني:

- هل قرّرت أن تصير صحافيًا؟
- نعم.
- هل أنت متأكّد؟

– نعم.

اهتمامه المفرط بـــي ضايقني، لكنني تجنّبت أن أعبّر لـــه عـــن امتعاضي منه. في الأعوام الأخيرة، صار يكتفي بالاتّصال على مرّات متقطّعة؛ يتحدّث مع فاروق للاطمئنان على الحاجّ، شقيقه الوحيـــد، فعمّتي أمّ الخير، التي كانت تصغر والدي بثلاث سنوات، توفيّت أثناء حرب التّحرير، ليس في الجبل، بل في بيت طيني وهي تضع مولودها الأوّل، الذي خرج إلى العالم جثّة، يسأل عني ويسأل فاروق عن ابنه وزوجته فريدة، عن أقارب لنا وأصدقاء وجيران قدامى، لكنه توقّف عن زياراته لنا. هل يخاف على نفسه؟ وهو المناضل القديم الـــذي لم يخف من جيش الاحتلال الفرنسي! يفضّل أن يعيش مغتربًا عن بلده، مع زوجته وابنيه سفيان وخالد، بدل أن يقتسم معنـــا قلـــيلاً مـــن الخوف، الذي تسرّب إلى روح البلد.

الحاجّ نسي كلّ ذلك وأنا كبحت نيّتي في إبلاغه أنني قدّمت طلب تأشيرة وسأذهب لزيارته، ليس في بوسعادة، بل في سلوفينيا. سمعت من فاروق أنّ مصنع الأحذية الذي كان يُديره سي أحمد قد أفلس، وصـــار يُعيل عائلته من مقهى. لست أعرف، هل هو مقهى أم حانة! لكنـــهما سواء. المقاهي في أوروبا تقدّم المشروبات الكحولية أيضًا، لكن عمّـــي أخبر فاروق أنّه افتتح مقهى، ربما خجلاً من نطق كلمة حانة.

قبّلت رأس الحاجّ، وفتح فمّه كما لو أنه يودّ قول شيء مـــا، ثم صمت، وخرجت محبطًا، تاركًا إيّاه يستغفر ويسبّح ويحمدل. هـــي الكلمات الوحيدة التي مازال يذكرها، فقد نسي قصار السوّر وترك الصّلاة، التي طالما حرص عليها في الماضي أشدّ الحرص. في البدايـــة، توقّف عن الذّهاب إلى المسجد، تنازل عن مكانه الأثير في الصـــفّ

الأوّل، خلف الإمام مباشرة، تخلّى عن سجادته، التي تعلّق بها ومنع غيره من الصّلاة عليها، كما لو أنّها بساط علاء الدّين، ثم بات يجمع الصّلوات مع بعضها بعضًا، وشيئًا فشيئًا، انقطع عن الرّكوع والسّجود نهائيًا.

دخلت مقهى «الأحباب»، الذي لا يختلف عن باقي مقاهي هذه المدينة، المُتشابهة فيما بينها في عبوسها وفوضاها وضجرها، وفي طعم القهوة التي تقدّمها لزبائنها؛ مُرّة ويلزم وضع ملعقتين من السّكر، وأحيانًا أكثر، لتصير صالحة للشّرب. حيطانه عارية سوى من تقويم للسنّة المنتهيّة 1997، معلّق خلف الكونتوار، وكراسيه بلاستيكية متّسخة، من تداول الظّهور والمؤخرّات عليها. جلست في زاوية مُنعزلة، لتجنب نظرات جاري شريف الأشيب، الذي لمحته يجلس وحده، يلعب بعلبة تبغ، وبدا لي أنه شاخ، من أعباء ستّة أبناء، يُعيلهم من عمله كسائق سيارة أجرة، وطلبت فنجان قهوة. أحضر لي النّادل العشريني طلبي دون أن ينظر إليّ، من غير أن يبتسم أو يتفوّه بكلمة. شعرت كما لو أنني أحرجته بطلبي. كان يذرع المكان، وقميصه المخطّط بالأصفر والأسود، كما لو أنّه مايا النّحلة، ملطّخ ببقعة زيت. عيناه تتحرّكان في كلّ الاتّجاهات، وسمعه مركّز على الرّاديو الذي يبثّ مباراة اتّحاد الحراش ضدّ شباب قسنطينة، مزهوًّا بتقدّم فريقه بهدف دون مقابل.

- الحرّاش هذا العامّ تدّي الشومبيونا.

خاطب زميله الذي يحضّر القهوة.

- هذا عام مولودية الجزائر.

ردّ عليه.

–   وراس يمّا العزيزة غير عام الصّفرا والكحلة.

بسبب الهزائم المتكرّرة للمنتخب الوطني صـــرت غـــير مهـــتمّ بالبطولة المحلية. أكتفي بقراءة أو سماع النّتائج وغير متحمّس للذّهاب إلى الملاعب. في الحقيقة، أتجنّب الذّهاب للأمكنة التي يتجمّع فيهـــا النّاس، لا أذهب للأسواق ولا للمساجد ولا للأعراس. خوفي من أي تفجير قد يحدث، في أي لحظة، ولّد عندي فوبيا من الحشود. وهـــذا المقهى الذي أجلس فيه، غالبًا ما أدخل إليه فقط صباحًا قبل العمل، أو حين أكون على موعد عابر مع صديق. فقد اتّفقت مع فتحي أن نلتقي، ووصل متأخرًا بنصف ساعة.

–   الله غالب يا سليم. الطّريق زحمة ونقاط تفتيش الشّرطة كلّ خمسمائة متر.

فتحي، ببشرته السّمراء الفاتحة وشعره البنيّ وشاربه الغجـــري، يكبرني باثنتي عشرة سنة، هو في سنّ جارتي نصيرة. نحن صـــديقان وزميلان في الأدب وفي الصّحافة. يشعر أحيانًـــا بغربـــة في هـــذه العاصمة، المحتشدة بالخوف والكوابيس، ويحنّ إلى مدينته الصّـــغيرة، المُجاورة لتلمسان، التي جاء منها. وأكثر من مرّة، أخبرني عن نيّته في العودة إليها، وهجر الصّحافة والتخلّي عـــن مشـــاريعه الكتّابيـــة، والاكتفاء بعمل بسيط، في التّعليم أو في الإدارة، كي لا يُلاقي مصيرًا مُشابهًا لمصير كتّاب وصحافيين ماتوا غدرًا، لكنه يتراجع عن ذلـــك، ويبعث رغبته في مواصلة العيش هنا، بجوار الموتى والأحياء المحتضرين. ففي الجزائر العاصمة، تعرّف على حبيبته نجاة، التي صارت زوجتـــه، وفي هذه المدينة أنجب ابنته سُميّة. التقى فيها كتّابًا وحـــاورهم، وأن يهجرها يعني أنه سيمحي ذكريات مهمّة من عقله، بل أجملها.

- شرعت في كتابة مونودراما بعنوان «عودة قابيل».

قال لي مبتهجًا.

- قابيل لم يُغادرنا ليعود إلينا.
- سأسرد تاريخ الدّم كاملاً. منذ القديم، الجزائري يسفك دم أخيه.
- من يهتمّ بالمسرح؟ النّاس تريد الفرار بجلدها.
- سأكتبها بالفرنسية، وسأجسّدها في فرنسا، سترى!

أنا وفتحي حصل معنا الشّيء نفسه؛ كتبنا في الجريدة، في الشّأن الثّقافي، عن إصدارات أدبية، عن السّينما والمسرح، لكن مع توالي موجات العنف وارتداداها، واتساع مستنقعات الدّم، ألغيت الصّفحة الثّقافية، ووجدنا أنفسنا متورّطين في الشّأن السّياسي، نكتب عن الفظائع وعن الأرواح التي تسقط، كلّ يوم. هو يوقّع مقالاته باسم مُستعار: عمر ديدي، وأنا أوّقع باسم: عمّار بن براهيم، الذي اقتبسته من اسم الحاجّ.

أحضر لي رواية مُراد بورغدة التي طلبتها منه. جلبها صديق له يُقيم في باريس، فروايات بورغدة الجديدة لا تصل المكتبات، وتتداولها الأيدي خفية، كما لو أنّها سلعة محظورة. وبمجرد التّلفظ باسم الكاتب صار جرمًا، بعد اتهامه بالإلحاد وتهديد نواطير الأرواح بتصفيته.

- أخبرني صديق مشترك أن مُراد بخير. انتقل للعيش في بلدة بكّاش، قرب الحدود الليبية.

قال فتحي.

- المُهم أن لا يعود الآن إلى العاصمة.

صرخ النّادل فرحًا، بتسجيل اتّحاد الحراش هدفًا ثانيًا في مرمى خصمه، قفز في الهواء، وتطاير لعاب من فمّه، ثم كتم صوته، بعد أن ألغى الحكم الهدف. «هذا الزبل لا يحترم أحدًا»، قلت في نفسي وهممت لأخرج، أنا وفتحي، الذي ارتشف فنجان قهوته، دفعة واحدة، دون أن يُضيف إليه ملعقة سكر واحدة. أوصلته إلى محطة الحافلات، ليواصل طريقه إلى تيبازة، حيث يُقيم عند قريب له، فقد بات يُغيّر عنوانه، للتّمويه، بعدما شعر، قبل أشهر، أنّ غريبًا تبعه من مقر الجريدة إلى شقّته، الواقعة في ضاحية عين البنيان. أرسل زوجته وابنته إلى منزل أهله البعيد، غرب البلاد، وصار يقضي لياليه في أمكنة مختلفة، متنقلاً من بيت إلى آخر. ويوصيني أن أغيّر، دائمًا، طريقي من العمل إلى شقّتي، كي لا أُلفت انتباه أحد، ولا أقع ضحية في يد الجزّارين، لكنني لم أعمل قطّ بنصيحته. «عجوزك ستبكي عليك»، قهقه. هو يعلم بعلاقتي مع مليكة، وينعتها ساخرًا بـ «العجوز»؛ لأنّها تكبرني بخمس سنوات. «عجوز حنون أفضل من مُراهقة مخبولة»، رددت عليه وودعته.

عُدت إلى شقّتي الغارقة في الصّمت، أنوي الشّروع في قراءة رواية بورغدة الجديدة، وأنا أمنّي نفسي أن يعود الماء إلى الحنفية، وأفكّر في المونودراما، التي يكتبها فتحي، وفي رأسي تلمع صورة الحاجّ وهو يجلس أمامي، على حافة سريره، يضع راحتي يديه على ركبتيه، ينظر إلى الأعلى ويُجيب على أسئلتي بكلمات مقتضبة، وغير متأكّد هل كان يُدرك أنني ابنه أم نسي صلتي به!

هل سأفقد أبي أيضًا ويتداعى السّقف الذي يظلّلني؟ ألحّ عليّ السؤال.

# مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها

بوريس طلب منّي أن أقرضه مالاً، لحاجة تخصّه. فهو لا يُقدّم خدمة دون مُقابل. يسلبني في جسدي ويُريد خطف ما في جيبي.

- «تافاريش» بوريس، لا أملك مالاً الآن. لكنني، سأُحاول أن أتدبّر المبلغ الذي تحتاج إليه.

أناديه بلقب «تافاريش»، بمعنى الرّفيق في الرّوسية، هذه اللغة التي تعلّمت القليل منها في المدرسة، في زمن آمنت فيه أن روسيا سيّدة العالم كلّه، كي يفهم أن علاقتنا ليست أكثر من ضرورة مهنيّة. وأن ما نفعله خارجها مجرد مُغامرة عابرة. لو قبلت الخوض في لعبته وخضعت لقوانينه سيطلب منّي، هذا الأشقر البدين، مثل دبّ آدمي، مُحمرّ العينين على الدّوام، والذي لا يتوقّف عن مضغ راحة الحلقوم، في مرّة قادمة، مبلغًا أكبر. سيجعل منّي قربانًا لنزواته الصّبيانية. لكن ليس لي مال كافٍ. ما أجنيه من عملي البسيط كنادلة بالكاد يكفيني لقضاء شهر في هذه المدينة المُتطلّبة، التي كلّما تقدّمت في العمر ازدادت غلاءً. أما هو فينال راتبًا محترمًا من عمله في جريدة محلية، ومع ذلك لا يرأف لحالي.

الشّيء الوحيد الذي ورثته عن أبي هو حاجتي الدّائمة للمال. جيبي ثقبه نقّار خشب أعمى. يخطر في بالي، أحيانًا، أن أفعل مثلما فعلت لوتيكا، التي كتب عنها إيفو أندريتش؛ أن ألعب اليانصيب،

مع أن حظّي بائس مثلها ولن أربح شيئًا، سوى مزيدٍ من الإحباطات، ثم أمحو الفكرة من ذهني وأستسلم للحظّ التّعيس الذي أحيا فيه. في صغري، أذكر أنني لم أملك أكثر من الأساسيات؛ زوج أحذية عادية للشّتاء وزوج ستارتاز لأيّام الصّيف، أشترته لي أمّي، ورحت أُفاخر به أمام صديقاتي. كانت ستارتاز قمّة العبقرية اليوغسلافية في صنع الأحذية. ولا أكثر من قميصين صيفيين ومعطف شتوي واحد وحقيبة مدرسية واحدة، اهترأت من كثرة الاستعمال. والدي فضّل أن يُنفق ماله على نزواته وعلى الشّرب والقمار واكتفي بالقليل لتسيير أمور عائلته. هو أيضًا عرف علاقة حرجة بالمال، فقد وُلد وكبر معوزًا.

بعد عشرين يومًا من وفاته، حدّثتني أمّي سلافينكا عن أمور أجهلها عنه.

- حين وُلد في السّنة الأخيرة من الحرب العالمية الثّانية، اختفى والده، ولا نعلم هل مات أم هاجر إلى مكان ما، ومنحته جدّتك اسمها العائلي.

جدّتي أو «باكا» كما نُناديها، التي غادرتنا، بسبب جلطة دماغية، في العامّ الثّاني من الحرب، التي يُطلق عليها حرب البلقان أو حرب يوغسلافيا أو حرب البوسنة والهرسك، وكلّها تسميات خاطئة، فقد طحنتنا حرب قطع أنسال لا أكثر، عاشت حياة غريبة الأطوار. عندما كنت أذهب إلى زيارتها، في سنوات مراهقتي، تُسرع في إمساكي من معصمي وتُحاول أن تُعلّمني كيف أُغازل الشّباب وكيف أخطف نظراتهم.

- الرّجال يحبّون امرأة مُتمرّدة.

قالت لي.

أصرّت، أكثر من مرّة، على تلقيني كيف أمشي بغنج وكيف أُحرّك أردافي، بتناغم، وكيف أبتسم وأعضّ على شفتي، وكيف أُدير نظري لإثارة مشاعر الذّكور، الطّامعين في طراوة أنثى دافئة. تصرفاتها تلك بدت لي سخيفة. كنت أرضخ لمزاجها ثم أطرد كلماتها وتصرّفاتها من ذاكرتي، بمجرد مغادرة بيتها. حصل مرّة أن أعرض عنها والدي عامًا كاملاً، حين اتّهمها جيران لها، بممارسة الدّعارة، وحجّتهم في ذلك أنها تُطيل أظفارها وتعتني بهم، وتلوّن شعرها وترتدي تنانير قصيرة وأحذية بكعب عال. هذه الحجّة لم تُقنعني يومًا، ولا فرضية أنها ضاجعت رجلاً، من أجل المتعة، وحبلت منه. أظنّ أن جدّتي، التي لم تلد سوى ابن وحيد، عاشت بقلب امرأة عاشقة. لا بدّ أنها حبلت بأبي أنتون من رجل أحبّته ثم مات أو أرغمته ظروف على هجرها. علاقة أبي بجدّتي لم تعرف استقرارًا؛ سادها الحدّ الأدنى من الاحترام، مع كثير من الخصومات. كان يذهب أحيانًا لزيارتها، على عجل، ويُرسلني أنا وشقيقي وشقيقتي لنقضي أيامًا في بيتها، في العطل المدرسية، لكن لم يسبق لي أن رأيتها في بيتنا. لم يدعها أم أنها تمنّعت عن المجيء؟

حكت لي أمي أنّ أبي قضى، في سنّ الثّامنة عشرة، بضعة أسابيع في الفيلق الأجنبي للجيش الفرنسي، ثم تركه. كيف فكّر في ذلك؟ كانت حرب الجزائر قد انتهت، وحاجة فرنسا للجنود الأجانب قلّت. أغلب الظنّ أنه طُرد من الفيلق الأجنبي ولم يخرج منه بإرادته، فالصّور الثّلاث له، في فرنسا، يظهر فيها شابًا بشارب وشعر أسودين، ذا عضلات بارزة، في شاطئ شبه مهجور، كما لو

أنّه ممثل سينمائي في إجازة، ولا صورة واحدة له بالزّي العسكري، مع ذلك أذكر أنّه كان يفهم الفرنسية. ربما فكّر في الالتحاق بذلك الفيلق للهروب من حياته البائسة في هذا البلد، بقصد تناسي طفولته الصّعبة وخوض تجربة جديدة، لكنه سرعان ما عاد إلى أصله وإلى الخدمة العسكرية الإجبارية في يوغسلافيا سابقًا.

تعرّف أبي على أمّي، قبل أن ينهي خدمته في الجيش، وهي شابّة، تعمل في مصنع للنّسيج، بعدما فشلت في الدّراسة. في حقبة لا أتخيّلها سوى بالرّمادي، لم تكن حينها توجد عصائر معلّبة ولا عطور مستوردة. أمّي وُلدت في أسرة ميسورة الحال، والدها «ديدو» رانكو عمل في المطار وأمّها دراغيتسا، عملت في مكتب البريد، ماتت بالتهاب الرّئة، وتركتها في السّابعة من عمرها؛ لهذا اضطر جدّي للزّواج ثانية من امرأة أخرى، ساءت علاقتها بها. وفي التّاسعة عشرة من عمرها حبلت بي. أتمّ والدي آنذاك الخدمة العسكرية وتزوّج منها من دون حفل ولا صخب. عمل في ورشة بناء، ثمّ في مزرعة، ثمّ صار سائقاً لشاحنة نقل بضائع. يُسافر، كلّ أسبوع، إلى الجبل الأسود أو كوسوفو أو صربيا، ينقل سلعًا إليها ويجلب أخرى منها، ويترك أمّي وحيدة، تتحمّل مشاق الحمل، في بيت خالتي الكبرى برناردا، التي وجدت نفسها مُعيلة لأربعة أطفال، بعد أن توفي زوجها، مخمورًا، في حادث سير، قرب مدينة توزلا. حين وُلدت، كان أبي في بلغراد. اتّصل بالمستشفى وسأل ممرّضة عن حالي وحال أمي ثم أقفل الخطّ، ولم يراني إلا بعد أسبوعين من ميلادي. سكنّا، في صغري، شقّة ضيّقة، من غرفتين ومطبخ، في أعالي المدينة، باردة شتاءً ورطبة في الصّيف. مع مرور السّنين، جمع أبي بعض

المال واشترى الشّقة التي نسكنها الآن، بغرفها الأربع، التي تعتني بها أمّي أكثر مما تعتني بوجهها وجمالها، ثم استلف قرضًا من البنك واشترى مخبزًا صغيرًا. لم يكن يعرف شيئًا عن تحضير الخبز والحلويات، لكن صديقًا له، اسمه سمير، يسخر منه البعض، في السّر، بتسميته «شيبتر»؛ لأنّه مُسلم ويحتفل، مثل الأتراك، بعيد المسلمين المسمّى «بيْرَم»، ساعده وعلّمه، ثم انفصل عنه وافتتح سمير مخبزًا له، بالقرب من نهر ميلياتسكا، الذي يقسم المدينة إلى شطرين. ولما بدأت الحرب، غادر سمير سراييفو ولم يعد إليها سوى بعد رفع الحصار. أعاد فتح مخبزه وجاء لدقائق معدودات إلى البيت، قدّم لأمي تعازيَ في وفاة والدي، وغادر مهرولاً، كما لو أنّ شخصًا ما يُطارده.

رغم أن والدي وفّر لنفسه وضعًا أفضل من بعض الجيران الآخرين، وأمتلك مدخولاً، فقد كنت أنا وأخي ساشا نتجنّب أن نطلب منه شيئًا، لعلمنا بانفعالاته ونرفزته كلّما جاء الحديث عن المال.

- يفضّل أن ينام عاريًا تحت الثّلج على أن يخرج دينارًا واحدًا من جيبه.

حدّثني، ذات مرّة، ساشا.

كنت أضطر لتقديم خدمات له كي أنال منه بعض ما أُريد، من أجل شراء أدوات مدرسية أو جوارب أو ملابس داخلية، كأن أدلّك رجليه أو أسفل ظهره أو يكلّفني بأن أخرج، في أيّام البرد، لأشتري له سجائر أو مشروبات كحولية. لكن طاعتي له لم تليّن طبعه وزادت في قسوته عليّ. ففي واحدة من المرّات، بعدما ضيّعت مفتاح البيت، وأنا ألعب مع زميلات لي في باحة المدرسة، أنزل بي عقابًا، لم

أنسه. أقترب منّي، في صمت، مثل ثعلب يمكر بفريسته؛ برقت عيناه ثم انطلقت يده الغليظة، على نحو مُباغت، مثل شرارة، وصفعني، ثم صفعة ثانية، وثالثة أسقطتني أرضًا. جسمي الطّري وقتها لم يتجاوز الثّانية عشرة وهو يصفعني ويشتمني: «حقيرة... خنزيرة... نذير شؤم». سحبني من شعري وضرب جبهتي على الحائط، وأمّي خلفي تترجّاه أن يتوقّف، بينما هو غير مبالٍ بتوسلاتها الدّامعة. من يومها تولّدت عندي ردّة فعل مثل كلاب بافلوف، كلّما اقترب منّي، وضعت يديّ على وجهي، كما لو أنني لا أتوقّع منه سوى أن يصفعني. لم أُشفَ من هذا السّلوك، بعد موته، ما زلت أكرّره، كلّما شعرت بخوف من شخص ما، متخيّلة أنه سوف يصفعني، مثلما فعل أبي.

في المدرسة، تعرّفت على تانيا، التي لا تزال من الأشخاص المحبّبين إلى قلبي. لكن، بعد زواجها، ثم انتقالها للعيش في بانيا لوكا، التي تبعد عن سراييفو مسيرة ثلاث ساعات في السّيارة، صرت لا ألتقيها، وأكتفي بمُحادثتها، بين الحين والآخر، عبر الهاتف، ننكّت ونضحك، ثم تذهب كلّ واحدة منّا إلى سبيلها. درست في معهد الفنون التّشكيلية وحلمت أن تصير فنّانة وأن تُسافر إلى أمريكا. لكنها أنجبت طفلين، وقالت لي، بنبرة ساخرة، ذات مرّة: «فنّي هو مطاردة صغيريّ وتغيير حفاظاتيهما ومُقارعة الأرق». كنّا نلعب معًا، ونخرج للتنزّه مع بعض، نتبادل الملابس مرّات، نسرّح شعرنا كذيل الحصان، ونُساعد بعضنا بعضًا في حلّ تمارين الرّياضيات والفيزياء والكيمياء، ونرسم نجمات حمراء بحواشٍ صفراء، على ورق مقوّى، بأحجام كبيرة، شبيهة بالنّجمة التي تتوسّط علم يوغسلافيا، نستمع

معًا لموسيقى «سيفدالينكا» الهادئة والمُريحة للأعصاب، وإلى صافيت عزوفيتش، ونكتب رسائل للزّعيم تيتو، نرسلها له في عيد ميلاده، مع رسائل آلاف التّلاميذ الآخرين في البلد، ولا نكاد نفترق، سوى مساءً، حين تعود كلّ واحدة منّا إلى بيتها. ومن كثرة تعلّقي بتانيا، اعتقد والدي أنني سحاقيّة. خاطبني وهو يرفع إصبعه مهدّدًا:

– إيّاك أن تجلبي لي العار.

حين أتذكّر أن والدي اعتقد أنني سحاقيّة، أضحك. لماذا أساء الظّن بي؟ حذّرني من ثلاثة أشياء: أن لا أكون سحاقية، أن لا أرتبط برجل زنجيّ البشرة، وأن لا أحكي للنّاس حياتي الشّخصية. لست سحاقية، ولم أرتبط قطّ برجل زنجيّ، لكنني، على العكس منه، أحكي للنّاس عن حياتي. لا أرَى حرجًا من مُصارحة غريب كان أو قريب بما أعيشه. هو عاش كتومًا، ورغم ما حكته لي أمّي عنه، فقد مات ونحن لا نعرف عن حياته عدا القليل.

– في صغره، كان النّاس ينعتونه باللقيط.

تلك الكلمة سببت له أرقًا مزمنًا. مع أن اللقيط هو أفضل الأبناء الشّرعيين، كما قال يوربيديس. لكن أبي لم يعرف يوربيديس ولم يقرأ شيئًا من المسرح التراجيدي الإغريقي. كان يشتبك بالأيدي مع كلّ من يسخر منه، ثمّ ابتكر قصصًا للردّ عليهم، كأن يقول بأن والده التحق بقوات البارتيزان، ومات في الحرب، قرب نهر نيريتفا، أو أنه مُعارض سياسي، يعيش في إيطاليا أو أنه دبلوماسي يعمل في أرض بعيدة. عاش مُدافعًا عن كرامته، ومات ميتة شنيعة، كلقيط حقًّا. نزف كثيرًا قبل أن يلفظ أنفاسه. عندما ذهبت أنا وأمي وخالتي برناردا لاستعادة جثمانه، من المشرحة، وجدناه

ملقى على الأرض، مُسجّى بورق جرائد. دفنّاه في ساعات الصّباح الأولى، وانصرفنا، بخطى مُتسارعة، وأمّي تلهج بذكره وذكر الربّ. وتطوّع حارس المقبرة، في اليوم التّالي، بنقش اسمه على شاهد القبر الرّخامي. يومًا قبل موته، خرجت آنتشي تبحث عن الماء، ولم تعد. اعتقدنا أن الأعداء اختطفوها أو وقعت برصاصة قنّاص. كادت أمّي أن تجنّ وخطر على بالها كلّ السّيناريوهات المُحتملة. في اليوم الموالي، عادت وهي تلهث، بوجه مُصفرّ. احتضنتها أمّي، واعتقدت أنها ستخنقها من شوقها لها، وهي تدمع: «ابنتي... ابنتي أنا... ابنتي أنا». وما أن سمعت آنتشي بنبأ موت أبي حتى غُشي عليها، ثمّ دخلت في اكتئاب حادّ، ازداد وطأة مع الأيّام، وصارت جسدًا هائمًا بروح معلّقة.

أشعلت سيجارة درينا وسحبت نفسًا عميقًا. شاهدت سحابة الدّخان الصّاعدة، تبعتها بعينيّ إلى أن تشتّت، وتنهدت. اكتسبت عادة التّدخين من أبي. كنت أتأمّله، في لحظات هدوئه القليلة، وهو يحرق سيجارة تلو الأخرى، وأسرق، في غفلة منه، سيجارة أو اثنتين، من جيب سترته، وأدخّنها في الشّارع، أو على سلالم العمارة. أظنّه كان يعلم أنني أسرق منه السّجائر، لكنّه لم يُعاتبني ولم يتحدّث في الموضوع مطلقًا. الشّيء الآخر الذي أذكره له أنّه لم يعترض على خياري في الذّهاب إلى أكاديمية الفنون، على عكس أمّي، التي اعترضت في البداية وحاولت إقناعي بدراسة تخصّص آخر يوفّر لي منصب شغل محترم. كلمة «محترم» قصدت منها منصب شغل يوفّر لي مالاً يسمح لي بالتّفكير في الزّواج، بناء أسرة وإنجاب أطفال ورعايتهم. الشّيء الوحيد الذي يشغل ذهن والدتي هو أن

تراني يومًا ما أمًّا. فقدت الأمل في آنتشي بعدما اختلّ عقلها، وصرت الوحيدة المكلّفة بتحقيق رغبتها. أنا مسكونة بالمسرح وقد أنجب منه أطفالاً، لكن أمّي لا تفهم خياري. ما الفائدة من بناء أسرة اليوم لأهجرها مستقبلاً؟ لا فائدة من إنجاب أطفال في هذه المدينة المُرتعشة. لا أريد أن أصير مثل حيوانات تتكاثر ليتكاثر ضجيجها لا أكثر. أعتقد أنني أمّ بلا أطفال، فقلبي يحمل ما تحمله أي أمّ أخرى. لم أجد بعدُ الرّجل الذي يُناسبني، كي أرتبط به، أو هكذا أفكّر، أو ربما مرّ أمامي، في لحظة من لحظات عمري، ولم أنتبه له. قرّرت أن أؤجّل موضوع الأمومة إلى حين، كما أجلت موضوعات مصيرية أخرى في حياتي، وشغّلت التلفزيون. راحت الأخبار تدور وتتكرّر، من الجزائر والشّرق الأوسط وروسيا والهند، وعن عودة السيّاح للبلد. لست أدري لماذا يأتي سيّاح إلى بلد قرّر أهله هجره. تركت التلفزيون ببرامجه المعتادة، فهو الشّيء الوحيد الذي يُطمئنني بأن الحياة مستمرة، تمددت على السّرير، ووصلتني ضحكات أختي وبكاؤها المتقطّع، من الغرفة المُجاورة. أحيانًا، تستبدّ بي رغبة في ضربها، لعلها تستعيد عقلها. مرّة، أضرمت نارًا على طرف فراشها، وقرفصت تتفرّج عليها. لولا يقظة أمّي لحصلت كارثة. وعندما جلسنا في مطعم صغير بباشتشارشيا، راحت تعوي وتصيح كما لو أنّ أفعى لدغتها، وسبّبت لي، أنا وأمّي، حرجًا أمام زبائن المطعم، فسحبتها من يدها، إلى الخارج، وتبعتنا أمي وهي تغمغم: «ميلي بوج!» (يا إلهي)، استقلينا سيارة أجرة وعدنا مُحبطين للبيت.

تذكّرت حكمة أمّي، التي لا تملّ من بصقها: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها»، وضعت الوسادة على رأسي، وغالبت ضحكات

آنتشي، بتخيّل أن رغبتي في الهجرة قد تحقّقت، وأنني أعيش في مدينة بأرصفة واسعة ومحلات ملابس أنيقة. داعبت بظري وأغمضت عينيّ. وعاودني طيف بوريس وطلبه. عزمت على أن أسلّمه 150 ماركـــة فقط، بدل 200 التي طلبها منّي، وأفرض عليه أن يُسرع في مساعدتي لإتمام مشهد آخر من المسرحية. «سأطحن رأسه بصخرة يومًا مـــا»، تمتمت، وخلدت إلى النّوم.

# حيّ الرّمان

في اليوم الأهمّ، الذي ضُبطت عليه السّـــاعات والمواعيـــد... انقطعت الكهرباء. لفّ الظّلام حيّ الرّمان، في يوم نهائي كأس العالم بين فريقي فرنسا والبرازيل لكرة القدم.

أن تنقطع الكهرباء ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات فهذا أمر عادي، تعايشنا معه وتعوّدنا عليه، ويحدث أن تنقطع نصـــف يـــوم، تفسد الأغذية ويهيج الجيران، لكن لم أتوقّع أن تقطع الكهرباء، عن سكان الحيّ، في هذا اليوم المهمّ، فبعض منهم يُتابع أخبار وأحـــوال فرنسا أكثر من الفرنسيين أنفسهم. وحرمانهم من مشـــاهدة نهـــائي كأس العالم، وعدم مُتابعة زيدان في يومه الأكبر، الـــذي يعتبرونـــه جزائريًا رغم كلّ صفاته الفرنسية، أشبه بحرمان رجل من مشـــاهدة ابنه البكر، لحظة الميلاد.

- مشاهدة المباراة لا تهمّني، بل أوّد مشاهدة الاحتفالات التي تلي المباراة.

قالت لي جارتي نصيرة، وأنا أحدّق في ذراعيها البضتين، وابنها ذي الأربع سنوات، الذي تركه لها طليقها، يحوّط وركها بذراعيـــه، كما لو أنّها كانت متأكّدة من فوز الفرنسيين على البرازيليين.

أنا يهمّني مشاهدة المباراة وما بعد المباراة، بل أيضًا الاســـتماع لتحليلات وآراء الجمهور قبل المباراة. فكّرت في الذّهاب عند فتحي،

الذي انتقل للعيش في فندق المنار، بسيدي فرج، حيث يتكدّس صحافيون ناجون من الموت وآخرون مهدّدون، ومشاهدة المباراة معه، ثم أحجمت عن ذلك، فلن أجد وسيلة للنّقل في الليل، ولن أتمكّن من العودة للبيت، ولا أودّ إحراجه بالمبيت في مكان هو نفسه ليس سوى ضيف فيه. خطر في بالي أن أذهب عند الحاجّ، لكنني كبحت رغبتي كي لا أُشاهده وهو ينزل بثبات إلى الدّرك الأسفل. ومليكة لن تستطيع استقبالي، في شقّتها، في وجود أمّها، التي تنوي قضاء بضعة أيّام عندها. ذهبت إلى مقهى «الأحباب»، ووجدت جاري شريف يحتسي قهوة وحده. حيّيته ورمقني بنظرة، من الأسفل إلى الأعلى، دون أن يردّ عليّ كالعادة. دعوت، في سرّي، أن يُصيبه مرض البواسير كي يتعلّم احترام جيرانه. سألت النّادل، الذي يعرفني وأعرفه من دون أن نعرف اسمي بعضنا بعضا، عن مكان لمشاهدة مباراة النّهائي.

– سنغلق المقهى، ونذهب إلى بن عكنون، عند صديق لنا.

بن عكنون حيّ تسكنه شخصيات سياسية مرموقة، وتوجد به مقرّات مؤسسات رسمية، من الطّبيعي أن لا تقطع عنه الكهرباء ولا سيّما في هذا اليوم الاستثنائي، أمّا الحي الذي أسكن فيه فهو حيّ شعبي، لا يُقيم فيه سوى الفقراء البسطاء والمغلوبين على أمرهم، الذين لا يفكرّون سوى في الآخرة بعدما خانتهم مباهج الدّنيا.

في «حيّ الرّمان»، وجدت، قبل عامين ونصف العام، شقّة للإيجار، من غرفتين صغيرتين، صالون، مطبخ، حمام وبلكونة، بمبلغ معقول. دفعت إيجار عام مسبّق، بمساعدة من الحاجّ، لشاب ثلاثيني، يتولّى شؤونها، نيابة عن صاحبها الأصلي، المُقيم في إيطاليا. وسكنتها

دون القيّام بالتّصليحات الضّرورية. سخرت منّي مليكة حينها بالإنجليزية:

- أنت تعيش في بيت جرذان.

لزمني إعادة طلاء جدرانها وتغيير نوافذها الثّلاث، لكنني لم أملك مالاً للقيام بذلك. أقمت فيها دون أن أقوم بأي تعديل ضروري، عدا تغيير صنوبر الماء، في الحمّام، وبعض المصابيح، كلّما لزم الحال. وأتحاشى أن أدعو أصدقاءً لزيارتي، تجنبًا للإحراج. كما إن فاروق لم يزرني، سوى مرّة واحدة، في اليوم الثّاني الذي انتقلت فيه إليها. «المهم أن تخبئ رأسك»، علّق وانصرف وهو يدرك أن المكان لا يصلح سوى لعازب زاهد من ترف العيش.

حين وصلت إلى الحيّ الشّعبي المُجاور لحيّ الرّمان، المُسمّى «زنقة العرب»، وجدت البيوت تغرق في الظّلام والمباراة بلغت شوطها الثّاني. بينما يتجمّع شباب الحيّ في مرأب قديم، تتكوّم فيه خردوات ميكانيكية وأخرى خشبية، حول تلفاز، شغّله أولئك الشّباب بمولّد كهربائي. «زنقة العرب» في كلام العامّة أو «حي 19 مارس» في الأوراق الرّسمية أو «بوغوتا» في قاموس الشّباب، وهؤلاء يُسمّونه كذلك؛ لأنه حيّ الفوضى واللا أمان، حيّ كلّ الجرائم والمصائب، تتراصّ فيه بيوت قصديرية وتنتشر فيه تجارة الحشيش والحبوب المهلوسة.

توغّلت بجسمي الطّويل والنّحيف بين الأجساد الواقفة، التي تشرئب بأعناقها نحو الشّاشة الصّغيرة، ولمحت النّتيجة حينذاك اثنان صفر لصالح فرنسا. بقيت واقفًا ربع ساعة، أُشاهد المباراة ولا أسمع صوت المعلّق بسبب صخب المكان وضجيج المتفرّجين العالي. رائحة

العرق المختلط بروائح عفنة زكمت أنفي. لم أستطع أن أحتمل، خرجت وأنا أتسلّل، مرّة أخرى، بين الأجساد، المتلاصقة فيما بينها. وبقيت أتابع المباراة بحناجرهم. كلّما انفعلوا، اعتقدت أن هدفًا يقترب، لكن سرعان ما يخبون بعد هجمة دون جدوى. ظللت في مكاني حتى الوقت بدل الضّائع حين سجّل إيمانويل بوتي الهدف الثّالث لفرنسا، وخرج الشّباب، من المرأب، محتفلين. أحدهم راح يصفّق ويهتف: «يا فرنسا يا مون آمور (يا فرنسا يا حبيبتي)... أعطينا فيزا... آلي سون روتور (نذهب ولا نعود)!». تمنّيت لو حملت معي الكاميرا وصوّرت فرحتهم، وهم يعانقون بعضهم بعضًا، كما لو أنّهم مساجين خرجوا توًّا إلى النّور، لأعرضها على جارتي نصيرة وأحقّق لها رغبتها.

ذرعت الطريق عائدًا إلى البيت، مرتاح البال، فقد شاهدت بعض أطوار نهائي كأس العالم، وفي اليوم التّالي سأجد ما أقوله حين يحدّثني واحد من الزّملاء، في الجريدة، عن المباراة، فأسوأ شيء يحصل مع شخص مُتابع لشؤون الكرة أن يُضيع مشاهدة مباراة مهمّة، ثم يسمع الآخرين يتحدّثون عنها، كالأطرش في الزّفة، ولا يجد تعليقًا للردّ عليهم أو التّفاعل معهم.

في «حيّ الرّمان»، الذي شيّد على حقل رمّان، بعد الاستقلال، يتعايش الأمازيغي، العنّابي، البشّاري، الوهراني، البسكري، السّوفي، وأيضًا عائلة فلسطينية في عمارة مُجاورة، والدهم يعمل في مكتب مُحاماة. كلّهم يحافظون على صفة البساطة في حياتهم اليومية، لا تظهر عليهم مظاهر التّرف أو الرّفاهية، وحين يُقيمون أعراسًا؛ فإنّ حفلاتهم متواضعة، لا تستمر سوى ساعات قليلة في الليل. في مرّة

ماضية، أقام واحد منهم حفل خطوبة واستضاف فرقة أناشيد دينية، غنّت لساعتين أو ثلاث في مديح الرّسول والصّحابة ثم انصرفت في هدوء.

لم يسبق أن شاهدت عاشقين يتمشيان في الجوار أو يتبادلان نظرات حميمة، و لم أسمع عن زيجات حصلت نتيجة حبّ. الكسل المستديم الذي يعيشه الجيران من حولي وفّر لهم سببًا للتّلصّص على بعضهم بعضًا، الجميع يعرف الجميع، كما لو أنّهم سقطوا كلّهم من رحم واحدة. يبدو أنني الوحيد الذي نجح في إخفاء هويته عنهم. أعيش بينهم مثل ضبّ، لا يُطلّ برأسه سوى عندما يشعر بأمان. وحين يسألني واحد منهم عن عملي أُجيب، على مضض، أنني أعمل مترجمًا، من الفرنسية والإنجليزية إلى العربية والعكس، في شركة خاصّة، فجارتي نصيرة، التي ينتصب نهداها مثل برجي مُراقبة، وتُقيم بالشّقة في الأسفل، مع صغيرها الوحيد، لا تعرف أنني صحافي، وانطلت عليها كذبتي. ربما يظنّونني جاسوسًا، مُندسًا بين ستّ عمارات، بشقق مكتظّة، لا تقيم فيها سوى العائلات. فأنا السّاكن الوحيد الذي لا يُسمع في بيته نُوّاح امرأة ولا زعيق أطفال. لا أفكّر في الزّواج هنا، سأنتظر نصيبي حين أهجر هذا البلد المتقلّب، خلف البحر، قد أجد امرأة على قدر من الجمال والثّقافة وأتزوّجها، ولا يهمّ إن كانت مُسلمة أو غير مسلمة، والدي لن يُعارض خياري، فقد صار بلا ذاكرة، ومليكة، بما أنّها غير متحمّسة للزّواج، ستتفهم قراري. لن أتزوّج في هذه المدينة العابسة لأسكن في شقة مثل علبة كبريت، تُضايقني فيها الخنافس والقوارض. ولا يهمّني ماذا سيقولون عنّي.

اشتريت علبة شمع، من متجر قريب، ودخلت إلى البيت، برغبة في إتمام رواية لساراماغو اقتنيتها، من بائع على رصيف مُقابل للجامعة، فمنذ رواية مُراد بورغدة الأخيرة، التي خاب ظنّي فيها، و لم أجدها بقوة وجاذبية رواياته الأولى، لم أقرأ شيئًا.

استيقظت، في السّابعة والنّصف صباحًا، بقضيب مُنتصب من حلم إيروتيكي، جمعني بمليكة، قطعه عنّي صوت المنبّه القوي. وجدت مصباح الغرفة مشتعلاً، فوق رأسي، وشمعتان على الطّاولة، بجانبي، قد ذبلتا كلياً. قفزت من فراشي، وتهيّأت ليوم جديد. صفّفت شعري وأزلت بثرة ظهرت أعلى حاجبي الأيسر، بالضغّط عليه بإصبعي، لبست قميصًا أزرق بكمين قصيرين وسروال جينز، حملت حقيبة ظهري السّوداء، التي أضع فيها أغراض العمل: آلة تسجيل، مع بطاريتين إضافيتين، كاميرا، أوراق، أقلام ووثائقي الشّخصية، وهرولت إلى مقهى «الأحباب» لشرب قهوة، قبل الذّهاب إلى الجريدة.

في الخارج، صادفني مشهد لم أتوقّعه: جيران يتجمّعون حول عمارة مُقابلة، وصوت قرآن ينبعث من شقّة في الطّابق الخامس، كما لو أنّها جنازة. دخلت المقهى وسألت النّادل: «ماذا حصل؟».

- ألم تسمع؟ نبيلة، التي تعمل في دار البلدية، رمت بنفسها من الطّابق الخامس.
- الله أكبر!

علّقت، دون تفكير، وشعرت برعشة باردة تسري في جسدي.

- يقولون إنّها حبلت من صديق لها. سيُعيدون جثتها من المستشفى، ثم يُدفنونها بعد الظّهر.

تعوّدت على مُصادفة نبيلة، كلّ خميس، فهو يوم راحتي الوحيد، حين تكون عائدة من عملها، وكلماتنا لا تتعدى «بونجور»، أو «مْسا الخير». كانت في حدود الثّلاثين من العمر أو أقلّ بقليل، ببشرة بيضاء، لم تلفحها الشّمس، وقامة متوسّطة الطوّل. تلبس دائما فساتين أو تنانير طويلة مُزركشة، كما لو أنّها خرجت من لوحات باية محيي الدّين. لماذا لم تقوَ على المواجهة وتحمّل مسؤولية ما حصل لها؟ هل الحبّ يفضي إلى الانتحار؟ مليكة أقوى من نبيلة، لن تستلم للانتحار، مهما حصل. فقد قالت لي مرّة: «الانتحار حجّة الضّعفاء».

لم أستطع أن أبتلع القهوة، شعرت بانقباض في أمعائي ورغبة في التّقيؤ وأنا أسترق السّمع إلى النّادل، الذي همس إلى زبون بجانبي: «رأسها انفجر كحبّة دلاع». تركت قهوتي على الطّاولة، دفعت الحساب، وبقيت شاردًا، للحظات. تعكّر مزاجي، وشاهدت شحوب وجوه بعض الجيران، الذين كانوا لا يتكلّمون، فيما بينهم، سوى بأصوات خافتة، عدا نادل المقهى، الذي سرعان ما تناسى الواقعة وواصل عمله. عاد إلى طباعه وسمعته يحدّث زبونًا، دخل لتوّه، عن مباراة النّهائي.

– لولا الجزائر ما أنجبت فرنسا زيدان وما صارت بطلة العالم.

فكّرت أن أغيب عن الجريدة، أن اتّصل برئيس التّحرير وأعتذر له عن الحضور، أن أكذب عليه بأن والدي مريض ويجب أن أزوره، لكي أحضر جنازة نبيلة. أُشارك في حمل نعشها وفي حفر قبرها وفي قراءة الفاتحة على روحها، لكنني أحجمت عن ذلك، فحضوري لن يغيّر من الواقع شيئًا. حين وصلت إلى المكتب، طلبت من زميل لي،

مسؤول عن صفحة الوفيات، التي تحتشد فيها يوميًا صور ونعي ضحايا الحرب، أن ينشر تعزية: «*انتقلت إلى رحمة الله، يوم أمس، الآنسة نبيلة. ع، التي تقطن بحيّ الرّمان، وبهذا المصاب الجلل، نتقدّم لعائلة الفقيدة بأخلص التّعازي*». مسؤول صفحة الوفيات، صاحب الشّارب الكثّ، لم يسألني عن سبب وفاتها. بدا مبتهجًا لفوز فرنسا على البرازيل. «أنت تلبس الأزرق فرحًا بفوز زيدان؟»، علّق ساخرًا. «كلا، لأن قميصي الآخر اتّسخ»، و لم أطل معه الكلام.

حين عُدت إلى الحيّ في المساء، مزهوًا بالعثور على قاموس جيب إنجليزية – سلوفينية، عند بائع كتب مُستعملة، وجدت الجوّ هادئًا، كما لو أن شيئًا لم يحصل، الأضواء تشعّ، من شرفات العمارات، ورجوت أن تتمّ النّعمة ولا ينقطع الماء، وعلى الطّابق الخامس، من العمارة المُقابلة، حيث ألقت نبيلة بنفسها، عُلقت لافتة كبيرة، كُتب عليها بالأحمر: للبيع.

# العبور إلى الغرب

قضى أبي ستّة أشهر، في ثكنة في صربيا، ثم سافر إلى ثكنة أخرى، في مقدونيا، تبعد عن سراييفو بأكثر من عشر ساعات برًا، أتمّ فيها الخدمة العسكرية لمدّة عام ونصف العام. حين سألته أمّي: «ماذا استفدت من تلك التّجربة؟». أجاب متأففًا، وهو يحرّك رأسه من اليمين إلى اليسار: «لا شيء، سوى أنّهم أنهكوا عقلي وجسدي». أشكّ أنه أجابها بكلمات مهذّبة، كما حدّثتني. فكلامه كان يطفح بالبذاءة. لا بدّ أنه قال لها: «لا شيء، سوى أنّهم نكحوا عقلي وجسدي»، أو جملة أخرى من هذا القبيل. المُثير في تلك الفترة، أنّها تزامنت مع ما يُسمى بحرب فيتنام، وكان، كلّ يوم سبت، يأتي، في الصّباح، ضابط، في الجيش، يجمع الجنود والقادة الصّغار في باحة الثّكنة، يقف أمامهم، ممسكًا أوراقًا بين يديه، ويحكي لهم تفصيلات من تلك الحرب، عن عمليات عسكرية تجري هناك وتصريحات من مسؤولين مختلفين ويطلب منهم جمع المال والألبسة، لإرسالها إلى «الرّفاق في فيتنام». كما كان يسرد عليهم أيضًا ما يجري في العالم من أحداث متفرّقة أخرى؛ عن اجتماعات قادّة دول شيوعية ورغبتهم في تطوير الاقتصاد ومنافسة أمريكا، عن انقلابات في إفريقيا، وعن نتائج بعض الرّياضيين اليوغسلافيين. كانت الأخبار التي يُلقيها ذلك الضّابط نافذتهم الوحيدة على العالم، فمطالعة الجرائد

أو الاستماع للرّاديو من الممنوعات في الجيش. لم يكن أبـــي مهتمًا بما يحصل في بقاع أخرى نائية، لكن حضور ذلك الضّـــابط، كـــلّ سبت، كان يوفّر له سببًا للرّاحة والاسترخاء.

– يأتي متحمسًا ليخبرنا عن ضحايا العالم الجدد.

يبدو أنّني أكرّر تجربة والدي، عن غير قصد. بـــدل أن يقـــف ضابط، ببزّة ويحمل بندقية زاستافا قديمة على كتفه، أمامي، يـــدخّن غليونًا أو يمضغ علكة، ليحكي لي عن حرب تدور بعيدًا عنّي، ينوب عنه مذيع في التّلفزيون، يظهر في نشرة الأخبار، بوجه نصف مبتهج. يبتسم في خجل، ليتحدّث، بصوت شبه مبحوح، بعينين لا تطـــرف رموشهما، عن حرب في الجزائر ومعارك في دولة إفريقية أنسى دائمًا اسمها، رواندا أم أوغندا، لا أدري! يعلّق على كلام مسؤولين كبار في دول لا أعرفها ولا أظنّ أنني يومًا ما سأزورها، يتلفظ، في كلّ مرّة، عبارة «هيئة الأمّم المتحدّة»، التي سئمنا من تكرار سماعها، ويُحصي أعداد الضّحايا، كما تداولتهم وكالات أنبـــاء، ثم يختفـــي خلـــف ومضات إعلانيّة لمعاجين أسنان أو أكياس شيبس.

أطفأت التّلفزيون وشغّلت آلة تســـجيل؛ انطلقـــت كلمـــات «سرفينا يابوكا».. «*أعطتني تفاحّة... تفاحّة حمراء... ورحلـــت... أعطتني تفاحّة ولم تخبرني اسمها*».. وأنا أعدّ أوراقًا نقدية وأضـــعها في حقيبة يدي... أوتار الغيثارة مع صوت مغني الفرقة تذكّرني بسنوات المراهقة، في زمن تلوّن فيه كلّ شيء بالأحمر في يوغسلافيا القديمة... موسيقى هذه الفرقة تُعيدني إلى حياتي المؤجّلة وإلى إحساس بأمـــان ضاع منّي عندما كبرت. نويت أن أدخـــل، في اليـــوم التّـــالي، أوّل مكتب صرافة، أُصادفه في الطّريق، وأُحوّل نصف ما أملك من أوراق

نقدية إلى الماركة الألمانية، تُعينني في طريق الهجرة، فقيمتها ترتفع، باستمرار، وترفع من قيمة مالكها. منذ أيّام الحرب، بل قبلها، تعلّمت من أبي أن أُراهن على الماركة الألمانية بدل النّقود المحلية، التي اقتبست منها الاسم و لم تقتبس منها الوزن.

كلّ شيء تغيّر، في هذه المدينة المُستسلمة لأسيادها الجدد. أرصفتها الواسعة ضاقت، طرقاتها تتخلّلها حفر، البنايات تخترقها آثار رصاص، وسيارات «زاستافا» اختفت وكذا سيارات «اللادا»، ونابت عنها سيارات جديدة، قادمة من ألمانيا وفرنسا وأمريكا. وحدها سيارات «شكودا» و«فيات» تُنبهنا لما مضى. وملابس العابرين في الشّارع، أو تلك المعروضة في واجهات المحلاّت، أيضًا تغيّرت، بتّ أُصادف ماركات ألبسة لم أكن أشاهدها سوى في التلفزيون أو في إعلانات مصوّرة في مجلات، كما أن أشجار البلوط، التي كانت تصبغ المدينة بالأخضر، يستحيل أحيانًا إلى أصفر أو برتقالي، اختفت. فقد تناوب النّاس على قطعها وتفتيتها للتّدفئة، سنوات الحرب. كان العدو ينكّل بنا ونحن ننكّل بجذوع الأشجار. الموت يسقط على رؤوسنا، بالتّساوي، ونحن نقود ثورة على جذوع البلوط، في الميادين والحدائق العامّة. باتت سراييفو أشبه بامرأة جميلة يملأ وجهها كدمات. اختفت منها جنائن زهر مارغريت، الصّفراء والبيضاء وزاد المشهد كآبة رائحة الموت، المنبعثة من تحت التّربة، فالقبور في كلّ مكان، ورفات الموتى تكتظ تحت أقدامنا. يحصل أن نجد مقبرة جماعية يقف أمامها مقهى أو مطعم، يتحوّل في الليل إلى حلبة رقص، يتناوب فيها الأحياء على تحريك أجسادهم، وقبالتهم الموتى يتفرّجون وهم صامتون.

أمّي أخبرتني أن خالتي الصّغرى ياسنا، اتّصلت بها، وأعلمتها أن ابنها البِكر ماركو وجد عملاً، في جنيف، في مطعم فرنسي، بوساطة من قريب له، من ناحية والده. لكن خالتي لم تتصلّ بأمّي لتبشّرها بهذا النّبأ، فهي، منذ وفاة أبي، لم تسأل عنّا، لا في الأعياد ولا في رأس السّنة، بل اتّصلت بها لتطلب منها إقراضها مبلغًا من المال لمساعدة ابنها في السّفر. تعتقد أننا عائلة ميسورة الحال وأنّ أخي يُرسل لنا، من سلوفينيا، حوالات مغرية. لكن أمّي أخبرتها أننا نعيش على الكفاف، وأن أخي لم يُرسل شيئًا، وأننا لا نعلم هل هو بخير أم لا، هل هو يعمل أم لا، فمكالماته انقطعت ولا طريقة لنا للتّواصل معه، كما لو أن الأرض ابتلعته.

أزعجتني انتهازية خالتي، لكنني سعدت أن ابنها ماركو سيفرّ بجلده من هذا البلد. سيجد، في جنيف، حياة أخرى، ويتخلّص من الكوابيس التي عششت في عقولنا. أن يعمل نادلاً في مطعم في سويسرا أو في غسل الصّحون أفضل له من كلّ منصب عمل آخر هنا، سيسعد بحياته وينسى شقاءه في سراييفو، كما حصل مع أخي، الذي ربما شغفته الحياة في ليوبليانا ومحا من ذاكرته ماضيه وعائلته وكلّ الأشياء الأخرى التي عاشها، قبل الحرب وبعدها. سيعبر ماركو النّقطة الحدودية سلافونسكي برود، يقطع كرواتيا ثم سلوفينيا إلى غاية النّمسا، ثم يتّجه إلى سويسرا، بالقطار. نصف سكّان هذا البلد قطعوا هذا الطّريق، الهاربون منه والعائدون إليه. هذا الطّريق سار فيه الحالمون بحياة أفضل في أوروبا الغربية، وكذا تجّار الشّنطة إضافة إلى محتكري السّوق السّوداء، سلكوا الطّريق ذاته، محمّلين بمواد غذائية وألبسة، علب القهوة والسّكر، وبراميل البنزين، في سنوات ندرة

البنزين في البوسنة. كانت الحافلات تعبر هذه النّقطة الحدودية وهي تحمل سيّاحًا والآن تعبرها وهي تحمل فارين من ماضيهم. إذا كان للآسيويين طريق حرير، فنحن لدينا طريق سلافونسكي برود، الذي يمرّ منه كلّ ما هو شرعي وغير شرعي، منه نطلّ على العالم ونلوّح له بأيدينا ونشعره بوجودنا. كلّ نهاية أسبوع يكتظ المعبر بالحافلات والسّيارات والدّراجات النّارية، بين داخل إلى البوسنة وخارج منها، بين طامع بعمل وحياة في الجهة الأخرى وقادم إليها لزيارة أو لقضاء شغل ما، فكثير من العمّال الذين يشتغلون في سلوفينيا أو في النّمسا، غالبيتهم في مهن شاقّة، في حفر الطّرقات وتزفيتها وتبليط الأرصفة أو غيرها من مهن لا يرضاها لنفسه الأوروبي الآخر، يعودون في الويكاند لقضاء بعض الوقت مع عائلاتهم أو لزيارة مقرّبين منهم. حين أخرج من هذا البلد، لن أعود إليه من جديد. ليست لي عائلة أحنّ إليها. أمّي بدأت تبتعد عنّي، ولست أشعر بوجودها كما في السّابق، أمّا أختي فقد فقدتها يوم فقدت عقلها. سأكتفي بمكالمتهما، كلّما سنحت لي الفرصة، أو مكاتبتهما. وقد أرسل لهما صورًا لي إذا اشتاقا إليّ. أو ربّما سينسياني. يكفي أن أُغادر البيت أو أغيب عنه لبعض الوقت، ليمحوا صورتي من ذاكرتهما. لا أظنّ أن أمّي تتمسك بابنتها البكر، وشقيقتي لن تشعر بغيابي، فقد نسيت اسمي أو تدّعي أنّها نسيته، أنا فقط أُبالغ في مشاعري تجاههما. أمّي وأختي هجراني من سنين، وأنا أعيش غريبة بينهما. ما المانع أن أعيش غربتي تحت سماء أخرى؟ ستجد سلوفينيا سببًا لها لتحضنني وتعطف على حالي. يكفيني فقط أن أعبر سلافونسكي برود، فحياتي كنادلة في مطعم تضغط على أعصابي؛ مزاجية الزّبائن ومُضايقات ربّ العمل

وغضبه الدّائم وصراخه وسوء معاملته لي، كلّها عوامل تزيـــد مـــن توتري. لا يتوقّف عن إلقاء الأوامر، بلهجة حادّة: «أحضري ذلـــك الصّحن... نظّفي تلك الطّاولة». وقبل أيّام تجاوز حدوده: «اعـــتني بمظهرك كي لا يفرّ منّا الزّبائن». على الأقلّ أنا أنحف من تلك النّادلة السّكيرة التي يخون معها زوجته. عليّ أن أكمل المسرحية التي تشغل بالي وأرحل عن سراييفو، التي أنهكت عقلي، مثلما أنهكت الخدمـــة العسكرية عقل أبـــي.

# عينا الجنّيّة

في هذه المدينة الوجلة والمُرتجفة، تتناسل المصائب، دفعة واحدة، من جحرها، تنزل على رؤوسنا وتهشّمها. السّفارة رفضت طلبي للحصول على تأشيرة إلى سلوفينيا، وفي اليوم الموالي، استيقظت وقد صرت بلا عمل، بلا دخل، مُشتتًا، تائهًا، مغضوبًا عليّ، لا أعلم أين أولّي وجهي.

بعد نشر حوار، مع مُعارض سياسي، يُقيم في لندن، جاء القرار القاصم، بمنع الجريدة من الصّدور. القرار لم يصل إلى رئيس التّحرير ولا إلى مدير النّشر، بل وُجه إلى المطبعة، حيث أخبرنا مسؤول فيها أن أمرًا وصل من وزارة الاتّصال بعدم سحب الجريدة، دون أن يعلمنا بالسّبب. نحن فقط اجتهدنا وزعمنا أن القرار سببه الحوار. «أنا أطبّق الأوامر لا غير»، قال لنا ذلك المسؤول.

- صرت عاطلاً.

أخبرت مليكة.

- أوظّفك عندي، كحارس شخصي، وأدفع لك راتبًا كلّ شهر.

ردّت عليّ ساخرة.

سخريّتها بدت لي في غير محلّها، أنا في حيص بيص وهي تقهقه، مثل صبيّة مُطمئنة، لكن قصدها كان بريئًا. أرادت أن تنكّت لتغيّر

مزاجي وتُلهيني عن قلقي وتوتري لا أكثر. حدسها لم يخطئ. يوم أخبرتها، في الهاتف، عن تكليفي باستطلاع في قرية «سيدي لبقع»، ردّت عليّ، ببرودة دم: «أنت تُرهق نفسك، ولن تخرج بطائل». استاءت من ردّها حينها، لكنني استوعبت كلماتها فيما بعد. في بعض الأحيان، كان يتملّكني شعور غريب تجاه مليكة. أشّم فيها رائحة الأمومة التي يبحث عنها رجل فقد أمّه قبل أن يفطم من تعلّقه بها. بعدما هزل جسد الحاجّة فاطمة وفقدت الشّهية للأكل وعانت من غثيان مزمن وافترس السّرطان روحها، بحثت عن رائحتها في واحدة من خالاتي، دون جدوى، ولم أجدها في أي امرأة أخرى من اللواتي قابلتهن فيما مضى، عدا مليكة، التي أحسست فيها دفئًا ضائعًا، نورًا يُعيدني للمرأة التي أحتاج لحضورها.

بقامتي الطّويلة، بشرتي الفاتحة وملامحي الهادئة، أبدو في مظهر أخ أصغر لمليكة، التي علت جبهتها تجاعيد خفيفة، وليس حارسًا شخصيًّا لها.

- لماذا لا تذهب إلى جريدة أخرى؟
- نفقات الإعلانات قلّت وفرص إيجاد عمل تضاءلت.

في العام الذي صرت فيه يتيمًا، بعد حصولي على ليسانس في الإعلام، التحقت بجريدة «الحرّ». عملت في الأشهر الثّلاثة الأولى كمحرّر في صفحة «مراسلون»، خلفًا لمُحرّرة ثلاثينية، خرجت في إجازة أمومة، ثم استقالت وانتقلت للعيش، برفقة زوجها ورضيعها، في مدينة ساحلية، شرق البلاد. كنت أتلقّى، كلّ يوم، عشرات الفاكسات والمكالمات الهاتفية، من مراسلين شباب، عن أخبار بسيطة وأحيانًا غير ذات أهمية، أخبار تملأ صفحتين، عن تهيئة أرصفة في قرية

نائية أو حملة تشجير في قرية أخرى، عن مواطن يبحث عن دواء مفقود وآخر ميسور الحال تبرّع بمال لبناء مسجد، عن مقبرة نصارى نُبشت قبورها، أو كلاب تتجمّع خلف مدرسة وتُرعب الأطفال. أخبار متنوّعة، وأحيانًا لا تستحق الذّكر، أُعيد قراءتها وتحريرها وأختار عناوين لها وأرسلها للتّركيب وللنّشر في اليوم التّالي. بعد انقضاء ثلاثة أشهر، حوّلني رئيس التّحرير إلى القسم الثّقافي. تعرّفت على فتحي، صرنا صديقين وأثار في نفسي شغف الأدب والكتابة. صرت أُقوم بمهامٍ خارجية، بإجراء تغطيات ميدانية، وأحيانًا تصل الجريدة كُتب جديدة، بالعربية أو الفرنسية، أطّلع عليها، أنا وفتحي، نتناقش حول مضامينها وحياة مؤلفيها، وأكتب تقاريرَ عنها. لكنني لم أبقَ في القسم الثّقافي أكثر من عام وأربعة أشهر. قرّر المدير إلغاء الصّفحة الثّقافية، نابت عنها صفحة تسلية وكلمات متقاطعة، تتحوّل، في رمضان، إلى صفحة وصفات طبخ، وانتقلت، مع فتحي، إلى القسم السّياسي. وجدتني أكتب عن الموت والموتى، عن الغول الذي يتربّص بنا، وعن تصريحات مسؤولين في الدّولة، ذوي وجوه عريضة وشوارب كثّة، أعرف أسماءهم وصوّرهم، لكن لم يسبق لي أن التقيت واحدًا منهم، وأُكلّف، بين الحين والآخر، باستطلاعات عن أمكنة سُفكت فيها الدّماء، في الجزائر العاصمة أو خارجها.

– أنت العازب الوحيد، الذي يمكن أن نتّكل عليه.

علّق، مرّة، رئيس التّحرير.

كلّفني بتلك المهام لأن بقية الزّملاء متزوّجون ولهم أبناء يخافون عليهم. لكن أنا أيضًا أخاف على نفسي. صحيح أنني فقدت أمّي، وبدأ والدي، الذي أصابه الزهايمر، يبتعد عنّي، لكنني لست مستعدًا

أن أفقد روحي، من أجل بشر لا أعرفهم، أتعاطف معهم، لكـــن لا أحد منهم سيتعاطف معي لو متّ بسبب حماستي في الكتابة عنـــهم وعما يجرى لهم.

- اللي فاتْ ماتْ.

حاولت مليكة طمأنتي.

أنظر في عينيها الملوّنتين، أزرق يُجانب بنّي، وأقول في نفســـي ربما مسّها جنّ وهي بعد جنين في بطن أمّها. ربما هي نفسها جنيّـــة، امرأة مشؤومة وأنا لا أدري. أنزل بنظري إلى شفتيها، اللتين تبللهما باستمرار بلسانها، أنتظر منها أن تبتسم لتظهر أسنانها البيضاء، لكنها تتمنّع. وتعود إلى نكتتها.

- لو تقبل بالعمل كحارس شخصي لي، سأدفع لك مقـــابلاً وأبحث لك عن زوجة تُناسبك.

أحضرت قنينة ماء باردة، من الثّلاجة، عدت إليها وسألتها:

- ألن تذهب لزيارة أهلك؟
- لا رغبة لي في زيارتهم، ومواجهة أسئلتهم المكـــرّرة عـــن حياتي الخاصّة. حورية زارتهم وأخبرتني أنّ خـــالتي تـــودّ خطبتي لواحد من أبنائها. تخيّل!
- ما المانع؟
- لست من النّوع الذي يميل إلى زواج الأقارب.
- إن بقيت تتمنعين، فلن تتزوّجي أبدًا.

صمتت، لبرهة، ثم حدجتني بنظـــرة ملؤهـــا الغضـــب: «وش دخلك؟». فاجأتني. «قوّادة»، غمغمت. اختفت ملامح الهزل عـــن وجهها وصارت عيناها حبّتا كرز لامعتين.

– هل عاود نواطير الأرواح مُراسلتك؟

توقّعت أن تُجيب بالنّفي، لكنني تفوّهت بالسّؤال فقط لتلطيف الجوّ.

– من يضمن أنهم لن يفعلوها ثانية؟

ذات مرّة، أرسلوا لزميلة سابقة، في جريدة «الحرّ»، قطعة قماش أبيض تشبه كفنًا، وصابونًا، وكتبوا لها في ورقة صغيرة «إن عُدتم عُدنا»، وسألت نفسي: ماذا لو وصلوا إليّ؟ وهدّدوني؟ لم أجد إجابة، وشغلني الخوف يومًا كاملاً، وأنا أدعو، في سرّي، أن يجنّبني الله أمرًا كذلك.

أنعزل أنا ومليكة في زاوية من غرفتها الصّغيرة، المرتّبة بما يليق بقارئة وفيّة لجون شتينباك، أنابيس نن وإرنست هيمنغواي. كلّ شيء نظيف وفي مكانه: ستار النّافذة، الأغطية، السّرير، الكرسيّان الخشبيّان ومكتبها الصّغير، الذي تتزاحم فيه روايات كتّابها الأمريكيين المفضّلين. نجلس متقابلان ونصمت. صمت لا يكسره سوى صوت الشّاب خالد، المنطلق من آلة التّسجيل، حين يرتفع بأغنياته القديمة، نشعر أن الأرض تتوقّف عن الدّوران.

*«إذا لقيتو حبيبتي تمشط... بشعرها غطّوني*

*إذا لقيتو حبيبتي تبكي... بدموعها أروني*

*إذا لقيتو حبيبتي ميتة... خْذاها ادفنوني*».. يصدح خالد، وتغمض مليكة عينيها الملوّنتين، واضعة خدّها على راحة يدها اليسرى. تترك الكرسي، تضع مؤخرتها على الأرض، وتسند ظهرها إلى السّرير. تُعيد خصلة طائرة إلى خلف أذنها وتتنهد كما لو أنّها تودّ قول شيء ما، ثم تترك صوت خالد يتحدّث بدلها.

خالد حاج إبراهيم، وهذا اسمه الكامل، هو ملح البدايات وربيع الأسفار وذاكرتنا الوطنية. ذلك الوهراني الأسمر يتكلّم عنّي، عن قصد أو دون قصد منه، يصفني، في أغنياته، أفضل مما قد أصف ذاتي. في الزّمن الأحمر هذا، تستحيل أصوات البشر إلى نواح وبكاء، عدا صوت خالد الذي يُجاهر بالحبّ والانعتاق. «النيغرو» أو الزّنجي، كما يُسميه الوهرانيون، يعرف كيف يدقّ على قلب من يستمع إليه. شاهدته، قبل فترة، في التّلفزيون، يغنّي بعينين مغمضتين، وهو يقف أمام الميكروفون مثل جندي مُطيع، بابتسامة ساطعة، وشارب غير مصفّف لا يشبه شوارب غيره من الرّجال. أحد الكتّاب قال: «رجل بلا شارب أشبه بامرأة بشارب» والمثل الشّعبي عندنا يقول: «إذا حلق رجل شاربه صارت المرأة أفضل منه». هل يعني هذا أنني لست رجلاً مكتمل الفحولة؟ هل تودّ مليكة أن تراني بشارب وتخفي رغبتها عنّي؟ لم يسبق لها أن علّقت على ملامحي، لكنّها تحبّ الشّاب خالد، وخالد لا يحلق شاربه، ربما تُريد أن تسمعني صوت مغنيها المفضّل لتوصل لي رسالة، تعجز عن الإفصاح عنها.

«*ما عندي حاجة في النّاس... أنا إن شاء الله ديما لا بأس... واللي هدر خاطفلي ذنبي... أنا نامن بالقدر... وما ندي غير مكتوبي... ما نحبش نشغل البال... ما راحليش في القيل والقال... طبعي نكره الأنذال... وما نطمع إلا في ربي*»، يواصل خالد غناءه، وتمرّر مليكة يدها اليمني بهدوء على شعرها، الذي طال وصبغته بالأسود، كشعر إيزابيل عجّاني في فيلم «صيف قاتل». هل صبغت شعرها من أجلي؟ للفت انتباهي. لكنني لم أتفوّه بكلمة و لم أمتدح جمالها. أقرّ أنني لست رومانسيًا، ولا أليق بنساء رومانسيات.

ظللت أتفرّس في وجهها، أبلّل شفتاي بلساني مثلما تفعل، وأستمع إلى صوت الرّاي الصّادح من آلة التّسجيل، المنطلق نحو سماء أرحم من الأرض التي نعيش عليها، وهي تشيح بنظرها عنّي، وأنا حائر: هل عليّ أن أحضنها؟ أن أوقف الموسيقى وأتحدّث إليها؟ جلست، على الأرض بجانبها، طوّقت خصرها بذراعي، منتظرًا اللحظة الملائمة، لأنقضّ على شفتيها.

مليكة لا تشتري أشرطة كاسيت ولا أسطوانات موسيقية، تتفادى الدّخول إلى محلات بيعها، خشية الشّبهات كما تقول، تتجنّب الذّهاب إلى الحمام النّسائي يوم الجمعة ولا تذهب إلى صالون حلاقة، بل تستضيف صديقة لها تصفّف لها شعرها، أو تصبغه، من حين إلى آخر، وتسجّل الأغاني من الإذاعة، التي تبثّ سهرات الخميس والجمعة والاثنين، أغانٍ قديمة وأخرى جديدة. في الليل تُراقص الأحياء وفي النّهار تترحم على الأموات.

حين دخلت حورية إلى البيت، انتفضنا من مكاننا. أوقفت مليكة آلة التّسجيل، وندمت أنني ضيّعت فرصة ملاعبتها. خرجنا من الغرفة للترّحيب بها، واستلّت حورية خمارها ليظهر شعرها المصبوغ بالأشقر، والمعقود كذيل حصان، مثل شعر شتيفي غراف، ثم قبّلتني على خديّ، وهممت بالانصراف، حين حاولت مليكة أن تقنعني بالبقاء وأن أتعشّى معهما، لكنني أصررت على العودة إلى شقّتي.

- تخيّلي لو أن نواطير الأرواح زارونا ليلاً، ووجدوني معك، وليس بيننا دفتر عائلي؟

همست إليها، مازحًا.

- سأضمن أن نموت معًا ولا تخدعني مع امرأة أخرى.

عُدت إلى كتبي المفتوحة والمبعثرة، في شقّتي، إلى ملابسي وأغراضي المتناثرة. نظرت إليها بقلب منقبض. فأنا لم أعد مثلما كنت في السّابق. أنا رجل منحوس. عاكسني القدر و لم أحصل على فيزا للسّفر. وصرت بلا عمل، صحافي عاطل. وبقائي في العمارة بات مسألة وقت لا أكثر. قد لا أستطيع توفير مال ودفع تسبيق آخر.

تقلّب مزاجي وفقدت الشّهية في الأكل. اتّصل بي فاروق، يسألني عن حالي، وأخبرته أن السّفارة رفضت طلبي للحصول على التّأشيرة. حرّضني على أن أعيد الكرّة، وأردت أن أخبره أنني صرت بلا عمل، وأن الجريدة توقّفت عن الصّدور، لكنني تردّدت. كان سيجد في الأمر سببًا ليكرّر تأنيبه لي، فهو والحاجّ لم يكونا راضيين على خيار عملي كصحافي. أظنّ أن سي أحمد أيضًا لم يكن راضيا عن قراري. أمّا خالاتي: زوليخة وسعدية وشريفة، فلم يقلن شيئًا، و لم يكن لهنّ رأي فيما يحصل مع ابن أختهن. اقترح عليّ الحاجّ، بعدما أنهيت الجامعة، أن أذهب إلى الصّحراء، للعمل في شركة بترولية، بفضل وساطة من صديق له، لكنني رفضت. اعتبر، هو وفاروق، قراري غير منطقي وأنني غير حريص على مصلحتي، ولو علم فاروق بما حصل في الجريدة، لكرّر على مسامعي تلك الأسطوانة القديمة، بأنه أدرى بمصلحتي منّي. فاروق يُعاملني أحيانًا معاملة القاصر، كما لو أنني ابنًا له. لا تفصل بيننا سوى خمس سنوات، إلا أنه يُريد فرض وصايته عليّ، كما يفعل قادة الكشّافة، الذين من كثرة صرامتهم يُثيرون اشمئزاز الوافدين إليها.

- سأعيد طلب التأشيرة، مرّة أخرى.

قلتها له، من غير اقتناع، ثم أقفلت الخطّ.

شغّلت الرّاديو، وأنا أنشّ الذّباب، الذي لم تنفع معه مُبيدات، براحتي يديّ، وسمعت المذيع يثرثر عن فريق وداد تلمسان، الذي فاز بكأس الجمهورية، ثمّ غيّرت المحطّة، إلى الإذاعة النّاطقة بالفرنسية، وسمعت المُذيع يتكلّم عن ذكرى «مؤتمر الصّومام». يتحدّث عنه باعتباره حدثًا مفصليًا في تاريخ البلد وفي ثورة التّحرير... «مؤتمر الصّومام كان بوصلة غيّرت تاريخ الجزائر»، قال المذيع بنبرة المُنتصر... ليت الشّهداء يعودون ويُشاهدوا أين أوصلتنا البوصلة. غيّرت المحطة إلى إذاعة مغربية، تبثّ أغانيَ شرقية. تمدّدت في السّرير، ككلب واهن، تفوح منّي رائحة العرق، أغمضت عينيّ، وطفت على مخيّلتي وجوه زملائي الشّاحبة وتجهّمهم، بعد أن علموا بقرار وقف سحب الجريدة. وعزمت على الذّهاب، في اليوم الموالي، إلى مقهى شعبي، في ساحة الشّهداء، عملاً بنصيحة فتحي، لمقابلة واحد من «السّماسرة»، ومساومته في تأشيرة سفر مزوّرة. فالخروج من هكذا بلد مزيّف، لم يعد لي رزق فيه، يحتاج إلى تزييف جادّ وصارم.

# النّقاوة والخليط

«القرن العشرون بدأ في سراييفو وانتهى فيها»، تلفظّ المـذيع. بدأ بحرب عالمية أولى، أو هكذا أسموها، وانتهى بحرب أخرى لا تقلّ وحشية عنها. بدأ القرن العشرون برصاصـتين، أطلقهمـا مُراهـق مُصاب بالسلّ، قصير القامة وثمل، قتلتا أرشيدوقًا وزوجته، وانتـهى بقذيفة، ألقاها ثمل آخر، سقطت من ربوة قريبة، وهدّمت بيوتًا على رؤوس ساكنيها. «بدأت الفظاعة يوم أحد وكرّرت نفسـها يـوم اثنين»، يُضيف المذيع.

بين أحد واثنين قامت حربان، تفصل بينهما ثمانية عقود تقريباً، يختلفان في الظّروف وفي أرقام الضّحايا والمشرّدين والأيتام والأرامل، لكنهم يشتركان في قبحهما. عبثًا بروح المدينة وصيّراها قبّة للمعذّبين في أوروبا. الأحد والاثنين يومان مشؤومان في تاريخ سـراييفو وفي تاريخي الشّخصي، فأبـي مات يوم أحد، وساقي اليسرى كُسرت، ذات مرّة، على عتبة المدرسة، يوم اثنين، وجبّرتها ثلاثـة أسـابيع. يوم حظّي هو الخميس، ولو أنّ الأمر بيدي لجعلـت مـن الأيّـام كلّها خميسًا، أو على الأقل كنت حذفت يومي الأحد والاثنين مـن التّقويم.

عشت، ما فيه كفاية، من أيّام أحد واثنين تعيسين، في هذا البلد المقهور، وينبغي عليّ أن أحزم حقيبتي، أن أركض إلى مكان آخـر

يحتملني ويتسامح مع خيباتي، فقد قرّر مدير الفندق، الأشيب ومصفرّ الأسنان، خفض راتبـــي، وخيّرني بين القبول أو المغادرة.

- أرباح الفندق تراجعت.

قالها لي وهو يدخّن سيجارته، وينظر إلى أوراق وضـــعها بـــين يديه، ورغبت أن أبصق بين حاجبيه، لكنه لم يجرُؤ على رفع بصـــره إليّ وهو يكلّمني. حاولت أن أتشجّع وأصرخ في وجهه المتورّم، الذي لا يصلح سوى للصّفع: «أنت حقير»، لكنني عجزت، أو خفت من ردّة فعله. أنا لم آتِ يومًا، إلى مكتبه، للتودّد إليه، كما تفعل عاملات أخريات، لذلك عزم على التّخلص منّي.

فضّلت المغادرة كي لا يُعاملني كخادمة أو متسوّلة في فندقـــه، ولأتخلّص من قناع النّادلة الظّريفة، الذي لا يُناسبني، وأُعيد الـــتفكّير في مصيري من الصّفر، انتصارًا لما تبقى لي من كرامة. لا أصـــدق أن أرباح الفندق تراجعت، فالسيّاح، أو ما يُعتقد أنّهم سيّاح، ما زالـــوا يحجوّن إليه ببذلاتهم الأنيقة، يعتمرون قبّعات بورســـالينو ويجـــرّون خلفهم حقائب كبيرة، ولا أدري ما يُعجبهم في سرايفو: حاراتهـــا القديمة أم نساؤها أم غلمانها أم ندوب الحرب التي تشوّه وجهها؟ ربما يعتزم مدير الفندق الرّفع من أرباحه الشّخصية، وتحويلها لحساب له في الخارج، كما يفعل أثرياء الحرب هنا، الذين ينبتون، كلّ يوم، مثل الجراثيم.

حين أنظر لنفسي أجدني أفضل حالاً من أناس آخرين، ومـــن بعض جيراني، فأنا لم أكسب أشياءَ كثيرة لأندم عليها. داومت على حياة تقشّف كما خبرتها من أبـــي وما زلت كذلك. لم أعش كمـــا ينبغي لشابة في عمري وحماسي وأحلامي أن تعيش، لأبكـــي عمـــا

وصلت إليه. لست أسوأ حالاً من جارنا توميسلاف، الذي تحوّل إلى رجل هزيل، مريض طول الوقت، يسعل، بحدّة، إلى درجة أعتقد فيها أن رئتاه ستخرجان من قفصه الصّدري. لا يتكلّم إلاّ نـــادرًا، مـــع زوجته ميريانا فقط. يطلّ، بين الفينة والأخرى، من شرفة شقّته، نحو الخارج، أو يُجرجر قدميه المُتعبتين إلى متجر قريب، لشراء سجائر أو خضار أو قارورة سليفوفيتسا، ثمّ ينسحب إلى عزلته، بعـــدما كـــان اسمه، في سنوات ما قبل الحرب، مرادفًا للخوف. كان سكّان العمارة ينطقون اسمه، بخشوع وبصوت خافت، كما لو أنّهم يتكلمون عـــن قائد كبير في الجيش أو مسؤول في الحزب الشّيوعي. كان يتبختـــر، ببذلته الزّرقاء الدّاكنة، وربطة عنقه الحمراء، بين الحانـــة والمدرســـة والكنيسة، متأبطًا صحيفة «بوليتيكا». ويحصل أن يغيب، بضعة أيام، ثم يعود فجأة، مثل شبح، إلى يومياته المُعتادة. وفي الخفاء، يوشـــوش الجيران أن توميســـلاف يعمـــل في «درجاونـــا بازبيدنوتســـي» أو المُخابرات أو الشّرطة السّياسية، كلّ واحد يسميها على مزاجه، وأنّه يخبّئ في بيته مسدسا رشّاشًا من نـــوع «ســـكوربيون». سمعتـــهم يهمسون أن من يغضب منه توميسلاف أو يُخاصمه سيجد نفسه في سجن مُظلم تحت الأرض، ولن يخرج منه سوى جثّة. في صـــغري، سكنني رعب منه، ما أن أصادفه، بقامته المتوسطة وشاربه العـــريض، يتطاول في مشيته المنتظمة، مثل جنديّ صارم، حتى أركـــض بعيـــدًا عنه. أختبئ في بهو عمارة ولا أخرج منه سوى بعدما يعبر الشّـــارع. خوفي منه أحالني إلى خوف من ابنه إيليا، الذي اعتاد علـــى نعـــتي بـــ «غوزيتشاركا» (ذات المؤخرة الكبيرة)، بلكنته الكرواتية الـــتي تشبه لكنة والده. قال لي إنني أشبه بالونًا، ونصحني، باستخفاف، أن

أقلّل من شرب حليب البقر، ومن أكل الشوكولاتة. لم أكن أجــرؤ على الردّ على سخرية إيليا منّي، خشية أن يعتدي عليّ، فقد كــان شباب الحيّ كلّهم يخشونه، ويتجنبون معاركته، والفتيات يستجبن له ولمعاكساته لهنّ، ولا يعلم أنهنّ يفعلن ذلك، بتذمّر، خوفًا من والده. كنت أتخيّل لو أنني أتخاصم معه فإن الأمر سيصل والــده، ويعتــدي والده على والدي. صحيح أنني بغضت والدي، ورغبت في التّبــوّل عليه، لكنني لم أودّ أن أسبب له حرجًا. والدي لم يخجل مــن نعــتي بالقبيحة، وإيليا وصمني بالبدينة، لذلك كرهت جسدي وداومــت على حميات غذائية. منذ المُراهقة، تملّكني هوس بشكلي وصرت أقف أمام المرآة طويلاً، وأرثي حالي إن صادفت فتيات، في مثــل ســنّي وأنحف منّي. رغم أن إيليا مات أيّام الحــرب، برصاصــة قنّــاص، فكلماته الوقحة لما تزال ترنّ في أذني. أتذكّرها كلّما شاهدت والده، الذي انطوى على نفسه، وبات النّــاس يســخرون منــه بكلمــة «أوستاشي»، التي أُطلقت على الكرواتيين، الذين تعاونوا مع النّازية والفاشية، وصارت مُرادفًا للخونة. لم يعد يُخيف أحدًا، سواي أنــا. أشعر بقلبــي يرتجف، من مصادفة هذا الرّجل، الذي سقط من قمّة السّلطة إلى أدناها. لم أفقد ما فقده جارنا توميسلاف، لكنني لم أجد سببًا لي للبقاء في هذا البلد، فقد عجزت على أن أجد سعادة لي فيه، كما عجزت عن تقبّل جسدي وفشلت أيضًا في تجريب الحــبّ، و لم أنتفع من دروس جدّتي لي في اصطياد الرّجال، فقصّة العشق الوحيدة التي عشتها، انتهت بعدما هاجر غوران إلى فرنكفــورت، والــذي تعرّفت عليه في المدرسة، وأنا في السّادسة عشــرة. كــان يكــبرني بشهرين، وهو فارق كافٍ، برأيه، ليفرض عليّ سلطته.

- لي خبرة في الحياة تتجاوز خبرتك.

يتجاوزني بخبرته في تربية الكلاب، في تعذيب الضّفادع بسيجارة، في لعب كرة القدم وفي قهر خصومه، في الشّطرنج، لا أكثر. حلم أن يصير لاعب كرة قدم، أن يُسافر إلى إيطاليا ويلعب في واحد من أنديتها، وحين نظّمت سراييفو الألعاب الأولمبية الشّتوية عام 1984، تمنّى أن يتعلّم فن التزّحلق على الجليد ويصير بطلاً مثل الألمانية كاتارينا فيت. كنت أغار منها حين يتحدّث عنها وعن قوامها الممشوق. عندما بدأت تلك الألعاب الأولمبية، انشغلت مع غوران، وزملاء آخرين لنا، في صنع أعلام الدّول المشاركة، ورفعها في ساحات المدينة. كنّا نردّد نشيد الوطن، ونؤمن بأن يوغسلافيا أقوى بلد في أوروبا. يوم أعلنوا عن قيام البوسنة والهرسك، كنّا في منتصف العشرينيات من العمر، صدّقنا أنه سيصير لنا بلد متقدّم، يحسدنا عليه الفرنسيون والهولنديون والبريطانيون والإسكندنافيون، وسنصبح، أنا وغوران، شخصين مهمّين، في منصبين رفيعين. تحمّسنا لاستقلال البلد وانفصاله عن يوغسلافيا، ولم نفكّر فيما ينتظرنا من حرب ومآتم. غوران تخلّى عن الرّياضة وفهم أن الرّياضة الأنسب له هي النّجاة بجلده، وأنا بقيت عالقة، مثل طحالب البحر، أنتظر يدًا إلهية تدفعني للهجرة غربًا.

كنت أقف على أصابع قدماي، لأصل إلى شفتي غوران، أنظر في عينيه الزرقاوين، أتحسّس عضلاته المفتولة، وأدلّك شعره الذي يسرّحه إلى الخلف، وأشبهه بجيمس دين. وكلّما أدار ظهره، لا يتورّع زملاء لنا في السّخرية منه بكلمة «أوستاشي» مثلما يسخر النّاس من توميسلاف، مع أن غوران لم يخن أحدًا.

- لولا سواحل كرواتيا، التي يتوافد عليها سيّاح من الغرب، ويدفعون من أجلها الماركة والفرنك والدولار؛ لماتوا جوعًا. نحن نجلب المال وبلغراد تسلبه منّا.
- السلوفينيون يقولون الشّيء نفسه، إنّهم يعملون وينتجون في مصانعهم، وأموالهم تسرقها منهم بلغراد.

أردّ عليه.

- كلا، كرواتيا هي صندوق مال يوغسلافيا، وليس سلوفينيا.

قالها، بصوت مرتفع يملؤه شجن، ثم أنهى الحديث بتأفّف.

أظنّهم ينعتونني أنا أيضًا بـ «أوستاشي» في الخفاء. وحتى اليوم، لا أعرف إلى أيّ الفريقين أميل. البعض يتكّلمون معي كما لو أنني «تشتنيك»، التي أُطلقت على صرب قاوموا النّازية، ثم حاربوا الشّيوعية، وانهزموا، ثمّ انسحبت تلك الكلمات على أولئك الذين حاصروا المدينة، وزرعوا الموت فيها، ومع آخرين أصير من أصول كرواتية. إلا في الأوراق الثّبوتية فأنا بوسنية. ما معنى أن يكون الواحد منّا بوسنيًّا؟ يعني أن يكون مزيجًا بلا نقاوة عرق، نهرًا تصبّ فيه وديان، لا بحيرة معزولة. جيراننا في الحيّ من أصول صربية أو كرواتية أو مُسلمة، وبعض منهم من زيجات مختلطة، ففي زمن مضى، اشتركنا جميعًا في اسم واحد: يوغسلافيون وكفى. وُلدنا إخوة، ثم قسمونا إلى حفنة أسماء، إلى طوائف وجماعات. أعتقد أنه صار لا يوجد لا صربي ولا كرواتي ولا بوسني، في هذا البلد: يوجد فقط صديق أو عدوّ. غوران شعر بغربة في سراييفو، عرف أنه سجين هويّة متشظيّة، ففرّ من البلد وليس من الحرب، دون أن يودّعني. كانت المدينة تئن تحت نيران القذائف وتدفن موتاها في حفر جماعية.

علمت بالأمر من شقيقته ناتاشا، التي أخبرتني بأنه غامر بالهجرة إلى فرنكفورت دون أن يتعلّم جملة واحدة بالألمانية. لكنني لم أحزن، فهو يُريد مكانًا له في هذا العالم الميؤوس منه، وحسنًا فعل أن غادر البؤس الذي نحيا فيه، وقرّرت أن أفعل مثله. فكّرت في التّوجه إلى ليوبليانا، في البداية، وقد ألتحق به يوماً في فرنكفورت إن كان ما يزال يحتفظ بحبّه لي، على أمل أن أجد سقفًا أنام تحته بمساعدة من صديقتي القديمة أزرا، في سلوفينيا. أنا وأزرا درسنا ولعبنا، في طفولتنا، معًا. كانوا يسخرون منها، في السرّ، ويقولون أنها «بالْيا»، أي مُسلمة وليست بوسنية مكتملة. كلّ واحد ينظر إلى الآخر على أنّه أجنبي، ولا شيء مُشترك بيننا سوى الكحوليات التي نشربها، ولم نختلف قطّ في تسميتها. خمّنت أن أزرا قد وجدت حياة لها مستقرّة في ليوبليانا، التي وصلت إليها بالقطار، مع عائلتها، في العام الأوّل من الحرب، بعد أن حاول شاب تشتنيك طعن والدها بخنجر، لأنّه مُسلم. وحين فشل ذلك الشّاب في مهمته، قتلته الجماعة التي انتمى إليها. وأنّها تعلّمت الإنجليزية وقد تُساعدني في إتمام المسرحية، بدلاً من بوريس، صفيق الوجه، الذي التزم معي، وأتممنا الجزء الأوّل من الكتابة، ثم راح يتباطأ في تصحيح كتاباتي الأخرى ويستغل حاجتي به ويبتزني. هل سأجد في سلوفينيا أشخاصًا مُهذّبين، يُساعدونني عن طيب قلب، دون أن يسرقوا منّي ما في جيبي أو يفكّرون في إفراغ كبتهم في أنوثتي؟ تساءلت، وأنا أقضم أظافري، وأشتم مدير الفندق، في سرّي، ولم أتخيّل، لحظة واحدة، أن كلّ الأمور، التي خطّطت لها، ستنقلب إلى ما لم أفكّر فيه.

# صوب الجنوب

بمجرد الخروج من الجزائر العاصمة، تتغيّر ملامح الحياة؛ تختفي الخرسانة، التي حوّلت عاصمة البلد إلى ثكنة بشرية، وتنوب عنها غابات، تتسلّق الجبال. نُصادف الصّنوبر، بفروعه، مثل الطقسوسية، بأوراقها الصّغيرة، التي يستخدمها كبار السنّ في خلطات طبية، وكذا أشجار الشوح، التي ترتقي إلى السّماء. ومع التّقدّم أكثر في الطّريق، يتغيّر المنظر؛ تختفي الصّنوبريات وتحمل محلّها أشجار كاليتوس، الموزّعة، بشكل غير منتظم، على جوانب الطّرقات. وما إن نتجاوز بلدة سور الغزلان، التي سُجن فيها الحاجّ، أيّام الثّورة، يصير المنظر صحراويًا، يتسع فيه الخلاء، مع بيوت متناثرة ومهجورة في غالبيتها. وتمتدّ أمام الأعين شجيرات العرعار، الذي يُباع في الأسواق، باعتباره عشبة طبية، لعلاج آلام المعدّة وانتفاخ البطن، ومعها نباتات الشّيح البرية، التي تُنقع في الماء وتُشرب، على الرّغم من طعمها المرّ جدًّا، فالنّاس يظنّون أنها مُفيدة للقلب ولفتح الشّهية. كانت أمّي، سامحها الله في دارها الأخرى، تُرغمني على شرب منقوع الشّيح وهي تكرّر: «البَرَكة في المرّ». ومن كثرة إكراهها لي على شربه، كلّما شعرت بانقباض في القلب أو عدم رغبة في الأكل، صرت أبغض الشّيح ورائحته النفّاذة.

ركبت، في السّادسة صباحًا، سيارة نقل مسافرين، صفراء، يقودها أربعيني، بشارب ولحية خفيفين، يخفيان سحنته السّمراء.

- يا جماعة الخير، لن نتوقّف في الطّريق. يجب أن نصل إلى بوسعادة قبل منتصف النّهار.

ثمّ حمدل وحوقل، دون أن يعترض على كلامه أحد من الرّكاب: سيدة بجلباب أزرق داكن وخمار أسود، جلست في الأمام، قرب السّائق، وأنا في الصّف الأوسط، على يميني زوجها وابنهما العشريني، وفي الخلف رجلان، في أواخر الثّلاثينيات أو أوائل الأربعينيات، يتهامسان عن الألبسة المستعملة وعن أسعار السّيارات الجديدة.

في العادة، تتوقّف سيارات نقل المسافرين، في الطّريق. في واحدة من محطات الوقود. كي يرتاح المسافرون، يأخذون فنجان قهوة، أو يذهبون إلى قضاء الحاجة، قبل مواصلة السّير. لكن الآن، كلّ واحد من السّائقين يُريد الوصول، باكرًا، إلى وجهته. كلّما اقترب المساء، خيّم القلق. ونحن في شهر أكتوبر، النّهار بدأ يقصر والليل يدسّ في جيبه كلّ أنواع المفاجآت. وصاحب السّيارة لا يُريد أن يقع وليمة لقطّاع طرق، تتدلّى لحاهم، ينصبون حواجز مزيّفة، كما ينصب الصّيّادون الفخاخ.

- اللي يْبَكّر يْنال.

أضاف.

أردت أن أغمض عينيّ، في السّيارة، على الأقل ساعة أو بضع ساعة، لكنني لم أستطع. جلست بجانب النّافذة، فهو مكاني المفضّل في السّفريات المطوّلة، بدل الرّكوب بين مسافرين اثنين، أو في واحد من المقعدين الخلفيين، خشية أن أُصاب بدوّار وغثيان ورغبة في التّقيؤ، بسبب رائحة الوقود القويّة المختلطة بروائح قطع الغيار.

رحت أتأمّل القرى والبلدات والغابات التي نمرّ بها. أُشاهد توالي الأشجار، أحاول تحديد نوعها، وأتخيّل شكل الحياة في سلوفينيا، التي أقترب موعد ذهابي إليها، بعد حصولي، في محاولة ثانية، على تأشيرة، وتخلّصي من ذلك السّمسار اللئيم، الذي دلّني عليه فتحي، وقايضني تأشيرة مزيّفة مقابل ثلاثة ملايين سنتيم. خفّض المبلغ إلى النّصف، ثمّ ألحّ عليّ، عندما شعر أن لا رغبة لي في شراء بضاعته: «يمكنك أن تدفع لي بالتّقسيط». «كلا، شكرًا»، رددت عليه، وتجنّبت المرور من ساحة الشّهداء، كي لا ألتقيه، من جديد. الصّور التي دارت في ذهني، تخلّلتها ثرثرة الرّجل الخمسيني، الذي جلس بجانبي، وهو يتحدّث بلهجة بوسعادية، مع السّائق. يمطّط الأحرف ويُسكّن أواخر الكلمات.

– كيفاشْ الحالْ في بوسعادة؟

– كان البلوط يزغرد. دار اشتباك بين الجيش والآخرين. والآن هدأت الأمور.

ردّ السّائق وهو ينظر إليه من المرآة العاكسة، التي تدلّت منها سبحة بحبّات بنيّة فاتحة.

يُطلقون على الرّصاص كلمة بلوط. كلّ شيء مشفّر، فلا أحد يثق في الآخر. الأموال يسمونها «حبّات»، والجماعات المسلّحة يسمونها «الآخرين».

– اللّطفْ يا ربي. في العاصمة أيضًا الوضع ساخن. الليل يخوّف والنّهار لا أمن فيه.

يردّ الرّجل الخمسيني، الذي برزت أسفل شاربه العلوي هضبة تبغ.

– ماسْمعتشْ عن حرق متحف بوسعادة؟

– لا.

– حرقوه بالبنزين لأن مديرته امرأة.

– يا ستّارْ.

أنا سمعت بما حدث، لكنني لم أعلّق، كنت أرغب في النوّم أكثر مما أرغب في الكلام.

ركبت سيارة النّقل إلى بوسعادة، بغرض استخراج وثائق شخصية لسي أحمد، من دار البلدية. فقد طلب منّي، في آخر مكالمة لي معه، أن أحملها له إلى بلده البعيد. هل دعاني لزيارته فقط لأحضر له تلك الوثائق، التي يقول إنه بحاجة ماسّة لها، بغرض طلب جوازي سفر جزائريين لابنيه؟ هل يفكّر في المجيء بهما لتختينهما، كما قال لي فاروق؟ لكنهما تجاوزا سنّ الختان. في عاداتنا، الطفّل تُزال قلفته قبل سنّ السّادسة.

بعدما ملّ السّائق من ثرثرات الرّاكب الخمسيني، شغّل الرّاديو، وشوّش على أذنيّ التّطفّل على دردشات المسافرين، اللذين جلسا متلاصقين، في الخلف، يخفضان رأسيهما كما لو أنّهما ضيفان خجلان، وبدا لي من كلماتهما، التي وصلتني، أنهما تاجران، وتطايرت الأخبار، القادمة من العالم كلّه، دون حديث عن الأخبار الشّرسة التي تحدث في البلد. المذيع تكلّم، عن كرة القدم، لكن هذه المرّة كرة القدم النّسوية، عن بطولة إفريقية تُلعب في نيجيريا، أقصي فيها ممثلا العرب؛ مصر والمغرب، وذكّر المستمعين أن الإذاعة ستنقل، بعد الظّهر، مباراة مولودية الجزائر في دوري القسم الأوّل. خطر على بالي نادل مقهى «الأحباب»، ومنّيت نفسي أن يخسر فريقه اتّحاد

الحراش، كلّ مبارياته هذا العام، وأن يسقط إلى القسم الثّاني، لكي يريح النّاس من وقاحة لسانه، ويتعلّم احترام الزّبائن ولا ينشغل عن خدمتهم بالحديث في الكرة. واختتم النّشرة، بعد حديث مقتضب عن الوضع في فلسطين، وتوقيع اتفاقية سلام جديدة، بنبأ وفاة كاتب أميركي يُدعى ديك هيكنز، ثم انسحب وانطلقت أغنية «الله يا مولانا» بصوت مغنية جزائرية، تقيم في فرنسا.

*«الله يا مولانا... الله الله يا الله مولانا*

*الله يا مولانا حالي ما يخفاك الواحد ربي...*

*سبحان الحيّ الباقي، سبحانك يا إلهي جود علي*

*بك عمرت سواقي ونحلتي في نواورك مرعية...».*

لم أسمع، من قبل، بالكاتب ديك هيكنز، و لم أقرأ له. لا بدّ أن مليكة قرأت شيئًا له، أو مرّ اسمه بذهنها. اسمه أثار فضولي. بالإنجليزية يعني شيئًا مشينًا، أم أن المقصود منه أمرًا آخر غير الذي في ذهني؟ نويت أن أسخر منها وأسألها بالإنجليزية: «هل تُحبين ديك؟». وإن انزعجت، وفهمت أن الكلمة بذيئة، أصلّح الأمر وأخبرها أنني أقصد ديك هيكنز، وليس شيئًا آخر.

على مدخل مدينة سيدي عيسى، التي لا يفصلها عن بوسعادة أكثر من مائة كيلومتر، أوقفت دورية للجيش السّيارة. تحسّست، بحركة لا إرادية، وثائقي الشّخصية، في الجيب الدّاخلي من سترة الجلد السّوداء، التي كنت أرتديها. بطاقة التّعريف وبطاقة الخدمة العسكرية، ولا سيّما هذه البطاقة، هي كلمة السرّ في نقاط التّفتيش الأمنية. أوّل سؤال يُوجّهه لك عسكري أو دركي، في الطّريق: «هل أديت الخدمة العسكرية أم لا؟». في حال النّفي، يجد الشّخص نفسه

مجبرًا على النّزول. يُحتجز ثمّ يوجّه إلى أقرب مركز تجنيد. ولا يهمّ إن كان ربّ عائلة أو تجاوز الثّلاثين.

تحقّق عسكري شاب من وثائق السّائق، دون أن ينبس بكلمة. لم يطلب من السّيدة الجالسة في الأمام وثائقها، ونظر إليّ قائلا: «كواغطك» (وثائقك). نظرت إلى شفته السّفلى المتيبّسة، وسلمته بطاقة التّعريف وبطاقة الخدمة العسكرية، التي كُتب عليها: «مؤهل لا يُجنّد»، تلك العبارة الشّهيرة، التي لا ينالها سوى محظوظين في البلد. لم أكن لأحصل عليها لولا وساطة من الحاجّ. «عمّر بها جيبك»، خاطبني يوم حصلت عليها. لم يطل العسكري النّظر في الوثيقتين، أعادهما إليّ، وتحقّق من بقية الرّاكبين، ومن الشّاب العشريني، الذي عطفت على حاله، للوهلة الأولى، قبل أن يُظهر وثيقة تأجيل الخدمة العسكرية، لعام واحد، بحكم أنه طالب في الجامعة.

عاد العسكري إلى السّائق وطرح عليه أسئلة روتينية: من أين أتيت؟ أين تذهب؟ أين تسكن؟ والسّائق يردّ عليه، في كلّ مرّة، بكلمة واحدة. صمت العسكري قليلاً، ثم أردف:

- لماذا لم تحلق لحيتك؟
- أوّل ما أصل إلى البيت سأحلقها حضرات.
- إن رأيتك، المرّة القادمة، بلحية سأحلقها لك بشظية زجاج.

ثم سمح له بمواصلة الطّريق، بحركة من رأسه.

قطعنا الشّارع الرّئيسي، من سيدي عيسى، متّجهين جنوبًا، ولم ألمح سوى عدد قليل من النّاس يتسكّعون في أرصفتها. رغم أن اليوم ثلاثاء والسّاعة تتجاوز التّاسعة والنّصف. بدت لي مدينة الولي الصّالح

سيدي عيسى بن محمد، صاحب البركات، بوقبرين، عابسة. الخوف ليس حكرًا على العاصمة وحدها، إنّه ينمو ويعلو أكثر من أشجار الخروب، التي تحفّ تلك الطّرق الخالية.

وُلدت في بوسعادة، عام 1970، لكنني لم أعش فيها سوى في سنواتي الثّلاث الأولى. لم أدخلها، في السّنوات العشر الفائتة، سوى مرتين، لُمرافقة أمّي، في زيارتين إلى شقيقاتها. سمعت عن ولييها الصّالحين سيدي سليمان وسيدي ثامر، عن واديها، الذي يشقّها شطرين، عن حدائقها، التي عاش تحت عنبها إيتيان ديني، ودُفن بالقرب منها. وقرأت في كتب عن نسائها، عن النّائليات، التي يطمع الرّجال في الظّفر بهن، عن مواخيرها وعن مقاومتها للاستعمار وسخطها من دولة ما بعد الاستقلال. لهجتي عاصمية ولا أتقن لهجة بوسعادة. واللهجة العاصمية هي، على الدّوام، موضع تندر وسخرية. كثيرون يعتقدون أن العاصميين ضعاف الشّخصية، ونساؤهم سهلات المنال، لهذا توجّب عليّ أن لا أثرثر كثيرًا، تجنبًا للحرج. فاروق أوصاني بالمبيت في فندق يُسمى «راحة البال»، فهو الفندق الوحيد المفتوح، في مدينة كانت، إلى وقت قريب، مزارًا للسيّاح، بعد حرق فندق «القائد»، الذي أُشيع عليه أنه يقدّم مشروبات كحولية وتنزل فيه بائعات الهوى. لكنني لم أجئ بنيّة المبيت، في هذه المدينة، المقبورة بين جبلين، جئت لقضاء حاجتي والعودة من حيث أتيت في اليوم ذاته.

أوّل ما نزلت من السّيارة، وعلى أمتار من محطّة المسافرين، شاهدت سوق ماشية، ينبسط على أرضية ملعب لكرة القدم، تُحيط به شجيرات الدّفلى. ثغاء وكلام غير مفهوم وصيّاح يختلط ببعضه البعض في المكان. تُجار يرتدون القشّابية المحلية، المصنوعة من الوبر،

وشباب ببنطلونات من جينز، يتزاحمون فيه. لمحت كهلاً يقف، على بعد خطوات قليلة منّي، وهو يحمل رزمة أوراق نقدية. حين انتبه أنني أنظر إليه، أخفاها، بحركة رشيقة، كلاعب جمباز، أسفل القشّابية. أدرت له ظهري، أوقفت تاكسي، وتوجّهت إلى دار البلدية. حين وصلت إليها وجدتها شبه خالية، والسّاعة تتجاوز الحادية عشرة بقليل. ظننت أنه يوم عطلة لو لم أبصر موظّفين يتحرّكون في كسل، خلف شبابيك، من زجاج مدخّن، وهم يحرقون سجائرهم أو يعلكون. وقفت أمام شبّاك الحالة المدنية، قدّمت بطاقة تعريفي، وأخبرت الموظّف، صاحب الشّارب العريض، الذي تظاهر كما لو أنّه يكتب شيئًا ما، أنني مُرسل من طرف الحاج إبراهيم دبكي، كما أوصاني فاروق. ما إن سمع الاسم حتى لمعت عيناه وترك ما في يديه: «أهلا بك!.. كيف حال الحاجّ؟». طمأنته بأنّه بخير، متجنبًا الخوض معه في وضعه الصّحي، وطلبت منه وثائق شخصية لسي أحمد. فتح سجلاً، أوراقه من حجم كبير، قلب صفحاته، حتى وقعت عيناه على اسم عمّي ووضع سبابته اليمنى عليه. استخرج من الدّرج، استمارات وأوراق بيضاء، وملأ خاناتها، ولم يستغرق الأمر أكثر من ربع ساعة. قام بعدها من مقعده، استأذن منّي، خرج إلى مكتب مُجاور، ختم الوثائق، ثم عاد وسلّمها لي وهو يردّد:

- أبلغ سلامي للحاجّ. قل له أن قدور بن الحاج علي يسلّم عليك.

أحجمت عن إطالة اللّغو معه، وانسحبت. فلو أنَّ شخصًا آخر مكاني لانتظر يومًا بأكمله، أو ربما طلبوا منه العودة في اليوم التّالي، لقضاء مصلحته.

قلت في نفسي إن أسرعت إلى محطة المسافرين، مع بعض الحظّ، سأجد سيارة نقل جماعي، تعود إلى العاصمة، وأصل إلى شقّتي قبل الثّامنة ليلاً. ووقفت، على بعد أمتار من دار البلدية، أنتظر تاكسي، وشاهدت أطفالاً يخرجون مهرولين من مدرسة، علّقت على بوابتها لافتة خضراء كبيرة: «المدرسة الابتدائية الشّهيد بوعلام بلزرق»، وشعرت بجوع. لم أتناول طعامًا منذ ارتشافي كوب حليب مع نصف باغيت خبز، قبل أن أخرج من شقّتي. رأيت أمامي مقهى، يكتظ بالرّؤوس السّود والرّمادية والبيضاء، وفاجأني صوت يطلع من هناك، بينما أنا أتأمل ملامح المارّة وأسمع ضوضاء الصّبية الخارجين من المدرسة، ويتجّه نحوي: «يا ولد الحاجّ!».. «يا ولد الحاجّ!».. تقدّم منّي رجل، متوسط القامة، بشارب أشعث، حليق اللحية، وصافحني.

- أكيد أنك لم تعرفني.
- ...
- أنت سليم بن الحاجّ إبراهيم؟
- نعم
- أنا منصور، جار والدك القديم.
- ...
- أتذكّرك وأنت رضيع، تتبوّل في حجري.

قالها لي بفاه ضاحك ولاحظت فلجة تبرز بين قواطعه.

أخبرني أنه كان يحملني، بين ذراعيه، في صغري، ويشتري لي الحلوى خفية عن أبي.

- أين أنت ذاهب؟
- إلى محطة المسافرين، ومن هناك إلى العاصمة.

- لن تجد سيارات نقل. والحافلة التي تأتي من بسكرة، في اتجاه العاصمة، ليست آمنة. أنت تعرف ظروف البلد.
- بلى. سأجد سيارة.
- كلا. تقضي الليلة معنا في البيت. أنت ضيفي. وفي الصّباح «ربي يفرّج».

أمسكني من ذراعي الأيسر، كما لو أنّه خاف أن أهرب منه، وسحبني للمشي معه، كما لو أنّه يسوق شاة. لم يترك لي فرصة للاعتذار والإفلات منه. أعرف أن البوسعاديين لهم مزاج صلب، لكن أن يدعوني رجل لا أعرفه، يقول أنه عرفني في صغري فقط، إلى بيته، فالأمر بدا لي محرجًا، لكن لم أجد كيف أتملّص من يده الخشنة. سايرته وتبعته، عبرنا سوقًا يفرش فيه الباعة سلعهم من ملابس وأدوات كهربائية، على الأرض، حتى وصلنا إلى بيته، الواقع في حارة، غير بعيدة من دار البلدية، تكتظ بصراخ أطفال وهم يلعبون وسط الغبار الصّاعد من التّراب، يتحلّقون حول كرة كالذّباب حول الخراء، بين صفين من منازل قديمة، بعض منها بُني من الطّين، مع أبواب خشبية متآكلة.

بيت منصور يضمّ ثلاث غرف صغيرة، ومطبخ وباحة. جلسنا في الغرفة الأولى، المُجاورة لباب الخروج، التي جعل منها صالونا، وهي لا تحتوي سوى على حصيرة من الحلفاء، مع سريرين ببطانيتين ثخينتين، عُلّقت على واحد من جدرانها الهشّة سورة الإخلاص، مُطرّزة في قماش أسود، وفي سقفها مروحية. وفي زاوية من الغرفة، توجد مائدة خشبية وُضع عليها تلفاز. توارى منصور، ثم عاد يحمل معه صحن زيت زيتون ساخن، مع رغيفي خبز شعير.

- هذا هو الموجود.
- البَركة في القليل.

جلسنا نغمس الخبز في زيت الزّيتون، وهو يسألني عن والـــدي ويتمطّق. ثم واصل:

- كنت أسكن في «حيّ البدادرة»، مـــع والـــديّ وإخـــوتي الثّمانية الآخرين، هناك كان بيت الحاجّ إبراهيم. وكـــان أخوك فاروق صديقًا لي، هو لا يصغرني سوى بعـــامين. ثم تزوّجت ووجدت هذا «العشّ». كلّما هطل مطر بشـــدّة، خلت أن السّقف سيسقط على رأسي.

في الرّكن العميق من ذاكرتي لا أحتفظ بصور ولا أصوات من طفولتي في بوسعادة. ولم أجد راحة في قبول دعوة رجل يعـــرفني ولا أعرفه. لو قرّرت المبيت في هذه المدينة، لحجزت غرفة في الفنـــدق أو ذهبت عند واحدة من خالاتي، اللواتي لم ألتقيهن منذ فترة طويلـــة، لكنهنّ كنّا سيفرحن بزيارتي لهنّ.

خاطبني منصور ضاحكًا، اتّسع منخارا أنفه الأفطح وظهـــرت أنيابه الصّفراء:

- في هذا المكان الذي تجلس عليه قتلـــت عقربًـــا الصّـــيف الماضي.

وأشار بإصبعه، إلى مكان جلوسي، في طرف الحصيرة. لم أجد مبررًا لضحكه، فحيطان الغرفة تتخلّلها شـــقوق وجحـــور، ومـــن الطّبيعي أن تخرج منها عقارب أو أفاعٍ صغيرة. لم أعلّق على كلامه. أخذ يتحدّث، في كلّ شيء، وشعرت أني لست ضيفًا عنـــده، بـــل زبونًا وعليّ تحمّل لغوه، المبلّل بلعابه، ونحن محبوسان في تلك الغرفـــة

التي سادتها روائح بخور وعقاقير تقليدية. «الكلام يجيب الكلام وينح الغمّ والأحزان»، علّق. «أنا متعب وأريد أن أنام»، كدت أردّ عليه. اقتسمنا علبة سجائري واستمرّت ثرثراته، في السّياسة والرّياضة والحياة العامّة، إلى أن تعب في التّاسعة ليلاً.

- سأوقظك في الخامسة، أوصلك إلى محطة المسافرين، وأذهب إلى عملي في مصنع الآجر.

علمت أن منصور يعمل حمالاً، بأجرة يومية، لا تكفيه لحاجياته الأساسية، والأسوأ من كلّ ذلك أنه متزوّج من امرأتين.

- الأولى عاقر، لم أرض أن أطلّقها، وتزوّجت ثانية، لعلها تنجب طفلا يملأ لنا البيت.

وضعت رأسي على الوسادة، وأنا أفكّر في جرأة منصور، الذي يتحمّل الشّقاء ويعدّد في الزّواج، ولسعتني نسمة باردة، في ذلك الفراش غير مريح. بقيت أتقلّب فيه إلى الصّباح. وقبل أن نخرج، لمحت، تحت ضوء الغرفة الخافت، فوهة كلاشينكوف، ظهرت من خرقة بالية، أسفل سريره. أفزعني المشهد. هل منصور من نواطير الأرواح؟ حملني على دراجته النّارية، وقد ندمت على قبول دعوته لي. ركبت أوّل سيّارة وقفلت راجعًا.

# أبحث عن أمّ لي

ليست لي أغراض كثيرة أحملها معي، إلى غربتي؛ عدا بعض الملابس، زوجي أحذية، مخطوط المسرحيّة، كتب قليلة وأسطوانتين لسرفينا يابوكا وتوما زدرواكوفيتش. حقيبة صغيرة أحشو فيها ممتلكاتي الصّغيرة، مع حقيبة يد، أرتّب فيها حاجياتي الحميمة: وثائق شخصية، صور عائلية، حبّات أسبرين، قارورة عطر إيطالي، طلاء أظافر أزرق لامع، أحمر شفاه وماسكارا لتلوين وإبراز الرّموش. منذ خمسة عشر عامًا وأنا أستخدم المكياج، وأنوّع في الألوان بما يتناسب مع لون عيني ومع ألوان ملابسي، لكنني لست راضية عن مظهري. أشعر أنني غير متحكّمة في شكل مكياجي، ولا أتقن استخدامه. تعلّمت تلوين عينيّ، في صغري، من تلوين عيني دميتي البلاستيكية بالأقلام. ثم صرت أضع أحمر الشّفاه مع زميلات لي في المدرسة. ولجذب انتباه غوران، استعنت بطلاء شفاه بلون غامق، أرسم به أطراف شفتيّ، وأُبالغ في تلوينهما. لكنه لم يعلّق علي، وأحسست أن الأمر لم يعجبه، فقد تهكّم أحدهم عليّ مرّة: «وجهك يُشبه مؤخرة دجاجة». أظنني أسرفت في تلوين شفتاي، وظهرتا أكبر من حجمهما الطّبيعي، بشكل لا يتناسق مع وجهي البيضاوي، مما أثار سخرية زميلي منّي. والدي لاحظ، في سنوات مراهقتي، استخدامي أحمر الشّفاه وعاتبني. لكنني لم أُبالِ بكلامه، واصلت تلوين شفتاي،

ولكن على نحو خفيف، حتى لا ينتبه إليّ. عندما كبرت، حاولت أن أظهر بشكل لائق أكثر، أضع مكياجًا خفيفًا في الصّباح، يزداد قتامة في المساء. لكني لم أسمع آراء الآخرين في شكلي، لا أحد سخر منّي، لكن لا أحد مدح مكياجي.

قدّمت لآنتشي، التي عادت لتوّها من جولتها اليومية، في الشّارع، بصحبة أمّي، علبة شكولاتة «أوروكريم»، التي تحبّها. قلبتها بين يديها، كما لو أنّها تكتشف شيئًا جديدًا عليها، ثم وضعتها على الطّاولة، وهي تحرّك رأسها من اليمين لليسار، في إشارة منها بعد رغبتها في الأكل. ابتسمتُ وقرّبت منها العلبة، لكنها تمنّعت وأبعدتها عنها، وأمّي تجلس قبالتنا، على الأريكة، وتنظر إلى المشهد في صمتها الكنائسي المُعتاد.

- سأسافر، بعد غد، إلى سلوفينيا.

قلتها كما لو أنني أعلن لها خبرًا عاديًا.

- لماذا؟

سألتني ببرودة. لم تظهر عليها ردّة فعل حقيقية. لم تبارح مكانها، ولم تبد انفعالاً ولا تحسّرًا.

- سأبحث عن عمل هناك.

وضعت يدها اليمنى على خدّها، مسحته ثم وضعتها على فمها، وهي تخفض بصرها. لم تهتزّ من مكانها. لم تقل كلمة تطمئنني بأن أمّي تحبّني وتتعلّق بي. بدت لي فاترة، كما لو أنّها غير مبالية بقراري.

- سأتّصل بك، من حين إلى آخر.

أضفت.

آنتشي لم تنتبه للمُحادثة، التي دارت بيننا. وأخذت تضحك وعيناها مركّزتان على التّلفزيون، الذي يبثّ عرضًا لرقصة كولو التّقليدية. مجموعة من الرّجال ومن النّساء، يشكّلون حلقة، يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، وهم يرقصون: ثلاث خطوات إلى اليمين ومثلها إلى اليسار، ثم خطوتان إلى الأمام ومثلها إلى الخلف، وفي وسط الحلقة، شاب يعزف على الأكورديون وشابة تعزّف على الكمان. كان جوًّا يبعث على المشاهدة والصّمت، لا على الضّحك. لكن أختي لها عالم يخصّها، إنها تضحك وتبكي لغير سبب.

قامت أمّي من الأريكة، وسألتني، دون أن تنظر إليّ، إن كنت أودّ مساعدتها في تحضير حقيبتي.

- سأحضرها بنفسي.
- هل ستبحثين عن ساشا؟
- سأُحاول.

فتحت أمّي علبة «أوروكريم»، وقدّمتها لشقيقتي، التي خطفتها، من يدها، والتهمتها، كقطّة جائعة، ثمّ طلبت المزيد منها. استغربت أنّها رفضتها منّي وقبلتها من أمّي. يبدو أن الاثنتين ابتكرتا لغة تربط بينهما، وصارتا تتفاهمان، ولا أشكّ أن أمّي تفضّل آنتشي أكثر منّي، على رغم حالتها النّفسية المعقّدة.

نظرت إليّ وقالت:

- اعتني بنفسك.

غمغمت كلمات لم أستبين فحواها، رسمت علامة الصّليب، في الهواء، وختمتها: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها». ذهبت إلى المطبخ، وظننت أنها ستحمل كأس ماء، وترشّ بعضًا منه على

وجهي، وتدعو الربّ أن يسهّل طريقي، كما فعلت مع ساشا، حين قرر السّفر إلى سلوفينيا. لكنها عادت وهي تحمل قرص دواء، ابتلعته، وركنت إلى مكانها على الأريكة، من جديد.

ردّة فعل أمّي غير المبالية لم تُفاجئني. أنا أعرفها أو يُخيّل لي أنني أعرفها. هي كتلة من الصّمت، لا تبصر الأشياء كما أبصرها أنا، أو شقيقتي أو أي شخص آخر، لها عينان لا تُشبهان أعيننا، إنها تفهم أشياءَ يصعب علينا إدراكها، لكنها لا تشرحها لنا. علاقتي بها صارت باردة. خريف طويل يفصل بيننا. ولولا رابط الدّم، الذي يجمع بيننا، لَما قلت إن تلك المرأة التي تستكين إلى صمتها هي أمّي!

يومًا قبل مغادرتي، عدت إلى الفندق، وأبواق السّيارات، التي تزدحم في الخارج، تكاد تصمّ أذناي، لأستلم مستحقات شهري الأخير. أخبرني موظّف الاستقبال، وهو يتصفّح جريدة، أنهم جلبوا نادلاً مكاني، متوسط القامة وبدين، يُشيرون إليه باسم «ريتال»، وليس باسمه الحقيقي لوكا. من أبوين إيطاليين، لكنه وُلد وكبر في سراييفو.

- إنّه من آكلي الضّفادع.

تهكّم عليه.

حدّسي لم يُخطئ، فقد أرادوا فقط التّخلصّ منّي.

صمت، قليلاً، ثم أردف:

- هل صحيح ما يُقال عن والدك؟ أنا لا أصدق ما يُشاع عنه.

شعرت أن في سؤاله خبثًا وسوء نيّة.

- ماذا تقصد؟

– يقولون أنه تعاون مع التشتنيك، سنوات الحرب.

نطق جملته بهدوء ووضوح، وسرت رجفة باردة في أطرافي. طرأت صورة والدي، في ذهني، وهو يدخّن سجائره، في البيت.

– مستحيل. أبي لم يكن قوّادًا.

أجبته بنرفزة وغضب، ثم تركته وأنا أفكّر في كلامه. لا أصدق أنني قضيت عامًا ونصف العام في فندق يتداول فيه النّاس تلك الشّائعة، خلف ظهري. لقد قالها إيفو أندريتش، من زمان، لكنني لم أعر كلامه اهتمامًا: «البوسنة بلد الكره والخوف». أبي لم يتعاون يومًا مع التشتنيك، بل كان يمقتهم. وغاب عنه أن يمقت أهل هذه المدينة أيضًا، الذين لم يرحموه في قبره، وألصقوا بروحه تهمة مشينة.

تقدّمت، في رواق طويل، باتجاه مكتب المحاسبة، ويداي ترتجفان. حككت لساني، لا شعوريًا، على شفتاي، وأفسدت طلاءهما. «بسبب هذه الشّائعة أرادوا طردي من العمل»، قلت في نفسي.

طلب منّي المُحاسب الكهل، ذو الجسد المُتهالك، كغصن هشّ، قد يحمله الرّيح في أي لحظة، أن أوقّع على أربع أوراق كاملة، ليسلّمني ظرفًا، ببضع مئات من الماركات البوسنيّة. شكرته، وأنا ألعنه في داخلي، وخرجت، دون أن أغلق الباب من خلفي، وأنا غير نادمة على ترك عملي في ذلك الفندق، الذي نزع عنّي صفة مؤلفة مسرحيّة، ألصق بوالدي شائعة، وكاد يرميني إلى بئر سحيقة. رمقت موظّف الاستقبال، النّحيف والطّويل، بعينين تائهتين، دون أن أودّعه. مررت بباشتشارشيا، حوّلت جلّ المبلغ، الذي استلمته، إلى الماركة الألمانية، عدت إلى البيت، واتّصلت بأزرا، أخبرها بموعد وصولي إلى ليوبليانا.

- أنتظرك إيفانا.

وجدت أمّي تجلس في الصّالون. تمضغ قطعة من فطيرة تفاح وتستمع إلى الرّاديو، الذي يبثّ أغنيات قديمة، مرّة تحرّك رأسها على إيقاع الأغنيات ومرّة تدندن كلمات غير مسموعة. فكّرت أن أسألها عن حقيقة ما أُشيع عن أبي وعن تعاونه مع العدوّ، لكنني عدلت عن رأيي. لا يعقل أن يكون أبي قد فعل ذلك. لو سمعت ما بلغني في الفندق، فمن المحتمل أن تتضاعف كآبتها. وضعت أمامها ظرفًا بداخله أوراق نقديّة، وخاتمًا من ذهب، اشتريته قبل عامين، وانسللت إلى غرفتي. لم تنطق بكلمة و لم أنتظر منها قول أيّ شيء. لست غاضبة منها، لكنني مُستاءة أنّها لم تُشعرني بأمومتها لي و لم تتقمّص الدّور لإيهامي، على الأقل، وتشعرني بأنّها تشفق عليّ. «مرارة الأشياء لن تصير حلاوة»، هذا ما كان على أمّي أن تفهمه. تمدّدت في سريري وتخيّلت نفسي في سلوفينيا، وعادت، من جديد، صورة أبي، في ذهني. قمت للاطمئنان على حقيبتي، لكن عقلي تشتّت، وأنا أفكّر كيف أثبت لهم براءته من التّعاون مع التشتنيك. كيف؟

## الجزء الثّاني

# خارطة ممحوّة

# مدينة تنانين

«لا أحبّ السّود»، خاطبتني نادلة ثلاثينية، بإنجليزية هجينة، حاولت مُغازلتها، في مطعم تركي صغير. لحسن الحظّ فإن الإنجليزية تنقذ القادمين إلى سلوفينيا، توفّر لهم سببًا للكلام في حال جهلهم بلغة أهل البلد، كما هو حالي. في نظر تلك النّادلة، ذات القدّ النّحيف والأصابع الدّقيقة، التي تُشبه أعواد كبريت، أنا «بلاك»، أسود؛ لأنَّ شعري فاحم، ولأنَّ شمس البحر الأبيض المتوسط نالت من بشرتي قليلاً. مع أنني في الجزائر أُنعت بالأبيض، وأحيانًا «الرّوجي»؛ لأنَّ مجرى كريّات الدّم ما يزال واضحًا في وجهي. أحمرّ إذا خجلت أو غضبت، وأصفرّ إذا مرضت. ليس لي لون واحد، بل أنا متعدّد الألوان. لكن أمام بياض سلوفينيا السّاحق، لست سوى أسود، في نظرها، أو أسمر، في أفضل الحالات، وأجنبي دائمًا.

دعوتها إلى فنجان قهوة، لكنها تمنّعت، وخرجت أتفرّج على الحارات والبنايات من حولي، وأسترق النّظر، كصبي يتعقّب طريدة، إلى ملبس وملمح عشّاق يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، يتبادلون قُبلات ومُعانقات، وهم يتسكعون مُرفقين بكلاب، كالهسكي، بأنفه المربّع وجلده الكثيف، أو الداشهند، قصير الأرجل وطويل الظّهر، أو البطباط كثيف الفرو. أرى أُناساً لا يتكلّمون سوى قليلاً، ولا يلتفتون إلى الخلف، يبتسمون أكثر مما يثرثرون.

تقطع سمعي كلمات استعنت بقاموسي لفهمها: «دوبردان» (مرحبًا)، «بروسيم» (من فضلك) و«جوْيا» التي تُقال عند اللقاء والوداع. فحين غازلت النّادلة الشّقراء، استنجدت بهذه الكلمات الثّلاث، وأكملت الباقي بالإنجليزية. لم أنوِ مغازلتها لكسب قلبها أو ودّها، بل فعلتها من باب المُداعبة والمزاح. فشلت في محاولتي الأولى، لكن صمّمت على تجريب حظّي، مرّة أخرى، وأنا مُتيقّن أن مليكة تعذر مغامراتي البريئة، وتتفهّم ضعفي أمام الحسناوات.

وقفت أمام تمثال الشّاعر فرنسي بريشَرن البرونزي، الذي ينتصب كما لو أنه شرطي يحرس العابرين، ورفعت بصري من الأسفل إلى الأعلى، ثم درت حوله، وقرّرت أن أقرأ شعره المترجم، حين أعود إلى الجزائر. وفجأة، خطر في بالي أنني جئت من بلد لا يُقيم تماثيل لكتّابه ولا يسمّي شوارعه عنهم. كلّ الشّوارع والميادين تحمل أسماء مُحاربين قدامى أو أئمة أو سيّاسيين، والتّماثيل للعسكريين وحدهم. حدّثني فتحي مرّة:

- حين ينتهي السّاسة والعساكر والقوّادون، سيطلقون على المؤسسات والمراكز الثّقافية أسماء دراويش أو بهائم، لكن أبدًا لن يطلقوا عليها أسماء مثقّفين أو كتّاب.

تفرّجت على المعمار الباروكي لوسط لمدينة، وشكلها المُتناسق، الذي يختلف عن معمار الجزائر العاصمة، ثمّ قابلت الكنيسة الفرنشيسكية، التي تُجانب تمثال بريشرن، وتحضن المتعبّدين والمُطيعين للربّ. ثم اتّجهت يسارًا، ووجدت نفسي في جسر ينتصب فيه تمثال تنين. هذا الكائن الأسطوري، الذي لم أقرأ عنه عدا في قصص عجائبية و لم أشاهده سوى في رسوم متحرّكة، يحرس ليوبليانا، منذ

القدم. جعلوا منه رمزًا لها. أتصوّر أنّها مدينة تنانين فعــلاً. فغالبيــة المارّة يخرج من أفواههم بخار، بسبب البرد، وأنا كذلك، كنت أنفث بخارًا إلى الأسفل. وجميعنا نسير فوق الماء، فليوبليانا مدينة جســور ونساء حسان، يتوسّــطها «ترومو ســتوي»، أو الجســور الثّلاثــة المتقاطعة، التي بناها يوج بلاشنيك، أشهر معماريي وسط أوروبــا. أراد والده منه أن يصير نجارًا، ويُساعده في ورشته الصّــغيرة، لكــن يوج عصا رغبة الوالد، وقاد ثورته في المعمــار. رافــق المعمــاري النّمساوي أوتو فاغنر، وبنى كنيسة «روح القدس» في فيينا، والمكتبة الوطنية السلوفينية وكذا مقبرة «جالي»، أكبر مقابر المدينة.

أخبرني سي أحمد أن ليوبليانا مدينة مُســالمة وخجولــة. قــد تتخاصم مع نفسها، لكن أبدًا لا تتخاصم مع جيرانها ولا مع عابرين بها. والجانب الوحيد المتوحّش فيها هو شــتاؤها. الســلوفينيون لا يغضبون ولا يصرخون، وقرأت أنّهم لم يعلنوا، في تاريخهم الطّويــل، الحرب سوى مرتين؛ في المرّة الأولى لبسط عــرقهم ولغتــهم علــى أرضهم، والثّانية للدّفاع عنها في حرب عالميــة. ثم قــدّم لي كــأس «كوهينا فينا»؛ نبيذ أبيض ساخن، يخلط مع بعض الليمون والقرنفل، يُحلّى بإضافة قليل من العسل إليه. مُقاوم للبرد. وأردف:

– اشرب وانس محاين الدزاير.

منذ وصولي، لم يسألني عما يحدث؛ عن الخوف الذي يُقاســم النّاس فراشهم، كما لو أنه غير مبالٍ أو على اطلاع تامٍ بما يدور من حرب لا اسم لها؛ البعض يطلق عليها اسم «الحيّة» وآخرون يسمونها «الجمرة»، أو أنّه شعر أنني مُرهق مما يحصل وأن لا رغبة لي في إعادة تذكّر ما شاهدته أو ما سمعته أو ما قرأت عنه في جرائــد. جلســنا

متقابلين، في مقهاه، الذي أسماه «تريغلاو»، نسبة لأعلى قمّة جبلية في سلوفينيا، الواقع على طرف شارع جانبي، تتكوّم على رصفيه الثّلوج، يُجاوره سوبر ماركت وبنك، وعلى بعد ربع ساعة، بالحافلة، من وسط المدينة وتمثال فرنسي بريشرن، وصوت الرّاديو العالي، يمنع عنّي التّلصّص على مُحادثات الزّبائن، ووشوشات العشّاق اليافعين. أبصبص عليهم، خفية، وعلى ملامساتهم وأنا صامت. يتكلّمون بتحريك شفاههم وليس بتحريك أيديهم. وبين الطّاولات، في الدّاخل وفي الخارج، تتحرّك نادلة شابّة، ببشرة بيضاء من غير سوء، شعر أسود، وجه بيضاوي صغير، وعينين زرقاوين، وجسم تظهر عليه أمارات سمنة، زادتها جاذبية. بينما سي أحمد يجلس على كرسي طويل، خلف صندوق المال، يستلم حسابات الزّبائن تارة، وتارة أخرى يُغيّر الأوراق النّقدية مقابل قطع للنّادلة، يقدّم لها بعض الطّلبات، وكلّما توتّر في كلامه أو حصل أمر يُزعجه، ردّد كلمة: «كوربا»، وسرعان ما يُرفقها بابتسامة، ويعود إلى الدردشة، وأنا أبحث عن معنى الكلمة تلك في قاموسي ولا أجدها، أنظر إليه وأنظر إلى كأسي، وأفكر في أن أطلب منه أن يخفض صوت الراديو كي أسمعه جيّدًا، ثم أتراجع.

ملامح عمّي لم تتغيّر، منذ آخر مرّة رأيته فيها. وجه عليه مسحة سمراء، أرنبة أنف مثلثة الأضلاع، يظهر منها منخراه، وعينان لامعتان، بحاجبين عريضين، وشارب خفيف، خالطه الشّيب، يذكرني بوجه المغني بلاوي الهواري. لا بدّ أنّهم ينعتونه هو أيضًا هنا بـ«الأسود». أقلع عن التّدخين، وبات يعرج من رجله اليمنى.

- أُصبت في حادث سير.

في البيت، يلعب سي أحمد دور مترجم بيني وبين ابنيه سفيان وخالد. سفيان وُلد خريف 1988، في وقت كانت فيه الجزائر تشتعل بالاحتجاجات وبأعمال العنف، وغضب وتمرّد على النّظام، وخالد يصغره بعامين، يتكلّم أكثر من شقيقه الأكبر، ويطرح عليّ أسئلة بريئة، عن كلّ شيء: «هل لديكم سيارات في الجزائر؟»، «هل لديكم بحر؟»، «هل لديكم قطط؟»، وأنا أردّ عليه، ووالده ينقل له إجاباتي، أو هكذا أعتقد، فأنا لا أفهم اللغة التي يتحدّثانها، وهما لن يفهما الإنجليزية لو تحدّثت بها. وكلّما أسرف خالد في الكلام، ردّ عليه والده: كوربا، فيصمت. هل تعني شيئًا يُشبه التأفّف؟ زوجته نادا، التي تعرّف عليها وأحبّها وهي في الثّانية والعشرين من عمرها، تُحاول أن تظهر بصفة المرأة الطّيبة، تُواظب على رسم ابتسامة، تظهر منها أسنانها ناصعة البياض، المصطفّة كما يجب، أجمل من أسنان مليكة. هي بلا عمل، منذ أن أُغلق مصنع الأحذية، الذي أسساه معًا، في الضّاحية الشّمالية من المدينة. تقضي وقتها في الاهتمام بطفليها، في إطعامهما وغسل ملابسهما وكيّها، وفي تنظيف البيت وطبخ أكلات محلية، وأخرى جزائرية، غالبًا ما تفشل فيها، كطبق الكسكسي، الذي قدّمته لنا مع دقلة نور، التي أحضرتها معي، أكل منه سي أحمد ملعقتين لا أكثر وامتنع ابناه، وأنا تظاهرت بالأكل وجاملتها بالقول إن أكلها لذيذ.

منذ الأيّام الأولى لوصولي إلى ليوبليانا، عثرت على ذلك المطعم التركي الصّغير، الواقع قرب محطة حافلات، تجاورها محطّة قطارات، تعجّ بالحركة، والذي يقدّم كباب وبوراك، بحجم أكبر من البوراك، الذي نعرفه في الجزائر، وطعم أطيب. قطعة واحدة منه تكفي لإشباع

المعدّة. أذهب إليه، من حين إلى آخر، للغداء، ولتكـــرار محـــاولاتي الفاشلة، في معاكسة النّادلة التي تعمل فيه، وهي تصرف نظرها عنّي. أخبرتني أنها مرتبطة برجل بوسني، وهو يغار عليها، لكنني لم أصدّقها. وبعد الأكل أكتفي بشرب القهوة أو «كوهينا فينا» أو «كوكتـــا»، المصنوعة من ورد إبري، والتي اخترعها السلوفينيون لمنافسة كوكـــا كولا، في مقهى تريغلاو.

هناك سحر ما في ملامسة الأشياء، للمرّة الأولى. سحر البدايات في قصص الحبّ أو في اكتشاف مكان جديد، قبل أن يتراجع السّحر والشّغف والبهجة ويتقدّم الملل والابتذال، وهذا ما حصل معـــي، في ليوبليانا. في البداية، فرحت بالتّعرّف على الشّوارع ومصادفة وجوه مختلفة، وبملاقاة سي أحمد وزوجته وابنيه، لكن سرعان ما راح هـــذا الشّغف يخبو. بدا لي سعيدًا، حين جاء لاستقبالي في المطـــار، وهـــو يحدّثني عن مدينته، التي يعيش فيها منذ أكثر من ربع قرن، عن عائلته، وعن المقهى الذي يُديره، وأشعرتني كلماته بدفء أنســـاني قســـاوة الشّتاء. لكن لم تمضِ عشرة أيّام، حتى انقلب مزاجه، صار يقتصد في الكلام معي، وبتّ أتساءل، بيني وبين نفسي: كيف سأقضي الأسابيع المتبقيّة لي؟ ولا سيّما بعدما صارحني، وهو يحتسي كأسًا:

- لو كان ما طاحت الزّريعة ما نبقى هنا.

فهمت أن سبب بقائه في سلوفينيا، هو ميلاد ابنيه، وليس شيئًا آخر. ألا يحبّ زوجته؟ لم أتجرّأ على سؤاله، خشية ردّة فعل ســـلبية منه. اعتقدت أنه تزوّجها عن حبّ وليس عن إكراه، أنها ســـبب تفريطه في الجزائر، وفي «منحة مُجاهد» السّخية، مع ما يُرافقها مـــن امتيازات، كان سيحصل عليها من الحكومة. بعد أيّام قليلـــة مـــن

وصولي إلى هذه ليوبليانا البيضاء، المُستلقيّة بين جبلين يُشبهان نهدي مراهقة، بدأت تتّضح لي أمور كانت غائبة عنّي. شعرت بالهوّة الـــتي تفصل بين عمّي وزوجته. كلّما جاء ذكرها، كرّر كلمة: كوربـــا. وشيئا فشيئًا، زجّني سي أحمد في حياته الشّخصية، وأحسست أنـــني دخلت ورطة، لن أخرج منها، بسهولة. طفق يفتح صندوق بندورا، وشرعت، أمسك بما خفي عليّ، أقترب من جحيم، وصورة نادلـــة المطعم التّركي تلمع في ذهني.

# رأس مأهول بالأوهام

تخلّصت من هستريا آنتشي، من بكائها وضحكاتها العالية، لأجد نفسي في غرفة ضيّقة، بسقف منخفض، تُشاركني فيها عناكب، أسفل غرفة شابّة شقراء، تقضي الليل كلّه في استضافة زبائنها، مع بثّ إيقاعات «تيربو فولك» الصّاخبة. ضجيجها لا يكاد يتوقّف، ووقع أقدامها وأقدام زوّارها، يُشعرني كما لو أن السّقف سيسقط على رأسي. وصاحب الفندق، الخمسيني البدين، الذي بدأت أسنانه في التّساقط، من كثرة الشّرب والتّدخين، لم يفعل شيئًا لردعها، رغم شكاياتي المتكرّرة منها. يُجيبني بأنّها حرّة في غرفتها، ولا يحقّ لنا التّدخل في شأنها. تقضي نهارها في التّقلّب في فراش دافئ، وتحوّل الليل إلى حفلات راقصة. أخبرتني، مرّة، حين صادفتها في سلّم الفندق، الذي تفوح منه رائحة المنظّفات الحادّة، أن اسمها لورينا، وتفضّل مناداتها «لوري»، وأنّها «شرنا غوركا»، أي من الجبل الأسود، وتقيم في ليوبليانا من أربع سنوات، من بينها ثلاث سنوات في هذا الفندق، الذي وصلتُ إليه، بنصيحة من صديقتي أزرا. استأجرت غرفة، في الطّابق الثّاني منه، ألجأ إليها بعد أن أقضي يومي واقفة، في ذهاب وإياب بين طاولات الزّبائن، أخفض رأسي وأنحني وأنا أخدم الجالسين، مما يسبّب لي، في نهاية كلّ دوام، آلامًا في السّاقين وأسفل الظهر. ثم تزيد هذه الشّقراء الطّائشة من توتري، كلّ

ليلة، فهي لا تعرف من أكون، ولا تعلم أنني أحمل دبلومًا، على العكس منها، لا أعتقد أنّها درست ولا تمتلك مؤهلاً، سوى جسدها النّحيف والمصفرّ، كما لو أنها مُصابة بعسر التّغوّط، والذي تُقايضه، مع زوّارها، مقابل بعض المال.

لم أخبر أزرا عن الحرج الذي تسبّبه لي هذه الجارة، وغالبًا ما أرد عن أسئلتها لي عن إقامتي في هذا الفندق، الذي شُيّد قبل قرن من الآن، بأن الأمور على ما يُرام. فقد كانت لطيفة ولبقة معي. استضافتني أسبوعين كاملين، في بيت أهلها، لكن لم يكن بالمستطاع البقاء هناك لمدّة أطول. بيتهم صغير، يتكوّن من ثلاث غرف، تعيش فيه مع والديها وأخوين وأخت صغيرة لها، كانت تُقاسمنا غرفة النّوم. أقرضتني مالاً، لأؤجّر الغرفة، وأدفع مقدّم ثلاثة أشهر، فهي تعمل موظّفة في شركة تأمينات، وساعدتني، بوساطة من قريبة لها، تدعى نادا، في إيجاد عمل بمقهى، يُديره رجل عربي، التزم، في أوّل لقائي لي معه، بأن يدفع لي راتبي، في الوقت المحدّد؛ في اليوم الأخير من كلّ شهر.

أعمل سبع ساعات يوميًا. أعرف السّاعة التي أبدأ فيها، لكنني لا أستطيع تحديد الوقت الذي أنتهي فيها. مرّة في دوام صباحي، من السّابعة إلى الثّانية بعد الزّوال أو بعدها بقليل. ومرّة أخرى دوام مسائي، من الثّانية إلى التّاسعة ليلاً أو بعدها بقليل. أتناوب، في العمل، مع نادل آخر يُدعى ألياش. بعد الدّوام الصّباحي، أحب أن أتسكّع، كسائحة مترفة، في شوارع ليوبليانا. أصعد مشيًا، إلى القلعة أو «ليوبليانسكي غراد» كما يسمّونها، وأُشاهد المدينة من عل. كانت، في الماضي، حصن دوقية كارينيثيا، التي امتدّت من النّمسا إلى

سلوفينيا، تحوّلت إلى قاعدة عسكرية، ثم سجنًا، والآن صارت ساحة مفتوحة، لإقامة الحفلات والأعراس، ولسيّاح، يأتون من ألمانيا وهولندا وفرنسا وإيطاليا، يصعدون إليها لالتقاط صور، وأنا أتفرّج عليهم، وأضحك، بداخلي، لأنهم لا يعلمون أن ذلك المكان المستباح، كان ممنوعًا عن السّكان المحليين الوصول إليه.

بالنّزول من القلعة، والسّير بخطّ مستقيم، بعد أن أقطع نهر ليوبليانيتسا، الذي يقسم المدينة إلى جزأين، أجد نفسي أمام مبنى «سانكاريو دوم»، الواقع قبالة البرلمان، والذي سمّي كذلك نسبة للمسرحي إيفان سانكار. أتجوّل في الدّاخل، أتلمّس الجدران، مثل ضرير يتحسّس طريقه، وأتخيّل نفسي أمثّل المسرحيّة، التي لم أنته من كتابتها، وأسمع تصفيقات الجمهور. لقد تركتها جانبًا، بسبب ضغط العمل، ونظرًا لعجزي عن الكتابة مباشرة بالإنجليزية.

- لَمَ لا تكتبينها بالصّربو- كرواتية، أو حوّليها للسلوفينية، وسأساعدك.

قالت لي أزرا.

- سأفكّر.

أجبتها، باقتضاب، لتتوقّف عن تكرار فكرتها، التي لم تعجبني. يهمّني أن تجد مسرحًا كبيرًا يليق بها، وإن كان السلوفينيون متحمّسون لها سيترجمونها بأنفسهم إلى لغتهم. هذه اللغة السلوفينية التي لم أحبّها يومًا. أقنعوا العالم بها، لكنهم لن يقنعوني بتكلمها أو الكتابة بها. منذ وصولي إلى ليوبليانا، لا أتكلّم سوى الصّربو - كرواتية، و لم أجد حرجًا في التّواصل مع النّاس، فهم يفهمونها، ولا تغيب عنهم مُفرداتها. لماذا أغيّر رأيي وأكتب مسرحيتي بالسلوفينية؟

اللغة الوحيدة التي همّني، وأحاول تعلّمها هي الإنجليزية. ندمت أنني لم أبذل جهدًا لتعلّمها، في صغري، وضيّعت وقتي في الرّوسية، التي لم أستفد منها قطّ. مرّة وقفت أمام وكالة سياحية، تعرّض رحلات، مخفضّة التّكلفة، إلى لندن ودبلن، وفكّرت في المغامرة. «ستكون المغامرة سببًا لتعلّم الإنجليزية»، قلت في نفسي. ثم شاهدت عرضًا مماثلاً إلى فرنكفورت. شعرت بقلبي يهتزّ. هي مدينة غوران، الذي أحببته في حضوره وفي غيابه. هل ما زال يذكر حبّي له؟ أم وجد ألمانية، أجمل منّي وأكثر رشاقة، ووهب نفسه لها؟ بعد غوران لم أشعر بانجذاب إلى أي رجل آخر. امحى الرّجال من وجودي. أراهم دون أن أمعن النّظر فيهم. كلّ الرّجال صاروا، في نظري، مثل أوعية ألمنيوم؛ باردين ومُتشابهين.

– انسي غوران وافتحي قلبك لرجل آخر.

علّقت أزرا.

غوران يسكنني. أشعر كما لو أنه يُراقب حركاتي وأنفاسي. يحدث أن أجد نفسي أتخيّله وهو يقف بجانبي، أو يجلس معي. أمشي في الشّارع وأنا أدردش معه، ولو مرّ شخص ما لا يعرفني ورآني بتلك الحالة؛ لاعتقد أنني بلا عقل أو أنني هاربة من مصحّة أمراض نفسية. بحثت، طويلاً، عن شبيه له، دون جدوى. في تريغلاو، الذي أعمل فيه، يحدث أن أتعرّض لتحرشّات من بعض الزّبائن، ولا سيّما بعد أن يسكروا، ويلعب الكحول بعقولهم. فغالبيّة روّاد ذلك المقهى يشربون، بإفراط، مثل أبي. ليس شربًا تلبية لرغبة أو حاجة، بل هو رياضة وطنية، يمارسونها بشغف. يتبارون فيما بينهم، أحيانًا، من يشرب أكبر كمية من «تيكيلا» أو من الجعّة المحلية، وحين يفعل هم

الكحول فعلته، تضعف مخيّلتهم، ويتحوّلون من مُسالمين إلى حمقى. أسمعهم يتلفظون بكلمات نابية، ويسخرون منّي بمناداتي: «بوسانكا» أي بوسنيّة. يقولونها بتهكّم. ويحصل أن يجرؤ واحد منهم على إغرائي بموعد رومانسي أو يُحاول لمسي، لكنني أردّ عليهم بفظاظة، بكلمات وقحة، مثلما فعلت مع ذلك السّتيني الأشيب، الذي كتب لي، على ورق كرافت، عنوان بيته، ووعدني بمال إذا قضيت ليلة معه. «ضاجع أمّك أو ابنتك، يا كلب»، قلتها له، ولم أنتظر أن يتدخّل صاحب المقهى الأعرج، فهو لم يفعل شيئًا يوم اشتكيت له زبونًا، ثملاً، بوجه مجعّد، كما لو أنه خرج للتوّ من سجن غولي أوتوك، الذي كان يرمي فيه تيتو معارضيه، طلب منّي أن أقبّله على شفتيه مقابل أن يدفع لي ثمن مشروبه. صاحب المقهى يفضّل أن أتغاضى عن التّجاوزات التي أتعرّض لها، على أن يفقد زبائنه.

حلمت بأن أصير كاتبة مسرحيّة أو ممثّلة وفقط، فوجدت نفسي، من سراييفو إلى ليوبليانا، نادلة أمام بشر يتفرّسون في جسدي ويحاولون استمالتي أو ترهيبي للخضوع لنزواتهم. ومهما بلغ بي الأمر، لن أمنح جسدي لسكير أو صعلوك، أو أحمق «باباكْ»، كما نقول في لهجتنا، يقضي وقته في الشّرب والاستمناء وفي التّطلّع إلى نهود ومؤخرات النّساء. أعرف أنني لست جميلة، ولست مُغرية، وليس لي خصر يتغنّى به الرّجال، ولن أنال حبيبًا وسيمًا، ومثقّفًا كما أريد، لكنني لن أقبل بأن أصير لقمة بين صدورهم التي يفوح منها العرق وأفخاذهم البدينة، المحشوة بالشّحم.

اتّصلت، قبل أيّام، بأمي، بعدما طفت على بالي جملتها: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها» وأحببت أن تعلم أنني لم أذق طعم الحلاوة،

وأنني أدور في حياة أمقتها. أخبرتني أن كلّ شيء على ما يُرام، كـي تقطع حبل الكلام على عجل. ولم تطرح عليّ سوى سؤاليها المعتادين: «هل تأكلين جيدًا؟»، «هل تنامين جيدًا؟». انتظرت منها أن تقول أنها تشتاق إليّ، لكنها لم تفعل. سألتني إن كنت قد التقيت شقيقي ساشا، وحين أجبتها بالنّفي؛ لاذت بصمتها القديم.

أنهيت المكالمة، وعدت، في ذلك المساء، إلى غرفتي، بشعور يشوبه الإحباط، كما لو أنني لاعبة تنس خسرت مباراة حاسمة، وسمعت، وأنا أغيّر ملابسي، طرقًا خفيفًا. فتحت الباب ووجدت لورينا أو لوري، بقميص نوم أزرق فاتح، ونهداها يتدافعان للتحرّر من الأزرار، التي تضيّق عليهما.

- هل أجد عندك بطانية إضافية، لصديقة لي، جاءتني لزيارتي.

كدت أعطيها بطانية، ثم تراجعت.

- لا أملك سوى واحدة.

قلتها لها، بنبرة حادّة، وعينيّ مركّزتين على عينيها. استدارت عائدة إلى غرفتها، وطلبت منها أن لا تدقّ على بابي ليلاً، فأنا أعمل كثيرًا وأحتاج أن أنام باكرًا. تأفّفت وسمعتها تتمتم شيئًا ما. أعتقد أنها نعتتني بـ«ليزبيكا». أردت أن أردّ عليها، فأنا لست سحاقية، لا أستضيف نساءً لأضاجعهن مثلما تفعل، ثمّ تذكّرت أنني لا أختلف عنها كثيرًا. أنا لست أفضل حالاً من لقيطة، في مدينة عاتيّة ومُتعالية. خمّنت أنّ لا شيء يُحرّرني من الغمّ، الذي يسكنني، سوى إيجاد ساشا. فقد يُعينني على الخروج من هذا الجحر، الذي سقطت فيه. وهممت، في اليوم التّالي، بالبحث عنه.

# شهران في حفرة

عندما يشرب سي أحمد، يتورّد خدّاه ويتكدّر وجهه. يصير مكتئبا وحاقدًا على ماضيه. يتخلّص من بروتوكولات العلاقة العائلية التي بيننا، ويُناديني باسمي بدل كلمة «وليدي»، التي تعوّد عليها في السّابق. كرع كأسًا وصبّ أخرى، انتبه إلى أنني كبرت وبلغت طور النّضج، عاملني كصديق له، وطفق يحكي لي، عما ناله من تعذيب، في سجن خفيّ، قبل أكثر من ربع قرن، بعد اتّهامه باغتيال زوجته الأولى.

- أنا لم أقتلها، بل انتحرت برصاصة من بندقيتي، بعدما شاع نبأ عن تعرضّها لاغتصاب من مُجاهدين سابقين وسخرت منها صديقة لها، في حمام النّساء، ونعتتها بالعاهرة.

أخذ رشفة من كأسه، وصمت حتّى اعتقدت أنه لن يعود إلى الكلام، ثم أردف، وهو يخفض بصره كما لو أنّه خجل منّي:

- خافت من العار وحاولت أن أخفّف عنها، لكنها لم تُبالِ بكلامي، انتظرت غيّابي عن البيت، وأطلقت رصاصة على رأسها.

بعد أن وجد زوجته السّابقة ميّتة، في منتصف النّهار، هرول إلى مخفر الشّرطة، وأخبر أبي بما حدث، ثم أبلغا المُحافظ بالأمر ووقّع على محضر مُساءلة، ثمّ دفناها. في صباح اليوم التّالي، اعتقله شرطيّان،

بلباس مدني، أمام بيته، وتوقّع أن يتوجّها به إلى مخفر الشّرطة أو سجن المدينة، لكنهما توجّها، بسيارتهما، إلى الضّاحية الجنوبية، في بوسعادة، على طريق بسكرة، وسلّماه لرجلين آخرين، اقتاداه، بسيارة أخرى، وبعينين معصوبتين، إلى سجن سرّي، تحت الأرض.

- بعد ساعات طويلة في حفرة رطبة، فُتح الباب. واعتقدت أن أخي إبراهيم جاء ليُخرجني، لكن السّجان سحبني، بقوة، من ذراعي، دون أن يتكلّم، وقادني إلى قاعة فسيحة، توسّطها مكتب صغير وكرسيان. جلست قبالة مُحقّق، يُدعى الحاج لزرق. كان رفيقًا لنا سنوات النّضال ضد الاحتلال الفرنسي. سألني بنبرة غاضبة: «لماذا قتلت الزّهرة؟». نفيت التّهمة وأخبرته أنها انتحرت. لكنه أصرّ على أنني قتلتها، وتوعّدني بدفع ثمن غالٍ، لأنني لم أقم بواجبي تجاهها وهي ابنة الشّهيد بوعلام، عمّ الحاج لزرق.

سجنوا سي أحمد في حفرة من إسمنت وحديد، لا يصل إليها ضوء، دون احترام لماضيه الثّوري. كان ينام على بلاطها البارد، بلا غطاءٍ ولا وسادة، ومن حين إلى آخر، يسحبه السّجان إلى الخارج، لملاقاة الحاج لزرق، مرّة أخرى، الذي جرّب الضّغط عليه بالتّهديد والتّعذيب للإقرار بأنه قتل زوجته، كي يُحيله على المحاكمة. وسي أحمد يستميت في النّفي وفي طلب مقابلة والدي. أهانه الحاج لزرق مرّة: «أنت كنت عميلاً ولم تخدم الثّورة». وطلب من واحد من السّجانين أن يضربه أمامه على وجهه وأسفل بطنه. ظنّ عمّي أن أمره سينتهي في حفرة، ولن يخرج منها سوى جثّة، وأنّهم سيشوّهون

سمعته، أمام النّاس، مثلما فعلوا مع مناضلين آخرين، ويعدمونـــه، في الخفاء، ثم يبرّرون فعلتهم باختلاق تهمة تواطؤ مع قوى أجنبية. كان سي أحمد، في حفرته، كما قال لي، يستعيد ذكرياته، سنوات الثّورة، يتذكّر ما قام به، من توزيـــع للمنشـــورات، ونقـــل للتّعليمـــات للمناضلين، وفراره أكثر من مرّة من أعين شرطة الاحـــتلال وأعـــين تابعيهم، وهو يدمع ويتحسّر على الخذلان الذي قوبل به.

– كنت سنوات الثّورة أتنقّل من بوسعادة إلى باتنة وقسنطينة، ألتقي المناضلين، وأنقل لهم تعليمات ورسائل القادة. كلمة السّر بيننا: «يوسف جاء اليوم». وكم من مـــرّة نجـــوت، بقدرة قادر، من أعين الشّرطة، ومن حراسة قوّاديهم، لكن ذلك لم يشفع ليّ، وعُذّبت كما لو أنـــني كنـــت عمـــيلاً للاستعمار، بتهمة لم أقترفها.

كان المُعتقل مُظلمًا، على الدّوام، وكلّما فكّر في النّوم، دخـــل عليه السّجان، كملك الموت، ليضربه، ثم يتركه يتخبّط في دمـــه وفي صراخه، الذي لم يكن يسمعه أحد.

يده اليمنى أخذت ترتجف، كما لو أن شحنة كهرباء مسّـــتها، وهو يمسك بكأسه، نصف الممتلئ، ويحكي لي ما حصل له.

– عشت بين فضلاتي وبقايا أكل، لم يكن سوى مـــن خبـــز يابس وعجائن. فقدت الشّهية وأصبت بإســـهال حـــادّ، بسبب ماء ملوّث. وزني تضاءل، وشعرت بأنني تحوّلت إلى كائن له روح بلا جسد. فقدت أيضًا، من شدّة الضّـــرب والتّعذيب، الإحساس بملمس الأشياء. كنت أتحمّل، كـــلّ يوم، جلسات التّعنيف وشتائم أحد السّجانين، الذي كلّما

تعب من تعذيبي، أطفأ عقب سيجارته على كتفي أو فخذي. ثم يرفسني ويبصق عليّ، غير عابئ بصرخاتي، إلى أن يخفت صوتي ويتحوّل إلى بحّة ضعيفة.

في كلّ مرّة تنتهي فيها المُساءلة مع الحاجّ لزرق، كان سي أحمد ينال نصيبه من الضّرب بأيدٍ خشنة وعصي. أحد السّجانين تعمّد، أكثر من مرّة، إهانته بإدخال إصبعه في مؤخرته، بينما الآخر يركله على خصيتيه، وصرخات عمّي ترتفع في الحفرة الإسمنتية، ثم يعود إليه صداها.

- كلّ ذلك حصل بسبب الزّهرة. هل اغتصبوها عنوة أم كانت فاجرة؟

نطقها بصوت مُنخفض، ودفنت رأسي بين كتفيّ. بقيت أحدق فيه باستحياء، وهو يختتم سؤاله بـ«كوربا»!

قضى شهرين كاملين في ذلك السّجن السّري، فقد الأمل في رؤية نور النّهار، من جديد، وأخذ يتخيّل شكل جنازته، والأشخاص الذين قد يحضرونها والذين قد يتغيّبون عنها، ولم يخرج منه، في الأخير، سوى بوساطة من أبي، الذي فهم القضيّة، من البداية، وأدرك، بحسّه البوليسي، المصير الذي وصل إليه شقيقه، تشفّع له عند مسؤول كبير في الحزب الواحد، وتدخّل، لحسن الحظّ، لإطلاق سراحه.

- لّما خرجت من السّجن، وشاهدت ضوء الشّمس، كاد يُغمى عليّ. الضّوء في الخارج أبهرني.

حزم بعدها حقيبته، وغادر، بحجّة زيارة مصنع للأحذية في يوغسلافيا.

هل حكى تلك القصّة المُفجعة لزوجته نادا وابنيه؟ أتمنّى أنّه لم يفعل. ربما حكاها لي، للتّخفيف عن نفسه، للتّخلص من ضغط تملّكه. لا أظنّ أن له أصدقاء في ليوبليانا يُفاتحهم في قصص شخصية، ولم يكن له أن يحكيها لشخص آخر بسهولة. الحاجّ يعلم تفاصيل ما حصل، وأمّي وربما فاروق كذلك، لكن لم يسبق لهم أن فاتحوني في الموضوع. لأنهم لا يثقون فيّ؟ أم لأن الأمر من الماضي وليس من المهم العودة إليه؟ لمعت، في تلك الأثناء، صورة الحاجّ في ذهني. هل تعرضّ هو أيضًا لتعذيب؟ لقد تعرّض لتعذيب، في سجن سور الغزلان، قبل الاستقلال، وليس بعده. لكن تلك الحقبة انتهت، والبلد بأكمله يتعذّب، الآن، تحت حرب، لا تصحّ المفاضلة بين ضحاياها.

وجدت نفسي في سلوفينيا مثل «ضيف بلا عرْضة»، كما يقول المثل، غريبًا في بشرتي ولغتي وعاداتي، وأعتقد أنّ سي أحمد شعر بالشّيء ذاته، حين وصل إليها، للمرّة الأولى. فهذا البلد لا يُشبه سوى نفسه، لا هو بلقاني، كما اعتقدت، ولا هو جرماني، بحكم التصاقه بالنّمسا، والهامش الشّرقي الوحيد فيه أجده في المطعم التّركي، الذي أذهب إليه، أحيانًا، لأدفئ معدتي. وصادفت، مرّة، امرأة عجوزًا، بيضاء البشرة، تجلس في ركن من المطعم، تضع خمارًا أزرق على رأسها، وثلاث فتيات يصطففن، واحدة تلو الأخرى، أمامها. سألت النّادلة النّحيفة عنها.

– إنها ابنة خوجة وقارئة فنجان.

تقدّمت منها. وبعد أن فرغت من الفتيات، اللواتي كنّ ينتظرن قبلي، ودون أن أتكلّم، خاطبتني: «سلام». هل كُتب على جبيني أنني عربي؟ وأشارت عليّ أن أطلب قهوة... «كافا... كافا».

أحضرت لي النّادلة قهوة، أتممت شربها، بعد ثلاث جرعات، وقدّمت لها الفنجان. كبّته على صحن، وسال ما تبقى منه، وهي تنظر إليّ في صمت. ثمّ رفعته ونادت على النّادلة «لوتْسيا.. لوتْسيا»، لـتجلس بالقرب منّيّ، وتترجم لي كلامها:

- هل فقدت أمّك؟

سألتني.

كيف عرفت؟ أخبرتني أنها رأت في فنجاني حذاءً وهـذا مـا فسّرَته بأنني أتأهبّ لسفر. ربما قصدت أن أسافر عائدًا إلى الجزائـر، بعد نهاية صلاحية الفيزا. ورأت عنزة مما يعني أن لي أعداء يتربّصـون بـي. ليس هناك سوى نواطير الأرواح، وأنا بعيد عنهم إلى حـين. قالت لي أنني سأنال مالاً. ورأت أيضًا سكينًا، بما معناه أنني سـأقطع علاقة ما. هل سأقطع علاقتي مع مليكة أم مع شخص آخر؟

خرجت من ذلك المطعم حائرًا. لم يسبق لي، مـن قبـل، أن فكّرت، في قراءة الطّالع، وبقيت أستعيد كلام تلك العجوز، التي تبرز شرايينها على ظهري يديها، إلى أن وصلت إلى مقهـى تـريغلاو، وجلست إلى طاولة في الخارج، رفعت يدي اليمنى، في تحيـة لسـي أحمد، وردّ عليّ بتحريك رأسه. لم أرغب أن أجلس قبالته، وأن يُعيد مُفاتحي في قصّة تعذيبه. توخّيت أن أحافظ على مسافة بيني وبينـه، حتى يتجاوز كآبته، ولا يعود إليها مرّة أخرى. وقفت أمامي النّادلة، بابتسامتها المُشعّة، وسألتني إن كنت أودّ شرب شيء ما. وأبصرت، عن قرب، زرقة عينيها التي ذكّرتني بعين مليكة اليمنى. قبل أن أطلب منها عصيرًا، سمعت عمّي يُناديها من الـدّاخل بصـوت مرتفـع: «إيفانا». ذهبت إليه ثم عادت، بعد لحظات، بكأس «كوكتا».

- اسمك إيفانا؟

بدا لي سؤالاً غبيًا. طرحته عليها لأفتح دردشة معها.

- نعم.

أجابتني، بابتسامة خجولة، ولمحت أظافر أصابعها الطّويلة، المطليّة بالأزرق. ثم استدارت للخلف وذهبت إلى طاولة زبون آخر تسأله إن كان يُريد مشروبًا، وعضضت على شفتي السّفلى وأنا أنظر إلى خصرها المكتنز قليلاً وردفيها المكوّرين، كحبتي شمّام ناضجتين. أخذت أتودّد إليها، في الأيّام الموالية، بكلمات وإشارات، أتقرّب منها، دون إثارة انتباه سي أحمد، ولم تُمانع. فتحت لي كوّة، ثم رجمتني بما لا أقدر عليه.

# بائع التّماثيل المُشّعة

راودتني، أكثر من مرّة، رغبة في القفز إلى نهر ليوبليانيتسا، كي أذوب فيه، مثلما حدث لأورشكا، أحلى نساء ليوبليانا؛ «نجمة الصّباح»، كما كتب عنها فرنسي بريشرن، التي باغتتها عاصفة، وهي تركض مع حبيبها، فغطست في الماء، لتعبر إلى الضّفّة الأخرى، سبحت وقاومت المدّ، لكنها غرقت، وازداد النّهر حسنًا بعدما انّحل فيه جسدها البهيّ. أمشي بمُحاذاة هذا النّهر، الذي يظهر كامرأة مُحتشمة، متعفّفة وصامتة، تترصّد المارّة وتُغازلهم، تستثير حواسهم دون أن تمنحهم فرصة كافيّة للدّنو إليها، وأتمتم: «من أين له هذا الخجل المُفرط؟ لماذا لا ينتفض أبدًا مثل أنهار أخرى؟ لماذا لا يغضب ولا يكسر خمول الشّوارع والحارات المُجاورة؟». أحاول مُقارنته بنهر ميلياتسكا، في سراييفو، لكن لا أجد شبهًا بينهما. ميلياتسكا لا يتأخّر عن تذكيرنا بشقائنا، بينما هذا النّهر، يستسمك بوحدته، يهدّد جيرانه دون أن يفعل شيئًا، ودون أن يأمن أحد شرّه يومًا. وبينما أجول ببصري، مثل شريدة تبحث عن غار ترتمي فيه، على جسر صغير، ربما في المكان الذي غرقت فيه أورشكا، أو قريبًا منه، رمقت أميرًا. كان يقف وحيدًا، يعتمر قبعة الفرو «شابكا»، ويعرض، على طاولة من ألمنيوم، تماثيل صغيرة للمسيح، صُنعت من خشب، يشع منها ضوء أحمر. يقتنيها بعض المارّة بمناسبة اقتراب أعياد الميلاد، أو ما يُسمّى «بوجيتش».

- زدرافو. هل أنت أمير؟

طرحت عليه هذا السّؤال السّخيف، بوجه نصف مُبتسم، لأنني لم أعرف كيف أستهل الكلام معه. ودون أن أتمّ سؤالي، فتح عينيه الواسعتين وعانقني. طبع قبلتين على وجنتاي وأمسكني من ذراعيّ، كما لو أنه قبض على صيد ثمين.

- إيفانا..

جمعتني، أنا وأمير، مدرسة واحدة، لكن ليس في القسم ذاته، فهو يكبرني بعامين، ولطالما سمعت البعض وهم يتشاركون في الضّحك عليه بسبب حوَله. ثم بلغني أنه هاجر إلى النّمسا، أو هكذا فهمت من أحاديث جانبية بلغت أذناي، وللمُصادفة وجدته أمامي في ليوبليانا.

جمع تماثيل المسيح، دون أن ينبس بكلمة، وضعها في حقيبة ظهر، طوى الطّاولة، حملها على كتفه، ودعاني إلى شرب فنجان قهوة.

- لا أنوي إزعاجك.

لم ينتبه إلى جملتي، أو لم يأخذها على محمل الجدّ.

- كيف جئت إلى هنا؟

لم تكن لي رغبة في أن أحكي له تفصيلات سئمت منها، عن حياتي السّابقة التي دفعتني إلى مغادرة سراييفو، وقد يكون سمع أشياءَ عنها؛ عن عائلتي وعن مغامراتي البريئة. ويعلم أنني درست المسرح وأمنّي نفسي بأن أصبح مؤلفة مسرحية أو مُمثّلة، فالجميع يتجسّس على الجميع في البوسنة، ولا أسرار تصمد أمام ألسنة النّاس الحادّة والطّويلة.

- جئت للعمل هنا فحسب.

اختصرت له المسافات بإجابة واحدة، وأعرف أنها إجابة مملّة، تعوّد على سماعها من بوسنيين آخرين.

جلسنا في مقهى عُلّقت على جدرانه صور قديمة، بالأسود والأبيض، لبنايات وشوارع تاريخيّة من ليوبليانا. وسألني:

- أين تقيمين؟

تحرّجت أن أقول له إنني أُقيم في فندق رثّ. لهذا تحايلت على سؤاله، وأجبته، بلهجة واثقة، أنني أؤجر شقّة صغيرة، برفقة صديقة لي. وهيّأت نفسي إن سألني عن اسمها، أقول أزرا، وأنها تعمل موظّفة في شركة ما. ثم ارتشفت قهوتي وخفضت رأسي، كما لو أنني أشير له أن يغيّر السؤال. لم يخض كثيرًا في الثّرثرة بخصوص حالي وراح يحدّثني عن نفسه.

- فكّرت أن أُهاجر إلى النّمسا أو إلى ألمانيا. ثم تراجعت عن مخططي وبقيت في هذه المدينة. عملت في مصنع للعجلات المطاطية، يتوافد إليه مُهاجرون، من البوسنة وصربيا وألبانيا. بقيت هناك عامًا. ثمّ وقع تلاسن بيني وبين مسؤولي المُباشر، بعد أن وبّخني أمام العمّال، بسبب سهو منّي عن القيام ببعض المهام التّقنية، واستقلت. عملت بعدها في ورشة نجارة، لكنني لم أستمر فيها أكثر من ثلاثة أشهر. ووجدت نفسي أعمل بائعًا متجوّلاً، أعرض هدايا ولعب أطفال، في الشّتاء، ومثلّجات أو مشروبات باردة في الصّيف.

- تُقيم وحدك؟

- أقيم مع صديقة لي. هي سلوفينية، في سنّ الخمسين. لكنّها لطيفة ومتفهّمة لوضعي.

أعرف هذا النّوع من النّساء «اللطيفات». إنهنّ أشبه بعسس الحدود، أعينهن تتحرّك في كلّ الاتّجاهات، يترصّدن كلّ شاب عابر، وحيد أو ضائع، ليجربن فيه وصفات لم تسمح لهنّ علاقاتهن السّابقة بتجريبها.

- كيف تركتِ الوضع في سراييفو؟

هذه هي الأسئلة التي لا أحبذ الحديث فيها. عن أي وضع وعن أي سراييفو؟ لقد اقتسم فريقان ضفتا ميلياتسكا، ورميا الشّعب، في الوسط، يطفو عاريًا. أخبرني أنه لم يزر البلد منذ أربع سنوات. وهي مدّة كافية لنزع قشرة الحنين، من عقولنا، والدّعس عليها بأرجلنا. هي مدّة كافية لتتغيّر أشياء كثيرة، فسراييفو تشبه حرباء ضجرة، لا تنوّع في ألوانها فقط، بل في آلامها أيضًا. لو كان الأمر بيدي لمحوتها من الخارطة، وحفرت مكانها بحيرة وأرحت النّاس من خذلانها لهم.

- الوضع مستقرّ، لكن لا شيء يُنبئ بخير، كما تعرف.

أجبته بوجه صارم، يميل إلى العبوس، وأخذت رشفة أخرى من فنجان القهوة، وأنا أنظر إلى عينيه الشّاحبتين، وخيّل لي أنه قضى ساعات طويلة، أمام تماثيله المُشّعة، وقادني إلى المقهى، ليس فقط لمُحادثتي، بل أيضًا ليُريح ساقيه.

بدأ المقهى يكتظّ بالزبائن، بالأخصّ من المُراهقين. جلس أمامنا أربعة: فتاتان وشابان. أربعتهم كانوا شُقر الشّعر. من بينهم فتاة بشفتين رقيقتين تُشبهان شفتي آنتشي، راحت تقهقه، وهي تضع يدها على فمها، كي لا تحرج الآخرين بضحكاتها العالية،

وأصدقاؤها الثّلاثة ينظرون إليها ويبتسمون. لم أفهم كلامهم جيّدًا. أظنّهم كانوا يتحدّثون سلوفينية بلهجة مورسكا سوبوتا، المختلطة بالهنغارية. توقّفت المُراهقة ذات الشّفتين الرّقيقتين عن القهقهة، وضعت راحة يدها اليسرى على خدّها، وأخذت تتحادث مع أصدقائها بصوت منخفض. استغللت عودة الهدوء للمقهى، الذي لا يُشبه مقهى تريغلاو، المُزيّنة حيطانه الباردة بصور صامتة ملوّنة، لأنهار وبحيرات وشواطئ، وسألت أمير:

- هل تلتقي ساشا شقيقي؟

لم أشأ أن أسأله إن كان يعرف أين يسكن أو أي الأمكنة يرتادها، كي لا أُثير فضوله. لم أودّ أن يعلم أن لا معلومات لي عنه، وأن خيط الوصل بيننا قد انقطع.

- لم ألتق به منذ مدّة طويلة.

أجابني بكلمات جافّة كما لو كان غير مهتمّ بسؤالي. ثم أردف:

- آخر مرّة، التقيته في ميتيلكوفا، حيث يُقيم.

ميتيلكوفا؟!.. لم يسبق لي أن ذهبت إلى ذلك الحيّ، الذي لا يبعد سوى دقائق معدودات عن وسط المدينة. سمعت عنه في سراييفو. يُقال إنه يشبه بوغوتا أو الفافيلا والأحياء العشوائية. تنشط فيه تجارة الممنوعات، وآخرون يقولون إنه ملجأ آمن للمثليين والسّحاقيات. أنا أسكن ليوبليانا وأعرف تقريبًا كلّ أحيائها وساحاتها، لكن لم أفكر يومًا في زيارة ميتيلكوفا. هل يعقل أن أخي صار تاجر مخدرات؟ أم مدمنًا عليها؟ أم صار مثليًا دون أن أعلم؟

أعرف أنّه يدخّن، لكن لا أذكر أنه أدمن على مخدرات. وجمعته علاقات طبيعية مع بعض فتيات سراييفو، في المدرسة أو في الشّارع،

أو حين عمل بائعًا في محل عطور في باشتشارشيا. ذلك المحل يُشبه نقطة نور على وجه المدينة المتورّم، فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، جاء رجل مسنّ، من فيينا، وافتتح محلاً للعطور، في مدينة تفوح منها رائحة الموت. وظّف شقيقي بائعًا عنده، وأغلب زبائنه من النّساء، لكنه لم يستمرّ أكثر من بضعة أشهر. فساشا يملّ سريعًا. كان بقامته الطّويلة، وعينيه الزّرقاوين وابتسامته البهيّة، جذابًا ومثيرًا للإعجاب. حصل مرّة أن خاصمني، لأيّام، بسبب انزعاجي من واحدة من علاقاته. علمت من أمّي، في العام الذي غادر فيه سراييفو، أنّه ارتبط بفتاة أعرفها. درست معي عامًا واحدًا، في الأكاديمية، ثم تخلّت عن شغفها بالمسرح، وعملت إدارية في مكتب محاماة. كانت نحيفة بثديين عظيمين، تصرّ على نفخهما كما تُنفخ العجلات المطاطية، تستفز أعين الرّجال بمكياجها القاتم وملابسها الضّيقة. عُرفت عليها تصرفاتها الوضيعة، وتشعّب علاقاتها الحميمة.

- إيرما لا تصلح لك.
- لماذا؟
- إنها امرأة لعوب.
- لا يهمّني.

استفزّتني برودة دمه، فصرخت في وجهه:

- إنها عاهرة.

استاء منّي وشتمني وهدّدني بضربي، إن أضفت شيئًا آخر مُسيئًا عنها. لكنني كنت محقّة في كلامي، لم تستقر علاقته بها أكثر من بضعة أسابيع. افترقا وانتصرت عليه، ورغبت في صفعه، كي أذكره في نصيحتي له.

دوّن لي أمير رقم هاتفه المنزلي، لأتّصل به إن احتجت إليه. أمسكت القصاصة من يده، وخبأتها في حقيبة يدي، وأنا على دراية بأنني لن أحتاج إليها ولن أتّصل به. أسوأ ما يحصل لبوسني، في بلد أجنبي، هو أن يستعين ببوسني آخر. سيحدّث الآخرين عنّي وتصير حكايتي على كلّ الألسن، وتنتقل، بسهولة، من ليوبليانا إلى سراييفو، وتعود الأشباح القديمة لتسكن رأسي.

قبّلني على وجنتاي، عانقني، أعاد وضع قبعته، على رأسه، وأستأذن بالانصراف وهو يحمل طاولة الألمنيوم المطويّة على كتفه اليمنى، كما حمل المسيح صليبه، وفي يده اليسرى يحمل حقيبته، للعودة إلى الجسر الذي التقيته فيه ومواصلة بيع سلعته. دفع الحساب، وهو يترجّاني أن أتّصل به، لنلتقي ونشرب قهوة، مرّة أخرى.

بينما أنا أسير إلى محطة الحافلات، لمحت شخصًا أكاد أعرفه، يمشي أمامي، يرتدي سترة جلد سوداء. كان ابن أخ صاحب المقهى: أحمد أو أمد. لا أعرف كيف أنطق اسمه. أتعمّد مناداته «غوسبودين» (السّيد) تجنّبًا للحرج، فقد لاحظت أنه يفهم لغتي، وأخبرني، مرّة، أنه قضى أشهرًا في سراييفو، ويعرفها أكثر مما يعرف ليوبليانا.

أسرعت الخطى للحاق بالشّاب أمامي.

– سليم!

التفت إليّ، ولفت نظري أنفه المحمرّ من البرد.

– إيفانا... كيف حالك؟

خاطبني بإنجليزية سلسة وفصيحة.

– بخير وأنت؟

– أتمشّى قليلاً. وأنت؟

- سأستقلّ الحافلة وأذهب إلى مقهى تريغلاو.
- هل يمكن أن أعزمك على شرب شاي أو عصير؟
- شكرًا. في المرّة القادمة.

بدا لي كتومًا ومنغلقًا على نفسه مثل قطّ غريب. عمّه قال أنّه جاء في زيارة عائلية، وأنا أشكّ في الأمر، ربما جاء ليجرّب حظّه في العثور على عمل أو في إيجاد امرأة تسهّل له الحصول على وثائق الإقامة. لكن هذا ليس شأني، فهو شاب لطيف، والأهمّ من ذلك أنه يتكلّم الإنجليزية، وقد يُساعدني في إتمام كتابة المسرحية.

ودّعته، وركبت الحافلة باتّجاه المقهى، حيث كان عمّه في انتظاري، ليطوّقني، مثل ثعبان أخرص، ويُذكّرني في أسوأ أيّامي، في سراييفو.

# قرية الملائكة

كلّما أصبحت، تخيّلت أحداثًا وقعت، وفاتتني مُتابعتها. أتــوهّم أشلاءً مرميّة في عرض الطرقات، أو تحت الحيطان، وأحيــك أســوأ السّيناريوهات التي قد تحصل، في الجزائر، في غيابــي. فالحكايــات الموجعة، التي سمعتها، في أشهر ماضية، ما تزال تزدحم في واحد مــن أركان رأسي، وتُلاحقني أخيلتها، لكن سي أحمد لا يحسّ بما أنا فيه، يكاد يقطع علاقته بأرض المولد، ولن ينفعني بشيء أن أسأله عما سمع في الرّاديو من أخبار. ومكالماتي مع فاروق أو مليكة، لا تعدو أكثــر من أحاديث موجزة، لا تخرج عن أسئلة مكرّرة عن الوضع العــام، وعن إجابات لهم بأنهم يتمنّون أن تنطفئ «الجمرة»، مع تطميني لهم عن حالي، بينما الصّحف السلوفينية، التي تغطي افتتاحيات بعض منها صور لاعبــي الكرة، مثلما هو الحال عندنا، لا تهتمّ بنقل شيء مــن الوضع المتردي الذي نغرق فيه.

بالصّدفة، وأنا أحدّق في افتتاحيات جرائد، مرصوصة على عتبة كشك، يُحاذي مبنى البريد، قادتني قدماي إلى مكتبة، يُنيرها ضــوء خافت، في الدّاخل، ووجدت واحدة من روايات مُــراد بورغــدة، مترجمة إلى السلوفينية. قرأت اسم المؤلف، وابتسمت. لكنني لم أفهم العنوان. سألت البائعة، التي تدلّى حلق من أنفها، لكنها لم تكن تفهم الإنجليزية. دفعت ثمنها، وذهبت، مزهوًا بما اشتريت، إلى تريغلاو.

حييت عمّي، برفع يدي، وردّ عليّ بتحريك رأسه من الأعلى للأسفل. جلست إلى طاولة، في شرفة المقهى، ووضعت رواية بورغدة أمامي، ثم أقبلت إيفانا، بخصرها المهتزّ وعيناها اللامعتان.

– تشرب شيئًا سليم؟

– قهوة، من فضلك.

القهوة، في هذا البلد، أفضل بكثير من تلك التي تعوّدت عليها، في الجزائر، وكنت أترك نصفها في «مقهى الأحباب» وانصرف مستاءً، من طعمها المرّ. القهوة في الجزائر مثل الحزب الواحد، نتعاطاها دون أن نحبّها، أما هنا فهي خيار ديمقراطي، نتشارك فيها ولا تخذلنا.

أظنّ أن مليكة هي الشّخص الوحيد، الذي يعرف شكل القهوة التي أحبّها. كانت تصل أنفي رائحة القهوة، من مطبخها، قبل أن يصلني الفنجان، كما لو أنها تستفز حواسي كلّها قبل أن تصل إلى لساني. تحضّرها بالهيل والزّعفران، في جزوة نحاسية، مع ملعقة صغيرة من السّكر، وتصرّ على تقديمها لي في الفنجان نفسه؛ أبيض من فخّار، كُتب على واحدة من حواشيه الحرف الأول من اسمها. كلّما أخذت رشفة، تذكّرتها. مليكة كانت فطنة، وأمسكت بعلاقتنا، من البداية، بيدين خشنتين. أدركت عاداتي، وعرفت كيف تستدرجني إليها.

– من سيحضّر لك قهوة في سلوفينيا؟

سألتني بنبرة صارمة، وأشاحت بنظرها عنّي. فقد كانت غير متحمّسة لسفري. «سأسافر لأشتاق إليك»، أخبرتها حين نويت السّفر. فرحت حين فشلت في الحصول، على فيزا، في المرّة الأولى، ثم

استاء مزاجها حين حصلت عليها وعرفت أنني سأغيب عنها ثلاثة أشهر كاملة.

- لن أجد مليكة ثانية هناك وسأكتفي بالجلوس في المقاهي.

مقهى سي أحمد لم يكن مخيّبًا، قهوته مقبولة، لكنني لم أجد فيها رائحة مليكة.

- ومن سيطبخ لك الإفطار في رمضان؟
- لا أعرف.
- لن تجد نكهة رمضان في البلاد التي ستذهب إليها. عندما تعود، تصدّق على المساكين.

حين أعلمتها عن اقتراب موعد السّفر، حاولت أن تداري امتعاضها. فهمَت أن الأمر يتعلّق بزيارة شخص عزيز على قلبي، لم أره منذ سنوات. ثمّ أنني أحتاج إلى راحة بعد غلق الجريدة. صمتت، برهة، ضغطت بأسنانها العلوية على شفتها السّفلى، ونطقت:

- يُقال إن نساء ذلك البلد حسناوات.

أرادت أن أطمئنها وأخبرها بأنها زيارة عائلية لا أكثر، وأنني سأعود إليها، لنواصل ما بدأناه.

- لا أفكّر في واحدة أخرى غيرك.

قبل مليكة، لم أرتبط، فعليًا، بفتاة، عدا بعض المغامرات البريئة والقصيرة في الثّانوية والجامعة؛ صبرينة، التي رحلت مع أهلها، إلى بجاية وانقطعت علاقتي بها، ليندة التي ملّت من وجهي الأمرد، كما صارحتني، وارتبطت برجل يكبرها بتسع سنوات، وحكيمة، التي استعجلتني لأطلب يدها من والديها، ثم هجرتني بمجرد أن وجدت

رجلاً آخر يحقّق لها مُرادها. كنت خجولاً، أتجنّب معاكسة الفتيات، وأعتقد أن الحاجّ، هو من سبب لي ذلك. كانت تربيته لي أنا وفاروق صارمة. لا يتوانى عن توبيخنا لأبسط الأخطاء، ويعنّفنا أمام أعين أمّي، التي لم تكن تستطع فعل شيء للدّفاع عنا. «كلب... بغل... رأس البعير»، كان ينعتني كلّما غضب. وخوفي منه ومن زجره ولّد عندي خجلاً مرضيًا. ومنذ أن عرفت مليكة، بدأت أشفى من عُقدي، وندمت أنني لم أخض تجاربَ عاشقة مثل أقراني. حرّرتني علاقتي بها من ارتيابي وعدم ثقتي بنفسي، وهبتني جناحين لأحلّق، وصرت أكثر جرأة في التّقرّب من النّساء، ومُحادثتهن. لكنني لم أفكّر قطّ في هجرها، أو التّلاعب بمشاعرها.

في آخر زيارة لي إلى شقّتها، قبل أن أُسافر، سألتني إن كنت أودّ أخذ شيء كتذكار منها، أستأنس به كلّما اشتقت إليها. اقترحت عليّ قرطًا، من فضّة، كان يتدلّى على شحمة أذنها، أو قلادة ذهبية، لا تضعها سوى في المناسبات المهمّة. لكنني امتنعت عن هذين الخيارين. وأخذت منها ما تبقى في قارورة عطرها الفرنسي الفوّاح، الذي ارتبط في ذهني، بصورتها، منذ أوّل لقاء بيننا، في المركز الثّقافي، وأهديتها خاتمًا.

عادت إيفانا، تحمل لي كوب إسبريسو.

- إيزفوليتا (تفضّل).
- هْفالا (شكرًا).
- صرت تتكلّم سلوفينية!

قالتها ضاحكة، بانفعال ذكّرني بضحكات مليكة. لكن سرعان ما عُدت لمحادثتها بالإنجليزية:

- هي بضع كلمات تعلّمتها من قاموس لا أكثر.

أخبرتني أن عنوان الرّواية معناه «قريـــة الملائكـــة». أعـــرف تفصيلات تلك الرواية، التي صدرت قبل عشرين عامًا. سبق أن قرأتها وتحدّثت عنها طويلا مع فتحي. تحكي عن رفات، عُثر عليـــه عـــام الاستقلال، وطاف عناصر من جيش التّحرير بين القرى، بحثًا عـــن هوية صاحبه. وعندما عجزوا عن التّعرّف على الميت، خمّنـــوا أنّهـــا رفات مُجاهد مجهول وقاموا بدفنها أعلى ربوة، في قرية لا يعرفها إلا الله. ثم سرت شائعة أن شيخًا، من القرية ذاتها، زاره ملاك في المنام، وأخبره أن الرّفات لدرويش، جاءِ من مكان بعيد، ليحمي القرية من الاستعمار ومن السلّ، فقاموا باستخراجها من حفرتها وأعادوا دفنها وسط القرية، وشيّدوا لها مزارًا، يحجّ إليه النّـــاس، إيمانًـــا منـــهم أن الملائكة تحرس المكان. يتضرّعون إليها ولـــيس لصـــاحب المـــزار، ويسألونها مساعدتهم في قضاء حاجاتهم اليومية، واحد منهم يتسوّلهم مضاجعة زوجته، في السرّ، لأنه عاقر، ويُريد إنجاب طفـــل، وآخـــر يسألهم أن يزيدوا في عدد ماشيته، كي يقدر على دفع مهر البكـــر، التي أراد ضمّها لزوجاته الثلاث الأخريات. رواية ساحرة، تتكلّم عن أساطير وخرافات النّاس، عن اتّكالهم على ملائكة، تنزل من السّماء، لتقوم بمهامهم اليوميّة، نيّابة عنهم.

أحببت أن أخبر إيفانا أن صاحب الرّواية صـــديق لي. لـــيس صديقًا حميمًا، لكنه من معارفي. كنت أزور مُراد بورغدة في شـــقّته، بجوار ساحة أوّل ماي، أقضي ساعات أثرثر معه، وأترجم مقالاتـــه، من الفرنسيّة إلى العربية، التي يفهمها ويعجز عن الكتابة بها، لنشرها في الجريدة، التي عملت فيها، قبل أن يهجـــر المدينـــة، إلى قريـــة في

الصّحراء، خوفًا على حياته، وتجنبًا للتّهديدات، لكنني تصوّرت أن هذا الأمر لن يُثير اهتمامها.

- أنت صحافي؟

سألتني كما لو أنها صارت مهتمّة بحالي. ففي الأيام الأولى، لم تتجاوز علاقتنا بضع كلمات، وكثيرًا ما تجنّبت مُحادثتها، كي لا أشغلها عن عملها، وانهماكها في خدمة الزّبائن.

- نعم.

أجبتها باسمًا، وأنا أحدّق إلى مجرى نهديها، وخمّنت لو أنّها قصّرت شعرها ستصير أشبه بالمغنية باربارا.

عمّي أخبرني، مرّة، أنها بوسنية، وأنه راضٍ عن عملها وانضباطها. فقد جرّب قبلها نادلاً بوسنيًا آخر، لكنه سرحه، بسبب عدم التزامه بمواعيد العمل وتكرار سرقاته الصّغيرة من صندوق المقهى.

- شاهدت في التّلفاز أن الوضع في الجزائر ليس بخير.

هي شاهدت وسمعت في التّلفاز فقط، وأنا شاهدت بعيني رؤوسًا مقطوعة وجثثًا مرميّة على أرصفة وطرقات. شاهدت رأس فتاة، في العشرينات، معلّقًا على عمود كهربائي، كتحذير للفتيات الأخريات بعدم الخروج من بيوتهن دون حجاب. شاهدت دموع الثّكالى وصمت الأيتام.

- فعلاً. لكن نتمنّى أن تعود الأمور إلى طبيعتها.

قلتها بنبرة ذابلة، كما لو أنني أكلّم صديقًا وليس شابة جميلة، أنوي مُغازلتها.

- لِم لا تفكّر في البقاء في سلوفينيا؟ فالبلد سيلتحق بالاتّحاد الأوروبي، ووضعه سيتحسّن في المستقبل.

أراحت مؤخرتها على طرف طاولة قُبالتي، ثم عقدت ذراعيها. كان المقهى، في ذلك الوقت، من منتصف النّهار، شبه خالٍ من الزّبائن، فهم يصلون جماعات، بعد أن يكملوا غداءهم أو ينتهوا من دوامهم. لم أردّ على فكرتها، وحوّلت الحديث إلى السّياسة، وعن الأوضاع المترديّة هنا وهناك، عن تدني أسعار البترول، وعن الحرب التي دارت في بلدها، قبل سنوات.

- لمّا بدأت الحرب في البوسنة، كنّا نجمع مساعدات من أغذية وألبسة، ونرسلها مع مؤسسات خيرية إلى سراييفو.

اعتقدت أنني سوف أظهر في صورة رجل طيّب حين نطقت بذلك الكلام، لكنها علّقت بتأفّف:

- المساعدات كانت تصل المحظوظين، وليس المُحتاجين إليها.

هل كانت من المُحتاجين، الذين سُلب منهم حقّهم؟ بعد هذا الردّ منها، حاولت تلطيف الجوّ، كي لا أتورط في مآزق كلامية، لا تليق في دردشة بيني وبين شابة تضجّ بالحياة، بعينين لامعتين ولا أجمل.

- ماذا تفعلين خارج العمل؟
- أنا مؤلفة مسرحية. أكتب حاليًا مسرحية، وأتمنّى أن أجد فرصة لنقلها إلى الرّكح.
- لدي صديق في الجزائر، يكتب في المسرح مثلك.

أعجبتها هذه المصادفة وفتحت ثغرها بابتسامة ساطعة ومحفزّة لأبادلها ابتسامة تُشبهها.

- إذا أردت، أقرأ لك، في المرّة القادمة، بعضًا من النصّ الذي أكتبه.

المسرح ليس من تخصّصي، مع ذلك، أملك بعض المعرفة عنه، ويمكنني أن أخوض معها، وأقلّل من الضّجر الذي يسكنني. لكن، في تلك اللحظة، بينما نحن نقترب من بعضنا بعضًا، وأحرّك بصري إلى بطنها، وأتخيّل المغارة التي تخفيها في الأسفل، ظهر سي أحمد، كعسّاس متبرّم، يجرجر رجله العرجاء، على عتبة باب المقهى. ناداها، فانسحبت مُهرولة، دون أن تستأذنني.

قطع عمّي كلامي معها، وشاهدهما ينزويان في الدّاخل، قرب صندوق الحساب، يوشوشان، كما لو أنهما يتناقشان بشأن أمر مهم. أكملت قهوتي، نهضت من مكاني وودعتهما دون أن يردّا عليّ، أو ينظرا إليّ، وتوجّهت إلى المطعم التّركي، لأكل بوراك ومغازلة النّادلة لوتْسيا، التي تتسلّى بكلماتي ولا تُبالي بها، وفي مخيّلتي صورة إيفانا مبتسمة، وأنا أتساءل، في قلبي، كم ضحيّة سقطت، في الجزائر العاصمة، وكم سيّارة مفخّخة انفجرت بينما كنت أحدّق في مفاتنها وأُبلّل سروالي الدّاخلي؟

# دعوة إلى حفلة

هل كُتب على البوسنيين أن يعيشوا تحت رحمة الآخرين؟ مجرد وجودهم في التّاريخ جعل منهم ضحايا. لقد امتطى ظهورنا الجميع، مصّوا دماءنا، وتركونا وحيدين. وحين لم نجد من يغزونا، رُحنا نقتل بعضنا بعضًا، بنشوة سكير يحتسي كأسًا أخيرة. اعتلانا القوطيون، وجاء بعدهم الهنغاريون، تلاهم العثمانيون، وأسموا البلد «سنجاق البوسنة»، ثم وقعنا في حِجر الإمبراطورية النّمساوية المجرية، واختطفتنا بعدها «مملكة الصّرب، الكروات والسّلوفيون». لا أعرف لماذا لم يضيفوا البوسنة في تسميتها. كلّ غازٍ حمل معه قاموسًا لغويًا، حقن به لسان أهل البلد. وصل النّازيون، ومعهم الفاشيّون، في الحرب العالمية الثّانية، ثم تحولت المملكة إلى فيدرالية، باسم: يوغسلافيا. وصرنا كلّنا، لأربعة عقود، إخوة. وفي الأخير استعدنا اسمنا الأوّل: بوسنيون. غيّرنا شعارنا، من «وحدة وأخوّة» إلى «تفرقة وعداوة» وسقطنا في فظائع الحرب مرّة أخرى؛ هلك فيها من هلك، وتشرّد من تشرّد، وأنا هاجرت، غربًا، مثل مئات الآلاف من الآخرين، لأجدني ضحيّة، لهذا العربي اللئيم. ففي اليوم الذي التقيت فيه بأمير، وبعدما أتممت تنظيف أرضية المقهى وترتيب الكراسي، في التّاسعة والرّبع ليلاً، وأتمّ هو عدّ الحساب، شرع في مونولوغ عن ماضيه في الجزائر، عن مصنع أحذية أنشأه ثم باعه، وعن علاقته

المُضطربة مع زوجته، التي يظنّ أنها تخونه مع ضـــابط في الشّـــرطة. «تفضّل رجلاً أقل سنًّا منّي»، قال. ثمّ سرعان ما راح يتفوّه بكـــلام لُمغازلتي، ومدح جمالي. أحسست أنه يكذب، لم يسبق لي أن آمنـــت بأنني امرأة جميلة. قرص مؤخّرتي، وطوّق خصري بذراعيـــه، وأنـــا صامتة، أحاول إبعاده عني وهو يُحمحم ويُكرّر إعجابه بـــي، بلكنة سراييفو الصّافية.

في اليوم الموالي من تلك الليلة، التي تنازلت فيها عن جســـدي لصاحب المقهى الوقح، الذي انتصب عضوه كرأس عصفور فـــزع، وأنا أتوسّل إليه «أتركني»، دون أن يُبالي، وعجز على قذف قطـــرة واحدة منه، كما لو أن بئره جفّ، دخلت مطعمًا تركيًا صغيرًا، قرب محطة الحافلات، واستقبلتني نادلة نحيفة. ممشوقة القدّ، وتمشي بثقة في النّفس. ولا أنكر أنني غرت منها. سألتني إن كنـــت أُريـــد طاولـــة لشخص واحد أو أكثر، فأخبرتها أنني جئت لقراءة طـــالعي. فقـــد حدّثتني أزرا عن «فراتشارا» بوسنية مُسلمة تقرأ الفنجان، وتحقّقـــت كثيرا من رؤاها في حياة صديقتي. أشارت عليّ النّادلة، أن أتوغّل إلى عمق المطعم، وفي زاوية منه لمحت قارئة الفنجان الثّمانينيـــة، تجلـــس وهي تلفّ رأسها بوشاح أزرق. حييتها، وجلســـت علـــى الأرض، متّكئة على الحائط مثلها. عادت النّادلة وهي تحمل فنجـــان قهـــوة. تجرّعت ما فيه، وسلّمته لها. ظلّت تنظـــر إليّ في صـــمت. قلبـــت الفنجان، على صحن من فخّار كي يسيل منه ما تبقى من القهـــوة، ثم رفعته. حدّقت بداخله وحدّثتني:

– أرى تفاحة مقضومة، هذا يعني أن مشـــكلاً في انتظـــارك. احذري من المقرّبين منك. وفأس ما يعني أنك ســـتتّخذين

قرارًا مهمًا في حياتك. وسهم يتّجه نحو الأعلى مما يعني أنك ستعيشين حدثًا سعيدًا.

رأت خبرًا سعيدًا، وآخر سيئا في انتظاري، وثالثًا بينهما. أحببت أن أخبرها أنني لا أنتظر مشاكل جديدة، فأنا أعيشها كلّ يوم، والقرارات المهمّة في حياتي كانت في الغالب غير موفّقة، ولا حدث مهمّ ينفض عنّي كآبتي أكثر من إيجاد رجل يُحبّني، يعطف عليّ ويخفّف من ثقل تشاؤمي. دسست بضع تولارات في يدها، وهممت أدفع ثمن فنجان القهوة للنّادلة. «هل معك فكّة؟»، سألتني. «أعطيك فكّة لو أخبرتني عن اسمك أولاً؟»، ابتسمت لها، كي لا تشعر بغيرتي من جسدها. أعلمتني أن اسمها لوتْسيا، وتطلّعت في نحافتها، التي زادتها بهاءً، عكس جسدي المُترهل، الذي كلّما نظرت إليه في المرآة زدت تنكرًا لنفسي.

في المساء ذاته، بينما أنا ممدّدة في سريري، سمعت طرقًا خفيفًا. فتحت باب غرفتي، المكتظّة بالوَحشة، ووجدت لورينا أو لوري الشّقراء تقف أمامي، بقامتها الفارعة وعينيها الزّرقاوين. منحتها بُرهة قصيرة، لتنظر في عيني الجاحظتين ووجهي العابس، وتفكّر في التّراجع أو في تقديم عذر مقنع، يبرّر طرقها لبابي.

- مساء الخير إيفانا.
- ...
- لدي ثلاث دعوات إلى حفلة «لايباخ». هل تودّين الذّهاب معي؟

فاجأني أنها فكّرت في دعوتي، وهي تعلم نفوري منها. خمّنت أنها تضمر أمرًا من تصرفها ذلك، وأنها تودّ دعوتي ومُصالحتي بغية

قضاء مصلحة ما. لكن ما مصلحتها منّي؟ توّجست منها واعتــذرت لها، رغم إلحاحها.

- أنا عازفة غيثار كهربائي، وسبق لي أن عملت مع الفرقــة. أعرف أعضاءها، وسأعرّفك بهم.

حاولت أن تظهر في ثوب المرأة الفنّانة، وحدّثتني عن علاقاتهـا بالأوساط الموسيقية، وأنها رافقت بعض فرق الرّوك وفرق موســيقى الميتال، وكانت مؤهّلة لترسم مسارًا محترفًا في حياتها، لــولا الحــظّ الذي أراد عكس ما خطّطت له ومنعها من بلوغ غايتها. فجدّدت لها أسفي، وعدم قدرتي على الحضور، من جــراء ارتباطــات العمــل. رددت لها ابتسامتها، أغلقت الباب وانسحبت إلى الدّاخل. أخــذت حمامًا باردًا على عجل، تمدّدت على ظهري، ورفعت ساقاي علــى الحائط، لإراحتهما، وأنا أفكّر فيما قالته لي لورينا.

تعرّفت على «لايباخ» في سراييفو، مع تانيا، وأحببت سمــاع أغنيّة: «الحياة هي أن تعيش». ترسّخ اسمها، في ذهني، بعد انتحــار مغني الفرقة، وأنا مُراهقة في الخامسة عشرة أو السّادسة عشرة. قرأت خبرًا يقول إنه انتحر بواسطة حبل عُلّق على سارية خشبية، تستخدم في تجفيف التّبن. وبقينا نستمع لموسيقى تلك الفرقة، ونهــتمّ أكثــر بترصد أخبارها وفضائحها، فقد أقاموا، مرّة، حفــلا في زغــرب، وعرضوا على شاشة صورة تيتو مع قضيب، ممــا أدى إلى تــدخّل الشّرطة وطرد أعضائها ومنعهم من إتمام الغناء. ما يشدّني أكثــر إلى «لايباخ» أنّها فرقة سياسية أكثر منها غنائية، معنيّة بمناقشة الــرّاهن أكثر من تسليّة النّاس، على خلاف فرقة «زابرانيينــو بوشــني»، في سراييفو، النّاعمة، المُهادنة والمتواطئة مع الوضع العامّ حدّ الملل.

في الصّباح، وجدت على عتبة الباب ظرفًا، بداخله بطاقة الدّعوة التي رفضت استلامها. فهمت أن تلك اللّعينة تصرّ على التودّد إليّ، وأومن بأنها تُخبّئ لي أمورًا غير بريئة، ومن صالحي أن أبتعد عنها وأنصب حاجزًا بيننا. فكّرت أن أترك الظّرف على الطّاولة، في الدّاخل، ثم غيّرت رأيي. وضعته في حقيبة يدي، على أمل أن أجدها عند مخرج الفندق، وأعيده إليها وأطلب منها أن تبتعد عنّي. لم أعثر عليها، فهي لا تستيقظ باكرًا. تجاهلت أمرها واتّجهت إلى المقهى. وفي الطّريق، لمعت صورة ساشا في رأسي، وزاد إحباطي، فأنا لم أمسك بخيط واحد يقودوني إليه. ذهبت، قبل أيّام، إلى حيّ ميتيلكوفا، معتقدة أنني سألاقيه هناك، وعدت منه خائبة. وجدته حيًّا شاحبًا، تتوزّع فيه عناقيد من شباب، غريبي الأطوار، بألبستهم المزركشة الفضفاضة وشعورهم الطّويلة، ذكّروني بالهيبيز. وددت التّقرّب منهم وسؤالهم إن كانوا يعرفون ساشا يوليتش، لكنني تردّدت. كانوا غير منتبهين للمارّة، وغير مبالين بوجودي. ولفت نظري حيطان الحيّ الملطّخة برسومات غرافيتي، وعلى جوانب الحيّ انتصبت منحوتات، لأشكال بشرية وأخرى حيوانية، من حديد وخشب. قلت في نفسي قد يكون أمير أحالني لهذا المكان بالخطأ، فهو حيّ لا يُشبه مزاجات ساشا ولا طقوسه. شقيقي له شخصية مُسالمة، ليس من ذوي النّزعة العدوانية ولا ميول له لأوساط الأندرغراوند، وكان صاحب حظّ أيضًا لأنه أُعفيّ من الخدمة العسكرية، بسبب قصر رجله اليسرى، التي تختلف عن نظيرتها باثنين سنتيمتر، مما يُلزم عليه أن يلبس دائمًا زوج أحذية بنعلين مختلفين، النّعل الأيسر أثخن من الأيمن، كي لا يظهر بمشية مترنّحة. هكذا نجا

من الجيش ومن الحرب، كما نجا من مكائد نساء سراييفو أيضًا، لكنني لا أعرف أين يختفي. هل ابتلعه وحل هذه المدينة، المُدمنة على مجافاة الغرباء؟

هذه المدينة لا تُشبه سوى شاعرها فرنسي بريشرن. لهذا نصبت له تمثالاً في وسطها، كما لو أنه قضيب يرتفع إلى السّحاب. فبريشرن أحبّ يوليا، لكنه ارتبط بآنا، كتب عن يوليا، لكنه أنجب من آنا. كان يفكّر في يوليا ويُضاجع آنا، التي سئمت من خياناته لها، فأحبّت رجلاً آخر، وبدل أن يهجرها، جبن وعاد إليها، وهو يمنّي نفسه أن يجد طريقًا إلى قلب يوليا، التي خطفها منه رجل أغنى منه، فحاد قلبه عن الطّريق، ارتفع ضغط دمه، هزل، تحوّل إلى شبح، ومات بتليف كبدي. وليوبليانا لا تختلف عنه، هي تحبّ من يهجرها، وتخون من يحبّها.

حين وصل سليم، وجلس كعادته في شرفة المقهى، ذهبت إليه لأقدّم له كوب إسبريسو، وركّزت، لأوّل مرّة، في ملامحه. ذكّرني وجهه بأولئك العرب، الذين كانوا يأتون إلى الفندق، الذي عملت فيه، بسراييفو. له أذنان عريضتان، يُحاول إخفاءهما بإطالة شعره قليلاً، وتسريحه إلى الخلف، وعينان لامعتان ووجه مستطيل، يُشبه قليلاً صاحب المقهى.

– هل تحبّ الإندستريال روك؟

– ليس كثيرًا. أفضل سماع موسيقى هادئة.

أعجبني جوابه، تبدو لي شخصيته رزينة ومتأمّلة.

– لو تستمع لفرقة «لايباخ» قد تغيّر رأيك.

حكّ أنفه وحرّك رأسه، من الأعلى للأسفل، وبعد برهة سمعته يقول بصوت خافض: «ربما، مع أنني لا أعرفها». فهو لم يسمع عنها

من قبل، لكن لن يخسر شيئًا أن يجرب اكتشافها.

- هذه دعوة لحضور حفلة الفرقة. العنوان والتّوقيت على ظهر البطاقة.

قدّمتها له وأنا مفتخرة بما أفعل. تسلمها من يدي، وراح يطّلع عما كُتب عليها، باهتمام. لكنه لم يفهم الجملة التّعريفية، التي كتبت، عن الفرقة، بالسلوفينية، ولحسن الحظّ أن مكان ووقت الحفل كُتبا بالإنجليزية.

- وأنت، هل ستحضرين؟
- لا أستطيع. سأنتظر رأيك فيها.

شعرت أنني سجلّت نقطة لصالحي. وأنني أوثقت ربطه بحبل يقوده إليّ.

# لايباخ

أخبرني فاروق، في الهاتف، أن الحاجّ بات لا يفرّق بين الليـــل والنّهار. بلغ به الأمر أن نسي حفيده، وظنّ أنه من أبناء الجـــيران. لم أجد كلمات للردّ عليه، وتبكّمت. ضغطت بقواطعي العلوية علـــى شفتي السّفلى وشعرت بأطرافي ترتجف. أخذ يسألني عن حالي وحال عمّي، وأنا أُجيب، من غير تركيز: «بخير، بخير». أنهيـــت المكالمـــة، أعدت السّماعة إلى مكانها، بحركة رعناء، تنهّدت ودفعت الفـــاتورة لموظّفة البريد، التي حدّقت إليّ بفضول واستغراب، وخرجت أجرجر قدماي، في شارع سلوفانسكا، الموازي لنهر ليوبليانيتسا.

حين أدركت أن أبـــي ضاع منّي، شـــعرت بقـــرب منـــه. واشتدّت رغبتي في الحديث معه. ذاكرتي مليئة بثقوب صغيرة، قـــد تنزلق إليها أشياء، وأستعيدها كلّما احتجت إليها، أمّا ذاكرة الحـــاجّ فقد اتّسعت إلى ثقب واحد، دفن فيه كلّ شيء، واستراح. انسحب إلى وحدته ونسي من يكون. أبـــي حيّ لكنه يعيش في عالم آخر، لا أستطيع الوصول إليه. لقد افترقنا دون وداع. أطياف موت أمّي مـــا تزال تزورني في منامي، وقد تلتحق بها أطياف أخرى، لـــو أغمـــض الحاجّ عينيه وغادرنا.

لـــمّا ماتت أمّي، لم أبكِ في اليوم الأوّل، ولا في اليوم الثّـــاني، انتظرت اليوم الثّالث، حين غادر المعزّون بيتنـــا، لأغـــرق في بكـــاء

صامت مرير. فكّي السّفلي كان يرتجف، مع شهقات تصعد من بطني، واستمرت كذلك عدّة أيّام.

عندما أخبر الطّبيب أبي أن حالتها قد ساءت، ولن ينفع معها العلاج، حملها في سيارته إلى البيت، ومدّدها على سريرها، وهي تستغيث أولياء الله الصّالحين: «يا سيدي عبد القادر»، «يا سيدي عبد الرحمن»، «يا سيدي ثامر». بشرتها الفاتحة استحالت إلى الأسود. عيناها تلوّنتا بالأصفر. هزل جسمها، وصارت لا تقدر على مضغ أو ابتلاع أي أكل، لا الخبز ولا الفاكهة. ولم تمضِ أيّام حتى تلعثم لسانها ولم تعد قادرة على الكلام، مكتفيّة بإشارات من رموشها. وجارتنا زينب، التي من كثرة زياراتها لنا، صرت أُناديها خالتي وأنادي زوجها بلقاسم «عمّو» وأُعامل أبناءها الأربعة، الذين يصغرونني سنًّا كإخوة لي، تُجالسها طوال النّهار. تغيّر أغطيّة سريرها، وتُساعدها في النّهوض إلى بيت الخلاء، ولا تُفارقها سوى مساء.

في فجر ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمّي، أيقظني الحاجّ من النّوم، وهو يربت على كتفي. أخبرني بالنّبأ، الذي كنت أتوقّع حدوثه، وشاهدت عينيه الدّامعتين. لقد فقد المرأة التي تحمّلته وتحمّلها أكثر من ثلاثين عامًا. ارتفع صوت القرآن، من غرفة والداي، حيث كانت ترقد جثّة أمّي، وطلب منّي أن أتّصل بخالاتي الثّلاث، وأخبرهن بالأمر. كيف أتّصل بثلاث نساء وأخبرهن أن أختهن الكبرى قد توفّيت؟ اتّصلت بخالتي سعدية، التي أشعر بقرب منها أكثر من خالَتَيّ الأخريين. ردّ عليّ زوجها الميلود، وطلبت منه أن يوقظها، لأحدّثها في أمر يخصّها. وبعد لحظات، جاءني صوتها، خافتًا، كما لو

أنها فهمت سبب اتّصالي. «مّا ماتت»، واجتاحتني رغبة في البكـــاء، كبتها. صمتت قليلاً، سمعت زفيرها في الهاتف، ثم سألتني عن موعـــد الجنازة. «بعد الظّهر». كان من الصّعب عليها أن تقطـــع المســـافة البعيدة من بوسعادة إلى الجزائر العاصمة، في وقت قصير. قالت أنهـــا ستغيب عن الدّفن، لكنها ستصل مساءً، مع زوجها وخالتيّ الاثنـــتين الأخريين، وخلّصتني من مشقّة الاتّصال بهن. مع طلوع النّهار، وصل إمام الحيّ، إلى البيت، مع زوجته المنتقبة. دلفت مع خالتي زينب، إلى الغرفة، غسّلتا أمّي، وأنا واقف على عتبة الباب الخارجي، مع أبـــي، نتقبّل العزاء من المعارف والأصدقاء. وفـــاروق، الـــذي بكـــى، في البداية، كرضيع جائع، ثم استمات وبلع دموعه، مع زوجته فريـــدة، ينسقان في الدّاخل، مع نسوة الجيران، لطهي الكسكسي للمعـــزّين. بعد الظّهر، وصل عدد كبير من النّاس، قادمين من مســـجد الحـــيّ، تناوبوا على حمل نعش أمي، إلى المقبرة، ووجدنا جارنا عمّو بلقاسم قد حضّر القبر. صلّينا عليها وودّعناها. كلّ ذلك حصل أمام عـــينيّ وأنا غير قادر على البكاء. كما لو أن مشهد الموت كان أمرًا عاديًـــا لي، لم يحرّك مشاعري. حين وصلت خالاتي الثّلاث من بوســـعادة، رأيتهن يدخلن غرفة أمّي وهنّ يلطمن، يرشـــنّ المســـك ويشـــعلن البخور، ويبكين، بحرقة، فقْدَ أختهنّ. وبكيتُ أمّي، في اليوم الثّالث، ليس حزنًا على فقدها، بل حزنًا على بقائي وحيدًا، من دون نصير. شعرت أنني صرت عاريًا، في مواجهة نفسي والآخـــرين. في تلـــك الأيّام، لم أغمض عينيّ سوى لمامًا. احتفظت بوسادتها، تحت رأسي، لأشمّ رائحتها، ولم تُفارقني لسنوات. بينما سي أحمد اكتفى بتعزيّـــة والدي في مُصابه بالهاتف، ولم يأتِ.

دائمًا ما أفكّر أنّ أمّي عاشت غريبة ورحلت غريبـــة. قضـــت حياتها مذلولة، فوالدي مارس عليها سلطته وقمعه، وفرض عليهــا، إلى آخر أيّامها، منطقه العسكري، الذي تربّى عليه. أشكّ في أنه أحبّهــا، بل فقط عطف عليها. أنا أيضًا لم يحبّني يومًا حبّ أب لابنه. كثيرًا مـــا عاملني بفظاظة ونرفزة. أتذكّر صفعاته لي حين كنتُ أُبلل فراشي وأنا صغير، في الخامسة أو السّادسة من العمر. في واحدة من المرّات، الـــتي لن أنساها، ربطني من يديّ ومن رجليّ، مثل خروف، بعدما عـــدت إلى البيت، أحمل ثلاث جرادات، اصطدتها مع صديق الطّفولة رشـــيد، وجلد أخمص قدميّ، حتّى كاد أن يفور دم منـــهما، «يـــا زبالـــة»، وبّخني، غير عابئ بصرخاتي وتوسّلاتي إليه. هل تلك القسوة شكل من أشكال الحبّ الأبوي؟ أمّي عاشت وماتت وفي قلبها غصّة. والـــدها، جدّي الحاج لخضر، الذي لم ينجب سوى بنات، كان يحصر حركتها بين المطبخ وغرفة النّوم، وزوّجها في السّابعة عشـــرة مـــن عمرهـــا. ووالدي منع عنها الخروج، سوى لزيارة أخواتها، في مناسبات عائليـــة قليلة. أتذكّر عينيها المُشرقتين حين يزورها شخص ما، من الجـــيران أو من أقاربها، كما لو أنها ضمأى نزلت عليها قطرات ماء. والدي أحكم الخناق عليها، عاملها كمعاملة راعٍ للغنم، لم أره قط يُداعبها أو يبتسم لها. كان صارمًا معها، وهي تابعة له. ويوم ماتت دمعت عيناه وحزن لأجلها. حزن لفقدان جندي مُطيع له.

أمي عاشت على النّقيض من السّيدة إرينا، التي تسكن في الشّقة المقابلة لشقّة سي أحمد، الذي أخبرني أنّها في السّتين وتعيش وحدها بعد أن انفصلت عن زوجها. «عايشة كالخشـــبة»، علّـــق. وابنــــها الوحيد لا يأتي لزيارتها، سوى على فترات متباعدة. لكـــن ملامحهـــا

توحي بأنها أصغر من ذلك السنّ. صادفتها، مرّات، في سلم العمارة، أو في الخارج، وهي تتمشّى مع كلبها، من سلالة داشهند، بفروة شعره البنيّة الكثيفة، وظهره الطوّيل وأرجله القصيرة.

– اسمه دوني. اشتريته من مالكه بعد أسبوعين من ولادته.

اشترت كلبها دوني، قبل سبع سنوات، بعد أن توفى كلبها السّابق، من السّلالة ذاتها، الذي كانت تطلق عليه الاسم نفسه. إرينا تتحدّث إنجليزية مفهومة. قالت لي إنها عملت مسؤولة ماركيتينغ، في شركة أغذية دوليّة، مما حتّم عليها تعلّم تلك اللغة، ويبدو أنها تعيش على طريقة الإنجليز، مُبتسمة وغير متجهّمة مثل السّيدات السلوفينيات، اللواتي أصادفهن في الشّارع. حين أراها أتخيّلها واحدة من شخصيات تشيخوف أو نابوكوف. ترتدي دائمًا فستانا يميل للبنفسجي، من قماش تويد، بأكمام طويلة، وتنورة تصل أعلى الكاحل، مع حذاء له كعب عالٍ. أظنّ أن إيف سان لوران خاط بنفسه، فستانها، الذي يضفي عليها مظهرًا جذابًا، ويبرز مفاتنها. تمشي بخطى مُتثاقلة، تترك كلبها يقودها، تتحرّك في الاتّجاهات التي يُريدها. وتُحاول إخفاء خجلها بابتسامات عريضة للمارّة كلّما توقّف دوني للتّبول. لا تلتفت قط إلى الوراء، بل تكتفي بالنّظر أمامها فحسب.

أُعجبت بالسّيدة إرينا لأنني تمنّيت أن أحظى بأمّ مثلها. أمّ أنيقة، تعتني بشكلها وهندامها، ولا تتحرّج من التّسكع في الخارج، وفي الدّفاع عن نفسها أمام ألسنة النّسوة الغيورات وأعين المُتحرشين من الرّجال. لا أجد شبهًا لإرينا سوى في مليكة، فهي أيضًا تعتني بجمالها ومظهرها، ولا تتحرّج من الخروج وحيدة إلى الشّارع. لكن مليكة

تغيّرت في الأيّام الأخيرة، إنّها تخفي عني شيئًا ما. في آخر اتّصالين لي بها، بدت لي غير مبالية بـــي. حدّثتني بجفاء. أظنّها غاضبة مني لسبب ما أجهله. ترجّيتها أن تخبرني عن سبب برودها معي وتمنّعت. كانت تردّ عليّ في كلّ مرّة: «لا شيء!». حين تقول «لا شيء» فهي تخفي شيئًا ما. في الأسابيع الأولى من وصولي إلى ليوبليانا، كانت تفـــرح كلّما اتّصلت بها. «توحّشتك».. هذه الكلمة الرّقيقة المُلهمة ردّدتهـــا كثيرًا عليّ في الهاتف. لكن في الاتّصالين الأخيرين لم أسمعها منــــها. سألتها عن حالها وحال أختها حورية، وبالكاد ردّت عليّ بكلمـــات مقتضبة، كما لو أنها رغبت في إنهاء المكالمة والتّخلّص منّي.

في المرّة الماضية، حين ذهبت إلى حفلة «لاياباخ»، صادفت، عند مدخل القاعة، شابّة قصيرة القامة، بعينين لامعـــتين ووجـــه أبـــيض ضاحك، ذكّرتني بمليكة. أردت، في تلك اللحظة، أن أتّصـــل بهـــا وأخبرها أنني وجدت شبيهتها في سلوفينيا. لكن صـــخب القاعـــة ابتلعني، وما أن دخلت حتى كادت تصـــمّ أذني أصـــوات طبـــول وغيثارات كهربائية وأصوات مغنين غريبة، كما لو أنها خارجة مـــن مغارات سحيقة. شاهدت بعض الشّباب، في وسط القاعة، بشُـــعور طويلة، يرقصون بتحريك رؤوسهم، بشكل سريع وعنيـــف، مـــن الأعلى للأسفل، كما لو أنّهم يركعون ويرفعـــون رؤوســـهم مـــن الركوع، وهم يطوون أصابع أيديهم، ولا يرفعون ســـوى السّـــبابة والصّغرى. وشابة بالقرب منهم تحرك يديها، كما لو أنها تعزف على غيثارة، وتُحاكي حركات العازف على المنصّة، الذي انتصبت خلفه شاشة، تبث صور أشكال هندسية زرقاء ومجسّمات غريبة، تبدو من وحي رسّام دادائي. كان جوًا مستفزًّا للأعصاب، لا يبعـــث علـــى

الإنصات للموسيقى، ولا في تأمّل سلوكيات الحاضرين. وأنا لست متعوّدًا على هذا النّوع الصّاخب من الموسيقى، قبلت الدّعوة التي سلّمتني إياها إيفانا، فقط من باب الفضول، لأرى شيئًا مختلفًا عن كَرب سي أحمد، ينسيني خوفي على أبي وقلقي من جفاء مليكة معي. غالبية الحاضرين كانوا يرتدون الأسود، كما لو أنهم اتّفقوا فيما بينهم على اختيار لون واحد، في هذه الحفلة، أو بالأحرى الجلبة الغنائية. أنا متعوّد على موسيقى هادئة وناعمة، على صوت محمد العنقى، أو بحّة الشّاب خالد، أو شاعرية داليدا، أو كلمات جاك بريل. لم يُعجبني المكان، الذي وجدت نفسي غارقًا فيه، فخرجت، بِنيّة تدخين سيجارة، والتفرّس في وجوه الشّباب، الذين جاؤوا إلى قاعة، تصمّ موسيقاها الآذان ولا نكاد نفهم كلمات المغنين ولا ماذا يُريدون قوله. ابتعدت بضع خطوات، عن الباب، حيث كان يتدافع مراهقون للدّخول، وجلست على مقعد خشبي طويل، ثمّ أشعلت سيجارة سلوفينية، بعدما نفدت منّي علب السّجائر الجزائرية، التي أحضرتها معي. رحت أنفث الدّخان وأفكر في مليكة، أحاول فهم سبب نأيها عنّي. هل تحوّل اشتياقها لي إلى غضب منّي؟ أو أنّها شعرت، بحدسها الأنثوي، أنني أُغازل أخريات، فغارت؟ حين ناصفت السّيجارة، جاءت شابة شقراء، ترتدي السّواد هي أيضًا، بجاكيت وتنورة قصيرة وجوارب نسائية تغطي ساقيها، وقد صبغت شفتيها بلون داكن، وجلست بجنبي، على الطّرف الآخر من المقعد. وأخذت تدخّن سيجارتها. خمّنت أنها جاءت للمشاركة في رقصات غربية، مثل أولئك الشّباب الذين شاهدتهم في الدّاخل. تشجّعت ونظرت إليها، مبتسمًا، فردّت عليّ بابتسامة.

- جوِْيا!
- جوِْيا!
- هل تفهمين الإنجليزية؟
- نعم.
- هل تُعجبك الحفلة؟
- نعم. أحب «لاياباخ».

أمّا أنا فلم أجد شيئًا يُعجبني في هذه الفرقة و لم أجد كيف أواصل الدّردشة معها. شاهدتها وهي تدخّن؛ تمسك سيجارتها بأصابع، يُشبهون أعواد الأكل الصّينية، تسحب نفسًا طويلاً، ثم تنفث الدّخان إلى أعلى، وهي تنظر إليه يتصاعد. تركتها تكمل سيجارتها، ثم حاولتُ أن أستعيد خيط الحديث معها.

- هل تُريدين سيجارة أخرى؟
- كلا، شكرًا.
- اسمي سليم، وأنت؟
- لورينا.

لم اعرف كيف أستدرجها في الكلام. هل أقول لها: «أنت جميلة، وأودّ قضاء بقية السّهرة معك؟» أو «ما رأيك أن نرقص معًا؟» مع أنني لا أُجيد الرّقص أو «ما رأيك أن نبحث عن حانة مفتوحة في هذه السّاعة المتأخرة، نجلس فيها ونتحدّث بهدوء؟». خفت أن تصفعني بردّ مفحم. «كلا، أنا مُرتبطة»، أو «كلا، لست من النّوع الرّجالي الذي أهواه».

- هل جئت وحدك؟
- كلا. مع قريب لي.

تمنّيت لو قالت أنها وحدها، لأجد نقطة تلاقي مشـــتركة، لأن نثرثر، ونتعرّف على بعضنا بعضًا، فأنا جئت وحدي إلى هذه الحفلة، التي لم ترق مزاجي. دخلت إليها وحدي وخرجت منها وحـــدي. لفح هواء بارد وجهي و لم أجد كلمات أخرى للخوض فيهـــا مـــع لورينا. انقضى قاموس مغـــازلاتي للغريبـــات. شـــعرَت بارتبـــاكي وتردّدي. فقامت من مكانها، للانصراف.

– أعود إلى الدّاخل. قريبـــي ساشا في انتظاري. أمسية طيّبة.

أثارت مخيّلتي باهتزازت ردفيها وبطتي ساقيها الممتلئتين. لـــو أن فتحي كان حاضرًا لوبّخني: «تركت فتاة جميلة تـــذهب بلحمهـــا وشحمها»، رنّ صوته في أذني، وشعرت ببرد يتسلّل إلى قدماي. لو علمت أن شتاء ليوبليانا بهذه الشّراسة، لأحضـــرت معـــي جزمـــة مطاطية، بدل هذا الحذاء الواطئ واللّين، الذي يُشبه أحذية العرســـان ليلة الدّخلة.

أقفلت عائدًا وأنا أفكر في أبـــي ومليكة وفي طريقة للحدّ مـــن القلق، الذي بات يلتصق بذهني كما يلتصق القُراد بالجلد. قرّرت أن أنسى ما قاله لي فاروق، في الهاتف، ولا أبالغ في خوفي على الحـــاجّ، وأن أكلّم مليكة، في الويكاند، وأخرجها من صمتها، وأفهم ســـبب جفائها معي. إمّا أن تُصارحني أو يذهب كلّ واحد منّا في طريقه.

# غربان تستفيق

كنت حين أستيقظ صباحًا، في الأيّـــام الأولى مـــن وصـــولي إلى الفندق، يُباغتني سؤال ملحّ: أين أنا؟ أسأل نفسي دون أن أُجيب. أتخيّل أنني في مستشفى أو في سجن، قبل أن أستعيد رُشدي، أنظر من حولي، وأتذكّر أنني في غرفة باردة ومعزولة، تطلّ على شارع جانبـــي، شـــبه خالٍ، سوى من بعض الرّاجلين المستعجلين. على يمين البـــاب، زاويـــة صغيرةٍ حوّلت إلى حمّام. في وسط الغرفة كرسي واحد وطاولة أكـــل، نادرًا ما استخدمتها للغرض الذي وُجدت لأجله. أضع عليهـــا حقيبـــة يدي، أوراقًا، كتبًا، مكياجي وقارورة سيدر، تترك نكهة طيّبـــة علـــى اللسان، أفضل من الراكيا التي تعوّدت عليها في سراييفو. وخزانة خشبية أُرتب فيها ملابسي القليلة. فضلاً عن سرير حديدي واسع، لكنه غـــير مُريح، أمدّد فيه ليلاً ساقاي وظهري، الذي بدأ يعوّج. ثلاجة صـــغيرة، كلّما ملأتها بالحاجيات الضّرورية فرغت، وموقد كهربائي، لم أستعن به كثيراً، فأنا أكتفي بمأكولات سريعة ساخنة، في الخارج، ولقيمات باردة في الدّاخل. حيطان الغرفة عارية، تشوّهها بقع سوداء، بسبب الرّطوبـــة وقلّة التّهوية، لم أفكّر في إخفائها، فلست أنوي الاستقرار طويلاً في هذا الجُحر، الذي يُجاورني فيه غرباء، لم أتآلف معهم.

ذات مرّة، وأنا عائدة من دوام مسائي، بعينين شبه مغمضـــتين من التّعب، وجدت رجلاً ثخينًا، بوجّه مكوّر، وبطن ظاهر، ممـــددًا

في سلّم الفندق ورائحة كحول قويّة تنبعث من فمه المفتوح وملابسه الرّثة، مع زفير حادّ يخرج من مناخيره. فكّرت، لوهلة، أنه سقط وأُصيب ويحتاج مساعدة. اقتربت منه وربتّ على كتفه. رفع رأسه بصعوبة، كمريض يحتضر، ونظر إلى وجهي، دون أن ينطق بكلمة، ثم واصل نومه. كان يعتمر قبّعة «شايكاشا» الصّربية وبدا لي من ملامح وجهه أنه في الخمسينيات. نزلت إلى البهو، وأخبرت صاحب الفندق شتيفان، الذي كان يتّكئ على أريكة، يحمل مكعب روبيك بين يديه، ويُشاهد التّلفاز. نطّ من مكانه وصعد الدّرج. سمعته يتحدّث بصوت خافت، مع الرّجل الثّمل في الأعلى، ويكرّر: «أوه ماريا!»، ويطلب منه الوقوف على رجليه. ثم نزل برفقته، يلفّ ذراع الرّجل اليمنى على رقبته، ويطوّق خصره بذراعه الأيسر، كي لا يسقط. قاده للجلوس على الأريكة وساعده في نزع معطفه وصعدت أنا إلى غرفتي.

رأيت في ذلك الرّجل، الذي شاهدته مستلقٍ في درج السّلم، ملامح والدي. أظنّه يعيش وحيدًا في واحدة من غرف الفندق. قد تكون له عائلة أو ربما لا. لكن في كلّ الأحوال لن يُشاهده، واحد من مقربيه، في منظر مخجل، ثمل لا يقوى على الوقوف على رجليه. إذا كانت له عائلة فهو على الأقل يحترمها، ولا يسمح لنفسه بأن يظهر أمامها في لحظات ضعف غير لائقة، على عكس والدي، الذي لم يُبال بنا، لا أنا ولا أمي ولا شقيقي أو شقيقتي. كان يعود إلى البيت مترنحًا، ليكمل طقوس عربدته على جسد أمي، مخلّفًا لها كدمات، غير مشفق على حالها ودموعها وتوسلاتها إليه، وهي تُنادي أمّها، لتقوم من قبرها وتأتي لنجدتها. في إحدى الليالي، ازداد أبي

ضراوة. كسر صحنًا على رأس أمّي، التي أحسّت بخطــورة الحـــال، فقامت بإخفائي، في خزانة، وأغلقت عليّ بابها. أسرف في ضـــربها، كما لو كان بينهما ثأر دفين، وتدخّل الجيران لإنقاذها. نصــحوها بطلب الطّلاق منه، لكنها جبنت وتجاوزت تلك الواقعة، كما لو أن شيئًا لم يحدث. أخبرتني، ذات مرّة، حين قطعت صمتها بكلام قليل، أن والدي لم يكن متحمسًا لميلادي. في الأشهر الأولى من حملها، لم يقل شيئًا، لم يبدِ فرحًا ولا حزنًا. لكن، بعدما بلغ بطن أمّي الشّــهر السّابع، صارحها بأنه تمنّى أن تُجهض وتتخلّص من الجنين، بحجّــة أنهما لا يملكان مالاً كافيًا لرعايتي. أمّي لم تقل شيئًا حينها. لم تُدافع عن نفسها ولا عن الجنين الذي في بطنــها. أرادت أن تصــير أمًّــا وكفى، وتتجنب الأقاويل والشّكوك عن خصوبتها. بعدما وُلــدت، غضب منها. قال لها إنَّه تمنّى مولودًا ذكرًا لا أنثى. هي لم تحــك لي القصّة حين كان والدي حيًا، كنت سأكرهه أكثــر، بــل أُعاديــه جهارًا. أظنني وُلدت بحقد جيني تجاهه. في صغري، حاولت، مــرّات كثيرة، أن ألعب معه أو أُمازحه، وهو يصدّني عنه، كما لو أنني وباء. أمّي أيضًا حاولت التقرّب منه ومُصالحته، لكنه لم يُبدِ أي اســتجابة لها. لم يفرح يومًا بعيد ميلادي. في السّنوات الأخيرة مــن حياتــه، كنت أشير إليه باسمه أنتون، ولا أنطق صفته كأب لي. وهــل أمّــي أيضًا تكرهني؟ وتمنّت أنها لم تلدني أو تمنّت أن تضع مولودهــا الأوّل ذكرًا؟ مكالمتنا لم تخرج عن تبادل أخبار عامّة واستلطافات ســطحية عابرة، كما أفعل مع أي صديقة عادية. راودني مــا فعلتــه أزرا، أن أغيّر اسمي العائلي، وأبدأ حياة جديدة مُغايرة، قد تكون أقل سوءًا من سابقتها.

حاولت أن أقلّل من عزلتي بالتّعرف على أشخاص جدد، لكـــن جدارًا من الفوارق ينتصب بيننا. نادلة المطعم التّركي، الذي عُدت إليه ليس لقراءة الطّالع، لكن لأكل البوراك، بادلتني الابتسام، لكنها بـــدت لي ذات جفاء، غير مُنفتحة على التّعرف عليّ. وزبائن مقهى تـــريغلاو لم أجد نقاطًا مشتركة معهم. هناك نوعان من الزّبائن: في الصّـــباح، يتقاطر موظّفون وعمّال، مزاجهم هادئ ومُســـالم ومســـتعجلون في تصفّح جرائدهم وفي شرب قهوتهم والانصراف بعد ذلك. في المســـاء يصل نوع آخر؛ زبائن يُفرطون في الشّرب وفي التّفوه بكلام بـــذيء، وأنا لا أثق فيهم ولا أجد موضوعات مشتركة للحديث فيها معهـــم. جماعة من البوسنيين المُقيمين في ليوبليانا، ومعهم هَـــادا، قريبـــة أزرا، يتحلّقون، مرّة في الأسبوع، ويثرثـــرون في شـــؤون السّياســـة مـــع غوسبودين أحمد أو أمد، الذي بات يُعاملني بتعـــالٍ وبنـــبرة آمـــرة، ويستغل جسدي، مثلما فعل معي بوريس في سراييفو. أمّـــا الشّـــاب التزيغان ميران، فهو الوحيد الذي يبتسم لي، بوجهه المنمّش، عن طيب خاطر. يجلس، كناسك متأمّل، ويشرب بيرته، كلّ يوم، بالمجّـــان، في الكأس نفسها، ولا يُشاركه زبون آخر في استعمال تلك الكأس.

- أمّه ماتت وأبوه تخلّى عنه. لو أنّك مكانه، كيف تتعـــاملين مع أبيك؟

سألني مرّة صاحب المقهى.

- لن أغفر له.

كانت تلك المرّة الوحيدة التي يستشيرني في أمر ما، ولا أجحد أنني أجد راحة في التّحادث مع ابن أخيه سليم. مـــع أن أحاديثنـــا مُتقطّعة وسريعة، ولا تخرج عن قضايا عادية.

- هل أعجبتك «لاياخ»؟
- قدّموا موسيقى تجريبية، غريبة نوعًا ما.
- هل تعرّفت على أشخاص في الحفلة؟ أو فتيات؟

قلتها له بنبرة ضاحكة.

- كلا.

إجابته لم تقنعني. يبدو لطيفًا ومهذّبًا، ومن الطّبيعي أن يشعر بانجذاب إلى أنثى. حصل أن لاعبت بظري، أكثر من مرّة، وأنا أتخيّله ممددًا بجانبي، أو يختلي بي في غابة ويطبع قبلات على كامل جسمي، مع أنه ليس من النّوع الرّجالي المحبّب إلى قلبي، فأنا أميل إلى الرّجال الأشداء، ذوي البنية القوية، والصّوت الجهوري المجلجل. لكنني لن أُمانع في تجريب حظّي معه. دائمًا ألاحظ عينيه وهما يتحرّكان في كلّ الاتّجاهات، في المقهى، وهو يحدّق في كلّ امرأة تجلس وحدها، ويُطيل النّظر إليها. ربما يبحث عن رفيقة تؤنسه، كما أبحث أنا عن رجل يُشعرني بوجودي وبكينونتي. يخجلني أن أستضيفه في الغرفة التّعيسة، التي أعيش فيها، لكنني أفكّر في دعوته، إلى حفلة «بولكا»، ليستمع إلى الموسيقى الفلكلورية، ويُشاهد نساء وفتيات يرقصن، قد تعجبه واحدة منهن ويعقد معها صداقة، أو أجد فرصة لأمسك بيده، أحضنه وأتقرّب منه.

فتح سليم حقيبته الصّغيرة لكي يقطع أسئلتي له عن حفلة «لاياخ»، وأخرج منها كتابًا، طلب مني أن أُطالعه، وأخبره برأيي فيه. كانت رواية «قرية الملائكة»، التي سألني، من قبل، عن معنى عنوانها. وعدته بأن أطّلع عليها وأعيدها له، رغم أنني منذ فترة هجرت مطالعة الكتب، أو بالأحرى لم أعد أجد وقتًا للمطالعة. قلت

في نفسي: هذه حجّة لأعمّق علاقتي به، وللتّحدّث معه عن الكتابة وعن مشروعي المعطّل.

أكملت دوامي المسائي، حملت حقيبتي، وخرجت متظاهرة بالإرهاق وشعور بصداع، كي أتجنّب تحرّشات العربي الأعرج وحكاياته الباعثة على الضّجر، عن حياته السّابقة في سراييفو وأصدقائه الذين تشتّتوا أو ماتوا. نويت أن أستحم، وأتصفّح قليلاً «قرية الملائكة» قبل أن أخلد إلى النوم. البرد كان يقطّع أحشاء ليوبليانا وأنا أسرع في خطواتي وأدسّ يداي في جيبي المعطف. تخيّلت لو أنني بقيت ساعة واحدة، تحت ذلك البرد، فسينتهي بي الأمر جثّة جامدة. حزنت لأنني بلا عائلة مثل نساء أخريات، ولن أجد شخصًا في انتظاري، يحضرّ لي حساءً دافئًا ينسيني لسعات الزّمهرير. أمّي قالت لي، مرّة، أن سبب الحظّ السّيئ، الذي يعترضني، هو مشعوذ، غار منّي. كتب تعويذة على ريش ديك رومي، ودفنه حيًّا. ولن أتخلّص من سوء الطّالع سوى بإيجاد ذلك الدّيك الرّومي المدفون وحرقه. لست أصدق خرافات أمّي، لكنني أصدق أني أحتاج إلى مشعوذ مقتدر يُخلّصني من الغمّ الخانق، الذي طفح على جلدي كالفطريات. كنت أتمشّى وأحدث نفسي والدّم يكاد يجمد في شراييني، وعلى بعد خطوات من الفندق، شاهدته. نعم، كان هو، وعيني لم تخطئه. الشّارع كان مضاءً بشكل جيّد، وأنا أعرف أدقّ تفصيلات وجهه وجسمه؛ وجهه المُربّع الواسع، ذقنه المدبّب، وعيناه الصّغيرتان، شعره الأشقر وجبهته المستوية. وكذا مشيته، بخطوات صغيرة ومُتسارعة، كما لو أنه يعدو عدوًا خفيفًا. منذ 1993، لم ألتق غوران، لكنني أستطيع أن أتعرّف عليه من بين مائة شبيه له. رأيته

يمسك يد لورينا، التي كانت تخفض رأسها، ويدخلان معًا إلى الفندق. «كورفا»، خرجت من فمي كما تعلّمتها في سراييفو وليس كما ينطقها السلوفينيون: كوربا. زادت ضربات قلبي، تسمّرت في مكاني ونسيت البرد الذي كان يصفع وجهي. من أين خرج وكيف وصل إلى الفندق الذي أُقيم فيه؟

# العيش في غيتوهات

ابتلع سي أحمد قرصًا، أتبعه بنصف كوب ماء، وختمه بـ«الحمد لله». أخبرني أنه تعوّد، منذ ثلاث سنوات، على زيارة طبيب نفسي، وعلى تعاطي حبوب مُضادّة للاكتئاب.

- راح تكبر يا وليدي وتعرف الأمراض.

عاد إلى كلمة «وليدي»، بعدما اكتفى، في أيّام سابقة، بمخاطبتي باسمي لا غير. هو لا يعلم أنني لست أحتاج أن أكبر لتناول مهدّئات، فأنا من سنتين أو أكثر أُعاني من اضطرابات نفسية. ليس ينسيني فيها سوى النّوم، كلّما عطف على حالي وزارني. ويحدث أن أشعر أنني كهل في نهاية العشرينيات. فبعد زيارتي لقرية «سيدي لبقع»، صارت تطوّقني كوابيس. أشعر أحيانًا برجفات برد مُفاجئة تخترق أضلاعي. سمعت شهادات عائلات الضّحايا، وأنا أعضّ على شفتي السّفلى، كي لا أبكِ. ولا أنساق مثلهم إلى مهرجان الدّموع، الذي كان يجعل أصواتهم مبحوحة، ويمنع عنهم سرد ما شاهدوه، دون تقطّع. هناك صادفت حليمة. استوت، قبالتي، وأصابع رجليها تطلّ من جوربيها المثقوبين. ملمحها أوحى إليّ أنها تجاوزت الثّلاثين بقليل. كانت تلبس كنزة صوف، وبنطلون أسود فضفاض. انتظرت عشر دقائق أو يزيد لتتوقّف شهقاتها وينخفض أنينها. جلست أمّها، إلى جانبها، شاردة البصر، وهي تسبّح وتذكر الله. سحبت حليمة

هواءً إلى رئتيها، زفرت، وانفرطت تحكي لي، بصوت أجشّ، عـــن شقيقتها جميلة، التي لم تكن تتجاوز الرّابعة والعشرين. «كنـــت أنـــا وجميلة وأخي الصّغير يوسف، وأبـــي وأمي، نجلس، في المطبخ، حول المائدة. نُدفئ أمعاءنا بخبز وحساء، بعد يوم رمضاني بارد. سمعنا طرقًا عنيفًا على الباب. وقف أبـــي لينظر من الطّارق. وما أن فتح الباب، حتى هجم عليه شاب، يعتمر قلنسوة سوداء، لا يُرى منـــها ســـوى عينيه، كما لو أنه من جماعات النينجا. أسقط والـــدي، بضـــربتين حادّتين، على وجهه، من مؤخّرة بندقيته، ثمّ دخل ومعـــه ملثّمـــان آخران. بينما تسمّر رابع، قرب الباب، بعدما ربط والدي من يديـــه ورجليه. واحد منهم وقف في المطبخ، ركل طاولة الأكل الصّـــغيرة وهو يهددنا ببندقية، ثمّ تقدّم الاثنان الآخران، أمســـكا أخـــتي مـــن ذراعيها. سحباها بقوة، وقاداها إلى غرفة مُجاورة. كانت ترتجـــف، تصرخ، تنعق، تبكي، تترجّاهما أن لا يؤذياها. نادت علـــى أبـــــي وأمي أن ينقذاها، وهي تردّد: «أطلقوني.. أطلقوني». صوتها كـــان يشقّ السّقف ويبلغ عنان السّماء، ثم خفت فجأة. حاولت الوقـــوف لإنقاذ أختي، لكن ذلك الملثّم رفسني، فسقطت. وجّـــه إليّ فوهـــة بندقيته واعتقدت أنه سيقتلني. كلّ شيء حصل بشـــكل خـــاطف. صخب ثم صمت. ظهر المُلثّمان الاثنان الآخران، على باب المطـــبخ، وأخبرانا أن ذلك جزاء من لا تلبس خمارًا. حين انصـــرفوا وجـــدنا أختي، ممدّدة على جانبها الأيمن، غارقة في دمها. يوسف غُشيَ عليه، وأنا تجمدّت في مكاني، شعرت أن الدّم توقّـــف عـــن السّـــريان في جسمي، رأيت غشاوة سوداء على عينيّ. وأمي ببرودة أعصاب، دون أن تنبس بكلمة، حملت رأس أختي المقطوعة ووضعتها على جسدها،

كما لو أنها تُريد أن تنفخ فيها روحًا جديدة». وما كادت حليمة تنهي كلامها، حتى صرخت أمّها: «حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل». هذه واحدة من حكايات كثيرة، سمعتها في سيدي لبقع، ووحدها تكفي لأقضي ما تبقى لي من عمر مكتئبًا. عمّي لم يسمع قصص المجروحين والمنبوذين والمخذولين والميتّمين في بلده البعيد. ليس يعلم أن القرى باتت تنعت بأعداد قتلاها وليس بأسمائها الرّسمية؛ قرية 130 أو قرية 153 أو قرية 211.

غيّر محطة الرّاديو، التي كانت تبثّ أغانٍ هادئة، تفصل بينها ومضات إعلانيّة، إلى محطّة أخرى، تبث موسيقى روك محلية، وقال:

- اتّصلت، أمس، بفاروق. يبدو أن الحاجّ بدأ يتعب وينسى وقد توقّف عن الصّلاة.
- أعرف.

شقيقه الأكبر نسيه هو أيضًا، نسي أين وكيف يعيش. والدي لم يعد ذلك الرّجل الذي عرفناه، بصوته المُرتفع في البيت، غضبه الدّائم وفرحه الصّغير. لقد تحوّل إلى غصن يابس يتدلّى من شجرة. وسي أحمد لا يختلف عنه كثيرًا؛ محا ذاكرته هو الآخر، وتخلّص من هوس الحنين. توقّف عن الصّلاة ولم يكترث عند حلول شهر الصّيام. الشّيء الوحيد الذي تذكّره هو عيد ميلادي، في 23 ديسمبر، الذي احتفلنا به معًا، في مطعم إيطالي. لكن لون بشرته يفضحه وانفعالاته كذلك. لن يصير سلوفينيًا مهما فعل وسيظلّ يحمل هويته الأولى على هامته إلى قبره.

احتسيت جرعة من كأس كوهينا فينا، ونويت أن أخبره أن والدي قد أُصيب بالزهايمر، وقد أعفاه المرض من مشاهدة مدينة

الأولياء الصّالحين والدّراويش، وهي تتحوّل إلى جثّة حيّة، لكن إيفانا قطعت كلامنا. وقفت بجانبي وطلبت منه أن يردّ حساب أحد الزّبائن. استلم منها ورقة نقدية، وأعطاها قطعًا صغيرة، انصرفت، وعاد ليحدّثني من جديد.

– كانت المرحومة فاطمة تعتني به.

الحاجّ لم يحتج إلى شخص يعتني به، بل إلى جندي خاضع له. أمي كانت توفّر له أسباب الرّاحة، مُطيعة له ولا تُخالف أمرًا من أوامره. كان حين يدخل إلى البيت، تترك كلّ ما في يديها وتذهب إلى استقباله، تحضّر له سفرة الطّعام أو القهوة، وتستيقظ في أيّام الشّتاء، قبله، كي تسخّن له ماءً للوضوء، وتضع على ظهره برنسه الأبيض، قبل الخروج إلى المسجد. كان الحاجّ زعيمًا ونحن أتباع له.

شعر سي أحمد بنفوري من الثّرثرة في حال الحاجّ، فغيّر الموضوع.

– الحال تبدّل. والبلاد تخلطت.

للمرّة الأولى، منذ وصولي، نطق جملة أشعرتني بأنه مهتمّ بحال البلد. لا أعرف، هل كان يوجّه تساؤله إليّ أم يُحادث نفسه فقط! لسنا نعرف أين تسير الأمور، لكننا نعلم أنها تسير نحو الأسوأ. يبدو أن بلدنا يرقص معنا السالسا، يتقدّم خطوة، ثم يتراجع بخطوة أخرى، ينحني إلينا ثم يُدير ظهرها لنا.

– كتب أحدهم، مرّة، أن الجزائر سوف تعرف مصير البلقان.

قلت له.

– لا أظن. النّاس يتحاربون، في البلقان، بعدما عجزوا عن إيجاد قسمة عادلة للتّاريخ، أمّا نحن فلم نصنع تاريخًا لنتخاصم من أجله.

«لم نصنع تاريخًا يجمعنا، بل صنعنا غيتوهات وتوزّعنا فيها»، قلت في نفسي وأنا أفرغ، دفعة واحدة، ما تبقى في الكأس، في معدتي. لا أحد صار يثق في الآخر. الكراهية تمدّدت مثل الكوليرا، التي أصابت أجدادنا في زمن قديم، ومن يخرج صباحًا من بيته، لا يضمن العودة إليه. حين حكت لي مليكة، الصّيف الفائت، ما وقع لزوجة خالها بتول، امتلأت عيناها دمعًا واغتمت لأجلها، وشاركتها البكاء في صمت. خرجت زوجة خالها، صباحًا، إلى السّوق، وأخبرت بناتها الأربع، أنها لن تتأخّر، فالسّوق لم يكن يبعد عن بيتهم بأكثر من نصف كيلو متر. خرجت، وقد طوت عامها الأربعين، وهي تحمل قفّة فارغة، بغرض شراء خضر وحلوى لابنتها الصّغرى نوال، التي لم تتجاوز عامها الثّالث. حين دخلت بتول إلى السّوق، كان طفل صغير، في حدود الثّانية عشرة من العمر، يبيع الورد، قد عثر على قنبلة، مدسوسة في كيس بلاستيكي، مرمي في واحدة من الزّاويا، غير المرئية. ترك عربة الورد، حمل الكيس في يديه الصّغيرتين وركض باتّجاه مخرج السّوق وهو يصيح: «بُومْبا... بُومْبا». لكن الوقت فات. حصلت الفاجعة. وصل صوت الانفجار آذان بنات بتول، فهمن أن أمهنّ، وهي تودعهن، على عتبة الباب، وتوصيهن بالانتباه لأختهن الصّغرى، كانت تودعهن للانتقال إلى عالم آخر، إلى حياة علوية، تراهم منها ولا يرونها. حين ذهب خال مليكة، مع ابنتيه خديجة وحنان، بحثًا عن جثمان زوجته، في مشرحة المستشفى، فشلوا، للوهلة الأولى، في التّعرّف إليها. الأجساد تحوّلت إلى أشلاء، والأشلاء تفحّمت. البنت الكبرى خديجة وحدها تعرّفت على جثمان أمّها، من ساقيها. فهي تعرف أمّها من ساقيها الأملسين والليّنين

الطّويلين. سحبتهما إليها، مسحت عليهما، قبلتهما، ثم لم تتمالك نفسها وانسحبت إلى بكاء شديد. دفنوا ساقيها فقط وكذبوا على أنفسهم بأن كتبوا على شاهد القبر أنّ هناك ترقد بتول. أخفوا الأمر على أختهن الصّغرى. وتحوّلت خديجة إلى أمّ للصّغيرة نوال. حكت لي مليكة القصّة وهي تحرّك لسانها بصعوبة. كانت تتوقّف، بين الفينة والأخرى، تبلع ريقها، وتُحاول، عبثًا، كبت بكائها أمامي، ثم تواصل الحكي. ثمّ دسّت رأسها في صدري، مسّدت على شعرها، وأكملنا، في ذلك اليوم، علبة سجائر كاملة، من دون أن نتحدّث في أيّ أمر آخر ذو أهمّيّة.

وددت أن أحكي لعمّي عن تفاصيل ما جرى وما يجري، لكنه لم يمنحني فرصة. أخرج جريدة قديمة، من درج، وأخذ يتصفّحها، ثمّ سألني:

- هل أعجبتك ليوبليانا؟
- نعم.
- لِمَ لا تفكّر في الاستقرار هنا؟

صحيح أنني أفكّر في الهجرة، لكن ليس الآن. ثم إنني أفضّل فرنسا وليس سلوفينيا، التي أجهل لغتها. لست مستعدًا للتخلّي عن الحاجّ، في أوقاته الوعرة، وأشتاق إلى مليكة. رغم جفائها، في الأيّام الأخيرة؛ فإنني لا أتوقّف عن التّفكير فيها. ما زلت أومن بأن الجريدة قد تعود إلى الصّدور، وأعود إلى العمل كما في العهد السّابق، وأستطيع تجاوز وقاحة العيش بسماع نكت فتحي البذيئة، وبالتّلصّص على مؤخرات العابرات، في ساحة البريد المركزي أو قبالة الجامعة.

- سأفكّر في ذلك مستقبلاً.

قلتها له وأنا أخفض رأسي. ثم أدرت نظري عنه، كي لا يكرّر سؤاله، وسمعته يتمتم كلمات على أنّ الحياة في سلوفينيا أفضل، وتُناسبني.

قاطعته بالسّؤال:

- ألا تنوي زيارة البلد؟
- كلا. الشّهر القادم، سأذهب إلى سراييفو، في زيارة إلى بعض الأصدقاء.
- اعتقدت أنك احتجت إلى وثائق إدارية، من بوسعادة، لاستخراج جوازي سفر لسفيان وخالد، وزيارة الجزائر.
- نعم. لكنني سأؤجل الأمر، إلى وقت لاحق.

أغرتني فكرة الذّهاب إلى سراييفو. وودت مرافقته. سراييفو اسم يتردد كثيرًا في الصّحف وفي التّلفزيون. أتخيّلها امرأة طويلة القامة، معوجّة الظّهر. هي مدينة مخدوعة، مثل الجزائر العاصمة، تعيش في قلب فقاعة من الزّيف.

- سراييفو استفادت من تعاطف دولي ومساعدات، وقت الحرب.

قُلت.

- أبدًا. المعونات احتكرها تجار السّوق السّوداء.

لم تكن لي معلومات كافية عن الوضع هناك، ولم أستطع الدّخول في نقاش معه، وهو المُطّلع أكثر منّي على حال البوسنيين. شعر بعدم قدرتي على مجاراته في الحديث. أعاد الجريدة إلى الدّرج. دعك ذقنه، وهو يبتلع قرصًا آخر، ثم باغتني بسؤاله:

- هل تستطيع أن تُساعدني غدًا في العمل؟ إيفانا ستغيب ليوم واحد.

تلعثمت وأنا أحدّق إليه.

- لا خبرة لي في العمل كنادل.

طمأنني بأن يقتصر عملي على تحضير القهوة وبعض المشروبات، وتسليمها له. أثار طلبه فضولي، وأومأت برأسي موافقاً. تساءلت، في سرّي: لماذا ستغيب إيفانا؟ خمّنت أن السّبب هو عادتها الشّهري، وابتسمت. ولم أدرك سوى متأخرًا أن غيابها ذاك كان فتيلة، انجرّ عنها تفجّر كلّ الشّرور.

## الجزء الثّالث

# ألهو مع النّدم

# رائحة أبي

يوم وُلدت آنتشي، لم يخرج أبي من البيت. صرف وقته مستلقيًا أمام تلفزيون، بالأسود والأبيض، يُشاهد مسابقات ألعاب القوى، في دورة الألعاب الأولمبية 1972، كما أخبرتني أمّي. في ذلك العام، أتممت الخامسة من عمري، وفازت يوغسلافيا، في تلك الدّورة، بخمس ميداليات، من بينها اثنتان ذهبيتان.

وُلدت آنتشي ضعيفة البدن. وكثيرًا ما أُصيبت برعاف وهي تلعب مع أطفال آخرين، ولم يكن الإسهال يُفارقها، في أيّام الحرّ. وتتقيّأ كلّ ما تأكله. أمّي كانت تستيقظ، في جوف الليل، تهدهدها وتحدّثها لتخفّف عنها آلامها، تضمّها لصدرها وتقبّلها، تغدق عليها الحنان، كي تقنعها بالنّوم. ولا أُخفي أنني غرت منها، فقد احتوتها أمّي أكثر مما احتوتني، وعطف عليها والدي، بينما أنا لم يتورّع في شتمي ووصفي بالقبيحة وعديمة الحسن. فعندما كسرت ساقي اليسرى، في صغري، وأنا أهمّ بالخروج، من المدرسة، راكضة، نعتني بالمتهوّرة. أمّي لم تكن تُساعدني، وقتها، سوى عند الذّهاب إلى الحمام، وصديقتي تانيا هي الوحيدة، التي داومت على زيارتي، وإخباري بكلّ ما يحدث مع زملائنا وكلّ ما يقولونه بينهم. لم أكن أنا وشقيقتي مقربتين من بعضنا بعضًا جدًا. لكننا لم نختلف كثيرًا. أتذكرّ تلك الصّباحات، وهي تعدّل بنطالها أو تنورتها، التي تظهر منها ساقاها النحيفتان، أمام المرآة،

وتسألني عن رأيي في هندامها قبل الذّهاب إلى المدرسة، ولا أنسى خصوماتنا الصّبيانية حين تختلس أحمر شفاه من حقيبتي أو ترشّ واحدًا من عطوري على عنقها. في سنواها الأولى، تعلّقت بالحيوانات، ولا سيّما القطط والكلاب الأليفة، التي كلّما صادفتها في الطّريق، توقّفت لتُداعبها. وحلمت أن تصير بيطرية. في واحدة من المرّات، أحضرت سلحفاة، إلى البيت، وهي مبتهجة كطفل في عيد ميلاده، وضعتها في علبة كرتونية، وقدّمت لها قشور تفّاح. لكن والدي لم يعجبه الأمر. رمى السّلحفاة من النّافذة، وسمعنا ارتطام قوقعتها العنيف على الأرض. عاقبها بعدم الخروج إلى الشّارع يومًا كاملاً. ورغم مزاج والدي السّيئ، ذلك اليوم، فقد ربطته، في الغالب، علاقة طيّبة وخفيّة مع آنتشي. حين دفنّاه لم نتخيّل أننا ندفن معه عقلها. فقدت شهيّتها للأكل، اشتكت من آلام حادّة في الظّهر، ثم انهارت عصبيًا. أحبّت، في مُراهقتها، زميلاً لها يسمّى أوسكار، حكت لي عنه، وتبادلات معه رسائل عاشقة وقبلات بريئة، وسمعت، من سنوات، أنّه ذهب إلى زغرب، لدراسة الهندسة المعمارية، ثم تخلّى عن الكليّة وورث عن أبيه محلاً لبيع الأثاث، يقع بُمحاذاة الكنيس القديم.

غوران ذكّرني بآنتشي، بعدما سألني عنها. سحبت صورة لها، من أسفل السّرير، أُخفيها مع صور أخرى لي ولساشا وأمّي. نظر إليها ونفث دخانًا من سيجارته. حين أخبرته بما أصابها، صمت للحظات. هو لم يلتقها، في حياته، سوى مرّة أو مرتين، وشعرت كما لو أنه مهتمًا بها أكثر من اهتمامه بي. صحيح أنها أجمل منّي، بشامة واضحة أسفل شفتيها، لكنه على علاقة معي وليس معها. لقد فقدت عقلها، ولا واحد من الأطباء يتوقّع أن تُشفى. حُكم عليها، وهي في

الثّانية والعشرين، أن تقضي بقية عمرهـا، في سجن الاضطرابات النّفسية، تُحادث أشباحًا، وتشيح بوجهها عمن يُحبونها.

- ألا تفكرين في العودة إلى سراييفو؟

سأفكر في العودة، لكن ليس إلى سراييفو الحاضر، فقد كان يجب أن أخرج إلى الحياة عشرين عامًا قبل ولادتي الطّبيعية، لأُعاصر الأوقات الزّاهية، وأُشاهد مدينتي في أيامها التي لن تتكرّر. شبابي كلّه ضاع منّي. فعندما تهاوى جدار برلين، تحت ضربات مطارق ومعاول وجرّافات الألمان، تساقطت الحجارة على رؤوسنا. هلّل العالم لفتح جديد، وأوغلنا في ليل طويل.

- لا أعرف.

ثمّ بصقت علكة كنت ألوكها، وقمت من حافة السّرير، لأحضر له قهوة، دون أن يطلبها منّي.

سنوات اختفى فيها غوران، عن عينيّ، واعتقدت أنني لن أراه من جديد، وحين عثرت عليه، بالصّدفة، وجدته يُمسك بيد امرأة، لا أطيق النّظر فيها. «لم تكن سوى نزوة عابرة»، قال لي، وهو يمسّد على شعري الجافّ، الذي يُشبه غابة امتنع عنها المطر. صدّقته وأقنعت نفسي بكلامه. «لم أتوقّف عن التّفكير فيك، طوال هذه السّنوات»، أضاف. وأخذ يتقرّب إليّ، بكلمات مُصالحة، لينسيني ذلك المشهد المُقزّز، الذي رأيته فيه، وينفخ العاطفة التي كادت أن تخبو بيننا. يستحضر ذكريات جمعتنا، ويحكي لي عن شقائه منذ مغادرته إلى المنفى.

- لم أجد عملاً في فرنكفورت، ثم طُردت من الغرفة، التي تقاسمتها مع بوسنيين آخرين. لفقوا لي تهمة سرقة أموال

وأنا بريء منها. فكرت في الذّهاب إلى فرنسا، لكنني تردّدت، فأنا لا أعرف أحدًا هناك. جئت إلى ليوبليانا، سكنت حجرة ضيّقة، عملت في مزارع البطاطا والذّرة، ثم صرت نادلاً، قبل عام، في مقهى يُديره رجل عربي. تشاجرت معه ووجدتني أعمل في إسطبل خيول؛ أخرجها صباحًا إلى الحقل، أنظف الإسطبل، أنثر على أرضيّته نشارة ورملاً ناعمًا وعلفًا، أُراقبها وأحرسها، إلى ما بعد الظّهر، أعيدها إلى الإسطبل، أملأ أوعية الماء، وأنصرف.

تخلّى عن أحلامه في كرة القدم وفي التّزلج الفنّي، بات يعيش بين روث الحيوانات ووضعني في حيرة من أمري. الرّجل الذي أحبّه عمل في المكان نفسه الذي أعمل فيه، وهو في خصام مع ربّ عملي. أحمد أو أمد لم يُخبرني أن غوران عمل نادلاً في مقهاه، وغوران بدا لي حاقدًا على ذلك العربي الأعرج.

تمدّد على السّرير، مُرتديًا سروال جينز أزرق وجاكيت حمراء، عليها شعار شيكاغو بولس لكرة السّلة، وأردف:

- لم أندم على شيء سوى على عدم حضور جنازة والدي. حين مات، برصاصة قنّاص، كان الهاتف مقطوعًا. لم تبلغني شقيقتي ناتاشا بالأمر سوى بعد انقضاء خمسة أشهر من وقوعه.

أحسست برغبة في أن أحضنه في صدري، وهو يُداري شجنًا دفينًا، لا يظهر على ملامحه. والده عمل ماسحًا للأحذية، في باشتشارشيا. يُلمّع أحذية المارّة، من شباب وكهول، ويوفّر لعائلته لقمة كي لا يجوعوا. ثم صار حمّالاً في مصنع أقمشة واعوجّ ظهره من

ثقل الحمولات. وفي الأخير، فارق ابنه البكر، ومات برصاصة، ودُفن مثل أبـــي، في صمت، وفي الصّباح الباكر. فقد كـــان البوســـنيون يدفنون أمواتهم، مع الفجر، خوفًا من أن يُقتلوا، ويتحوّل المشـــيّعون إلى موتى هم أيضًا.

وضعت فنجان قهوة، على الطّاولة، فقام من السّرير وعـــاد إلى الكرسي الوحيد، في الغرفة، وأخذت أنـــا مكانـــه. أطفـــأ عقـــب سيجارته، بنرفزة، وأخبرني أنه حين غادر سراييفو، ذهـــب أولاً إلى سبْليت، في كرواتيا.

- أقمت أسبوعًا، في قاعة رياضية مغطّاة، مع عائلات اللاجئين. كنّا نفترش الأرض، نأكل رغيفا من الخبز ونشرب مـــاءً، لا أكثر، ولا ننام ليلاً، بسبب بكاء وصراخ الرّضع، الذين لم تجد أمهاتهم حليبًا لهم لإسكاتهم، ونقضي حاجاتنا، أسفل حيطان، وفي زوايا مُعتمة، كما لو أننا حيوانات بريّة، فالرّوائح الكريهة طوّقتنا، من كلّ مكان، ونحن نحاول تناســـيها، بـــالتّفكير في مصائر ألطف قد نجدها، حين نصل إلى منافينا.

من سبْليت، ذهب إلى النّمسا، ومن هناك عبر إلى ألمانيا.

- اعتقدت أنني سأجد عملاً مستقرًا، أؤجّر شـــقّة صـــغيرة، وأتّصل بك للالتحاق بـــي.

لا بدّ أنه قالها لي فقط لاســـتدرار عطفـــي وودّي. في ذلـــك الوقت، لم أكن أمتلك جواز سفر. كانت الدّولة مشغولة بالدّفاع عن نفسها، لا بالتّفكير في طبع وثائق شخصية لمُواطنيها. لو كنت أمتلك جوازًا لغادرت، في السّنة الأولى من الحرب، لوصلت إلى مكان آخر، يُقدّر قيمتي ويمنحني فرصة لتطوير مشاريعي المســـرحية، أو كنـــت

سأفشل في رحلتي مثلما حصل معه، وأعود مُحبطة.

- ما رأيك أن نخرج قليلاً؟

شعرت أن الجوّ بات ثقيلاً في الغرفة، وأنه قلق ومُتعب نفسيًا، لا يكمل سيجارة حتى يشعل أخرى. اقترحت عليه أن نتمشّى، ثم نأكل في مكان ما، على أن يذهب بعدها، إلى غرفته، في الضّفة الأخرى من المدينة، ويحضر أغراضه الضّرورية، ليُقيم معي.

- أنا لا أحمل معي مالاً!

شممت فيه رائحة أبي، ينفق ماله على نساء بغيضات، ويتمنّع عن صرفها عن نفسه أو عمن يحبّ.

- لا مشكلة.

عبرنا شارع تروبار، وهو يُحاول الإمساك بيدي، وأنا أبعدها عنه. لم أوّد أن يشعر أنني فتاة سهلة. لا شكّ أنه قضى سنوات، بين أحضان نساء أخريات، وأراد أن يستعيدني، لأنه لم يجد من تتقبّل وقاحاته، وتتأقلم مع مزاجه. تبادلنا طوال الطريق، كلمات مقتضبة، ولم نتحدّث في موضوع معيّن. بعد نصف ساعة من الخطوات المتثاقلة، وصلنا إلى المطعم التّركي. وجدت لوتْسيا، كالعادة، توزّع ابتسامات جافّة. جلسنا حول طاولة، على طرف المطعم، تركت قارئة الفنجان خلف ظهري، وطلبت، دون أن أستشير رأيه، صحنا كباب وقارورتا كوكتا صغيرتين.

- كم عملت في المقهى؟

- أربعة أشهر.

- لماذا تشاجرت مع صاحبه؟

- هي قصّة طويلة.

ركّز نظره في الصّحن أمامه، وراح يملأ فمه بالأكل، يمضغ ويبلع، كما لو أنّه سجين محروم من الطّعام. خيّل إليّ أنّ لا شيء دخل معدته من أيّام. لم أصرّ على تكرار السّؤال، كي لا يشعر أنني أضغط عليه. انتظرت إلى أن انتهى من الأكل، هدأ باله، وصار وديعًا كطفل صغير. ثمّ أخبرني، وعيناه تكادان تدمعان أن رجلاً بوسنيًا لا يعرفه، كان يتردّد على المقهى، وصفه بالجاسوس والمُتعاون مع التشتنيك. أخبر صاحب المقهى أن غوران تعامل مع الصّرب، وحمل لهم أنباءً عن أمكنة اختباء فرقة من جيش «الأرميا»، الذي كان يحمي سراييفو، وأغاروا عليها، ثم ردّوا له الجميل بأن سمحوا له بمغادرة المدينة، التي كانوا يُحاصرونها، في أمان.

- غادرت بعدما دفعت لهم رشوة وليس بسبب وشاية. سلّمتهم كلّ ما كانت تملك عائلتي من ذهب ومن ماركة ألمانية، ليسمحوا لي بالمرور ومواصلة طريقي إلى موستار ثم إلى سبْليت.

صاحب المقهى صدّق رواية النّمام ولم يسمح لغوران بالدّفاع عن نفسه. طرده وشتمه. طلب منه غوران أن يدفع له راتب شهره الأخير، لكن العربي الأعرج نعته بـ«ابن زنا»، هدّده بالاتّصال بالشّرطة إذا عاد إلى المقهى، فانصرف مدحورًا مذلولاً.

- سيدفع الثّمن.

أنا لا أشكّ في براءته من التّهمة المنسوبة إليه، لكن هو أيضًا يجب أن لا يشكّ فيّ، ويُدرك أن عملي في ذلك المقهى، فرضته عليّ ضرورة، لم أجد بديلاً عنها.

- سأطلب مع صاحب المقهى أن يدفع لك مستحقاتك.

اعتقدت أنني أقول كلامًا صائبًا بهذا المقترح، وأنني أُساعده على تجاوز أسفه وغضبه.

- لا تذهبـــي إلى ذلك المكان. سأستعيد حقّي بيدي.
- لكنني أعمل هناك.

تغيّر لون وجهه، وهو يسمع ردّي. مـــا أن أكملـــت جملـــتي الأخيرة حتّى فتح فمه على اتّساعه، كما لو أنه سمع خبرًا صـــادمًا. شعرت أن الوقت قد توقّف، في تلك اللحظة، وأنني اقترفت ذنبًا لن أجد مخرجًا منه. ضرب يدًا بيد، وضع راحة يده على جبهته، أغمض عينيه، زفر بعمق وصمت.

# صمت يُطوّقني

لم أحتج إلى أكثر من ثلث ساعة لأتعلّم صنع القهوة من الماكينة، أُجيد تحضير الإسبريسو والأمريكانو والقهوة بالحليب. دلّني سي أحمد على أمكنة المشروبات الأخرى، المحفوظة داخل ثلاجة صغيرة، وانطلقنا في العمل عند السّابعة صباحًا. أضع الطّلبات على الكونتوار، ويتكفّل هو بتقديمها لزبائن قلائل، يشربون قهوتهم، وهم يكرّرون «جوْيا» عند الوصول، ومثلها عند المغادرة. بعد مضي ساعتين، التحق بنا يانيس، صديق عمّي المقرّب. يعمل في مزرعة نحل، ويعزف على غيثار كهربائي، مع فرقة روك هاوية، في أوقات الفراغ. ناب عنّي، وصرت فقط مساعدًا له، إلى غاية الواحدة زوالاً، حيث وصل النّادل ألياش، مُنشرح الأسارير، وشغل مكان سي أحمد، الذي توارى خلف صندوق المال.

بدا لي عملاً مسليًا. عمّي ظهرت عليه أمارات الرّضا، لم يرفع صوته، وهو يردّد طلباته لي، ولم يتأفّف. عندما وصل يانيس وشغل مكاني، لاحظت أن وتيرة الطّلبات زادت، وابتسامة عمّي اتّسعت. أظنّ أن يانيس متعوّد على العمل في المقهى، فقد شاهدته يتصرّف بشكل تلقائي، يعرف أمكنة كلّ شيء، ويلبي طلبات الزّبائن، بخفّة. موسيقى تصدح من الرّاديو، المعلّق أعلى ماكينة القهوة، مع مكبّرات صوت، مثبّتة في زوايا تريغلاو، كانت تملأ المكان. موسيقى

محليّة وأغانٍ لا أفهم كلماتها، تتخلّلها ومضات إخبارية. تمنّيت لو أنّ سي أحمد وضع شريطًا أو قرص أغانٍ جزائرية، كانت ربما ستُعجب الزّبائن، وتزيد من فضولهم للتردّد على المقهى.

مُخيّلتي لم تتعوّد سوى على المقاهي الجزائرية، على ضجرها وصخبها ومفارقاتها؛ مقاهٍ ترتفع فيها أصوات الزّبائن وتختلط مع الأغاني الشّعبية أو آهات مغنيّ الرّاي، ولم تتعوّد على هدوء مقاهٍ مثل مقهى تريغلاو وموسيقاه الوديعة. تدرّبت أذناي على أغنيات الهاشمي قروابي ودحمان الحراشي والحاجّ العنقى. ثم، بعد المراهقة وتغيّر وجه البلد، اكتشفت الرّاي. صرت أسمع فضيلة وصحراوي وحسني ومامي ونصرو وخصوصًا خالد، الذي يخلّص مليكة من كآبتها، دون أن أنقطع عن سماع الشّعبي. أن تكون من الجزائر العاصمة يعني بالضّرورة أن تعرف قصائد شيوخ الشّعبي، وتحفظ بعضًا منها عن ظهر قلب، أن تستخرج من كلامهم أمثالاً وحكمًا، أن تستبدل الطّاء والثّاء بالتّاء، كقول «تريق» بدل طريق، أو «تقيل» بدل ثقيل، أن تصغّر الأسماء؛ فطّوم بدل فاطمة، بهيجة بدل بهجة، مريزق بدل مروزق، أن تأكل السّردين، مرّة على الأقل في الشّهر، أن تلبس بذلة شنغهاي الزّرقاء، التي يرتديها الحمّالون في الميناء، أن تعرف أزقة القصبة، وبعض تفصيلات معركة الجزائر، وتزور، من حين إلى آخر، مقام سيدي عبد الرحمن الثّعالبي، وتشعل شمعة، وتتذرع له بالدّعاء. أن تكون من الجزائر العاصمة يعني أن تفهم العربية والفرنسية والأمازيغية، وتشتكي من الغرباء، الذين يأتون إليها من مدن داخلية، أن تتحدّث بإيقاع بطيء، وتتعلّم السّباحة، في الصّغر، في شاطئ وليس في مسبح، والأهمّ من كلّ ذلك، العاصمي هو من

يحرس الأموات، ويعرف جغرافيا المقابر، فهو يُدرك أنه لم يَبن لا هو ولا أجداده شيئًا يُذكر، بل يسكنون البيوت التي وجدوها، وعاش فيها غزاة من قبلهم، ففي الجزائر العاصمة، نمتلك الحقّ في الموت والدّفن، لا الحقّ في التّحرّر أو في عيش مستقرّ. العاصمة أو «آلجي» أو إيكوزيوم، كما سمّاها الرّومان، هي أرض للعابرين. مرفأ الرقّ والقراصنة، في زمن قديم، كانت موطناً لدايات وباشوات وآغاوات. خلوة النسّاك من يهود ونصارى ومسلمين. كلّ واحد من العابرين دسّ في تربتها بذورًا تنمو أو تتحوّل. من جيل إلى آخر، يجد أبناؤها أنفسهم وقد تبدّلوا وانتحلوا صفات غير التي وجدوا عليها آباءهم.

تركت عمّي في المقهى وعدت إلى البيت. وجدت نادا تُجالس سفيان وخالد، حول طاولة الطّعام، بعد عودتهما من المدرسة. فمناهج التّعليم في هذا البلد تختلف عن مناهجنا. الأطفال يدرسون دوامًا واحدًا، ويعودون بعد الظهر إلى بيوتهم، يلعبون ويقومون بواجباتهم المنزلية. أما نحن فكنّا ندرس بدوامين، في الصّباح وبعد الظّهر، ثم نعود جياعًا إلى بيوتنا، مُرهقين، كما لو كنّا نفتت الصّخر، لا رغبة لنا سوى في الاسترخاء والكسل. في مدارسهم، لا يتجاوز تلاميذ القسم الواحد خمسة عشر طفلاً، بينما في المدرسة الابتدائية، التي تعلّمت فيها الحساب واللغة وأساسيات علوم الطّبيعة، كنّا ثلاثين تلميذًا في القسم، والمعلّمة أحياناً تنسى أسماءنا. وهناك مُرشد بيداغوجي يُساعد التّلاميذ ويتواصل مع أوليائهم، أما نحن فلا مُرشد لنا سوى العصا، التي كانت تنزل على أطراف أصابعنا الطّرية، وخوفنا العميق من المعلّمة، التي كانت، حين يشتط بها الغضب من أحد التّلاميذ، تطلب منه الوقوف، قبالة السّبورة، ثمّ تأمره بإنزال

سرواله، بينما نحن نهمس ونضحك، كي لا يكرّر مُشاغبته أو كي يهتمّ بإنجاز الفروض المنزلية.

نادا مُحمرّة الخدّين، بوجه مُستطيل، يُشبه وجه داليدا، أنف دقيق، وعينان زرقاوان واسعان وشعر أسود، دخلت عقدها الخامس. والدها تقاعد، في أواخر الثّمانينيات، برتبة عقيد في جيش يوغسلافيا. استاءَ من ارتباطها بعمّي وخاصمها عامًا كاملاً. طردها من البيت ورفض أن يكلّمها. «حقد عليّ»، حدّثني سي أحمد مرّة. أتخيّل والدها في صورة رجل حادّ الطّباع مثل الحاجّ، يرتدي قبعة عسكرية، عليها نجمة حمراء، يتّكئ على دبابة، أو يهرول وفي يده رشاش. كان يمنّي نفسه أن ترتبط ابنته برجل أوروبي أبيض، يا حبّذا من سلوفيني، لا أن ترتبط برجل «غريب»، كما قال عنه.

بعد ولادة ابنها البكر سفيان، الذي يشبهها في لون العينين، ثم خالد، الذي يُشبه سي أحمد، بعينين بنيّتين، تصالح والدها معهما. بل صار يدعوهما، إلى بيته، في الكريسماس أو عيد الفصح، للغداء أو لشرب القهوة. يُلاعب طفليها، وينكت ويضحك معهما، كما لو أن شيئًا لم يحصل.

أعتقد أن سي أحمد لا يختلف عن شقيقه في تصرّفاته؛ عسكري وصارم وقليل الابتسام. لا أعرف كيف استطاعت نادا، الرّقيقة والهادئة، تحمّل تقلّباته، ولا أعرف كيف اختارها شريكة له في العمل وفي الحياة. هما مُختلفان في أشياء كثيرة. لكن، والحقّ يُقال، الخلافات كلّها تزول أمام عينيها العميقتين وشفتيها العسليتين، فعمّي يبدو أنه من معتنقي الحُسن، قد يكون ارتبط بها، لجمالها وصفاء بشرتها.

قامت من مقعدها، وظهر خصرها المشدود. وأخرجت، من الفرن، طبق نقانق، وضعته أمامي، وهي تردّد تسمية تلك النّقانق بالسلوفينية:

- كلوباسا.

أكلت قطعة واحدة، كي أبدو مهذبًا أمامها، وأمام ابني عمّي، أتبعتها بكأس صغيرة من الشنابس، الذي يحرق الشفّتين والحلقوم، قبل أن يبثّ دفئًا في المعدة، ثم استسمحتهم، بابتسامة خجولة، للذهاب إلى غرفتي، لأرتاح. فقد رغبت في قضاء قيلولة قصيرة، أخرج بعدها للتّسكع، لعلني ألتقي لورينا، التي صادفتها في حفلة «لاياخ»، أو أي جميلة أُخرى، تخفّف عنّي شعوري بالملل والوحدة.

منذ وصولي إلى هذه العمارة، لا أكاد أسمع سوى الصّمت. هي ليست مثل عمارات الجزائر العاصمة، التي يتشاجر في بهوها الأطفال صباحًا، ويرتفع فيها عواء الكبار مساءً، ويدقّ فيها الجيران أبواب بعضهم بعضا في كلّ وقت، دون احترام للخصوصيات. في هذه العمارة السلوفينية، التي يبدو أنها بُنيت حديثًا، لم أسمع بكاء أطفال أو رضع، ولا نُباح كلاب أو مواء قطط، مع أن كلّ شقّة يسكنها كلب أو قطّ، عدا شقّة سي أحمد، الذي يتطيّر من الكلاب، ولا سيّما السّوداء منها. لم يخطئ من قال أن الصّمت لغة سلوفينية.

استلقيت على السّرير، واستمنيت، وأنا أتخيّل إيفانا عارية، بين ذراعي. ثمّ برقت صورة مليكة في ذهني، وندمت. أحسست أنني خُنتها. رحت أفكر فيها وأبحث عن سبب تغيّرها ومعاملتها لي ببرودة. خطر في بالي أن أكتب لها رسالة، أبعثها إليها، على أمل أن تصلها وتقرأها، قبل عودتي إلى البلد. سحبت قلمًا وورقة من

حقيبتي. بدأت الرّسالة بعبارة: «حبيبتي مليكة»، ثم شطبتها، وكتبت: «الغالية مليكة»، ثم شطبتها مرّة أخرى. وجدهما عبارتين مُبتذلتين. كتبت أربعة أسطر، أتحدّث فيها عن اشتياقي لها، وعن قرب عودتي إليها، ثم مزّقت الورقة. كما لو أنّ اللغة خانتني، أو أنني نسيت كيف أكتب نصًّا يُطرب قلب أنثى مُشاكسة. في المدرسة الثّانوية، كنت كاتبًا عموميًا، يحكي لي زملاء قصص حبّهم، وما يُريدون قوله، وأتكفّل بكتابة رسائل إلى حبيباهم، بحروف منمّقة. الفتيات كنّ يفرحن بقراءة تلك الرّسائل، ولا يعلمن أن من كتبها هو شخص آخر وليس حبيبهنّ المفترض. كثيرًا ما صالحت بين حبيبين بكلماتي، وقرّبت بينهما، لكن لا أحد منهم شكرني أو أقرّ بفضلي عليه. يأتون لطلب رسالة حميمة، وحين يستلموها، ينصرفون، مبتسمين، كما لو كنت خادمًا لا أكثر. لكنني كنت أفرح حين أرى الرضا على وجوههم، وهم مُبتهجين بعلاقاهم مع فتيات الثّانوية. كنت أجد بسهولة كلمات، للآخرين، وأجدني عاجزًا على إيجاد كلمات تليق بمليكة. تخلّيت عن فكرة كتابة رسالة إليها، وقرّرت أن أنتظر لقائي بها، لأحكي لها مباشرة ما أردت أن أكتبه لها.

سحبت ورقة أخرى وشرعت أكتب شيئًا مختلفًا، نصًا بلا شكل واضح، مُلاحظات متفرّقة عن ليوبليانا، أشبه ما تكون بانطباعات عابر سبيل. أسرد فيه ما أحسست به في مدينة غارقة في التّأمل، قبل أن أسمع باب الشّقة يُفتح، بحركة عنيفة. توقّفت عن الكتابة، ووصلني وقع أقدام عمّي. جاء مبكرًا، على غير العادة، وقد تركته في المقهى، بنية أن يبقى هناك إلى المساء. أعدت الورقة والقلم إلى الحقيبة، نظرت إلى وجهي في المرآة، صففت شعري مع بُصاق

خفيف في يديّ، وخرجت من الغرفة لأراه، وأثرثر معه. شاهدته يجلس، في الصّالون، على الأريكة، بوجه صارم، لم أعهده عليه، مع جرح يظهر أسفل عينه اليسرى، ونادا تقف أمامه، وهما يتحدّثان، في جوّ مشحون، بسلوفينية لم ألتقط منها سوى كلمة «كوربا». حين انتبه لوجودي، حاول أن يبتسم، مثل شخص يتظاهر بالسّرور للقاء من لا يُطيقه، وعدّل جلسته. نظر إلى زوجته، وأشار إليها بأن تتوقّف عن الكلام.

- هل ارتحت؟
- نعم.

انسحبت نادا، إلى غرفة طفليها، وأخبرني أنّ عراكًا صغيرًا، وقع في المقهى، بعد انصرافي منه.

- صعاليك تناولوا مشروبات ورفضوا دفع الحساب.

أخذ دُشًّا، غيّر ملابسه، وأخبرني أنه سيرتاح قليلاً، في غرفته، ثم يعود إلى المقهى. تعاطفت معه، في سرّي، فلم يكن بالإمكان أن أفعل شيئًا آخر، لو كنت حاضرًا لحظة الواقعة، لتدخّلت للدّفاع عنه. أُفضل أن تنزل ضربة على وجهي، بدل وجهه، كي لا يظهر في تلك الصّورة الحرجة أمام زوجته. حملت حقيبتي، وأنا أتذكّر متعة العمل في المقهى، ذلك الصّباح، وخرجت بحثًا عن مكان مُناسب لتسويد الورق بما أرغب في كتابته وتدوينه.

# شجرة العزلة

رفعت كأسًا، من طاولة مُجاورة، وضربته على وجهه. فقد استفزّني بشتائمه لي، وانتقل صوتي من هدوء إلى نحيب. أخذت أطرافي ترتجف، وشفتاي كذلك. تحوّلت من امرأة مُسالمة إلى عدوانية ووقحة ولم أتورّع عن الردّ على بذاءته وسبّ أمّه. صفعني وبصق عليّ ثم قذف مطفأة سجائر زجاجية على صدري، سقطت وتحطّمت. لم أعرف ماذا أفعل سوى الهروب إلى الخارج، باكية. ركضت، دون أن أنتبه إلى السّيارات، التي كادت أن تدهسني واحدة منها، وأنا أمسح بصقته على خدّي، دون أن ألتفت إلى الخلف. أردت فقط أن أسترد حقّ غوران، ويدفع لي ما تبقى من مستحقاتي، وأنصرف بأمان. لكنه عاند، سخر منّي، ووصفني بـ«براسيتسا»، الفاجرة. بقيت أنظر إليه، أسمع كلماته دون أن أردّ، إلى أن نطق كلمة «عاهرة»، ببوسنية عاميّة، فوجدتني أشتمه وأضربه بكأس، وأتلقى صفعة وبصقة منه، ثم أركض كمعتوهة في الشّارع.

منذ بوريس، لم يمسسني رجل سواه. استسلمت له، عن جبن وخوف من فقد دخلي الوحيد. لم أمنح رجلاً آخر فرصة الاقتراب منّي أو التّفكير في الانفراد بي، وتمنّعت عن غوران، في الليلة الأولى، كي لا يعتقد أنني امرأة سهلة. خضعت، في لحظات ضعف، لذلك الأعرج، ومنحته لذّات عابرة، دائمًا ما انتهت بصمت ثقيل،

بسبب عجزه عن قذف قطرة واحدة من آلته، ولم أتخيّل أن يستخدم ضعفي سلاحًا ضدّي، ويصفني بأقبح نعت أقبل سماعه عن نفسي.

دخل غوران، إلى الغرفة، مبتسمًا وهو يحمل حقيبة بيده اليمنى، وعلبة شكولاتة «بيادِرا»، التي تصنع من السّكر والزّبدة والفواكه المجفّفة، بيده اليسرى.

- هل تأكلين؟
- كلا.
- تتبعين حمية غذائية؟
- كلا.

فهم أن لا رغبة لي في تحلية لساني ولا في الكلام. كنت أجلس، في السّرير، أضمّ ركبتاي إلى وجهي، وأُحوطهما بذراعي، كطفلة مفزوعة. وضع حقيبته على الأرض، وعلبة الشّكولاتة على الطّاولة. دنا منّي، ربت على كتفي، وسألني:

- ما بك؟
- لا شيء.
- تركتك بخير. ماذا حصل؟

في السّاعتين اللتين غاب فيهما، وذهب لإحضار أغراض شخصية له، انقلبت حياتي رأسًا على عقب، وعدت إلى نقطة الصّفر. شعرت أنني ضيّعت، كلّ ما أملك، بعدما ظننت أن أموري كلّها تسير بخير.

- لقد تركت العمل في مقهى تريغلاو.

قلتها له، وأنا أنظر إلى الخزانة، المُنتصبة أمامي، دون أن ألتفت إليه. خرجت الجملة، من بين شفتي، كما لو أنني أخبره نبأ عاديًا،

متجاهلة ما يترتّب عنه، من تضييع لفرصتي الوحيدة في كسب مال، وفي دفع إيجار الغرفة. لم يُعلق على كلامي. اكتفى فقط بسحب يده عن كتفي، واعتدل في جلسته، كما لو أنه يتواطؤ مع جملة أمّي الرّتيبة: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها».

فتح علبة البيادِرا، وأرغمني على ابتلاع قطعة منها.

- لماذا؟

- تشاجرت مع صاحب المقهى لعدم دفعه راتبًا متأخرًا لي.

كذبت عليه، كي لا أظلمه وأربط السّبب به. هو لم يطلب منّي أن أدافع عنه، فقد كلّفت نفسي بما لا يحقّ لي. لم أشأ أن أخبره بالتّفصيلات، عن حماقتي في ضربه بكأس، أسال دمًا أسفل عينه، ولا عن وصفه لي بعاهرة. رغبت في البكاء، لكنني تمنعت، فليس من اللائق أن أظهر أمامه، في صورة ضعف، ونحن في بدايات استعادة ماضينا.

- ستجدين عملاً آخر، أفضل منه.

لا عمل لي أفضل من العودة إلى المسرح، إلى التّمثيل والاستلقاء فوق الرّكح على ظهري، وإغماض عينيّ، قبل بداية كلّ عرض. لكن طُرق العودة تشتّتت، وإذا قُدّر لي ووجدت وظيفة أخرى، لن تكون سوى نادلة، خادمة، خانعة، مسلوبة الصّوت والحقّ في الردّ. قارئة الفنجان لم تُخطئ فيما قالت لي. رأت تفاحة مقضومة، مما يعني أن مشكلاً كان في انتظاري، وقد وقعت فيه وانتهى. ورأت سهمًا يتّجه نحو الأعلى مما يُنبأ بحدث سعيد، وقد عشته بعد لقائي بغوران. وحذّرتني من اتّخاذ قرار مهمّ في حياتي، لست أعرف ماذا سيكون، وماهي تبعاته. ربما قصدت قراري بضرب ذلك العربي على

وجهه، وخدش ملمحه البائس. كلّ شـــيء حـــدث وانقضـــى ولا يُمكنني العودة إلى تريغلاو، والأسوأ من ذلك عليّ البحث عن مصدر دخل آخر. في كلّ الحالات، لن أموت جوعًا. فقد عشت مـــا هـــو أفدح في سراييفو، كنت أشرب من ماء ميلياتسكا، دون أن أغليـــه. عشت، وقت الحرب، على القليل من الأرز والعجائن، و لم أمـــرض. لم يكن بوسعنا شراء بيضة واحدة أو شريحة لحم، مع ذلك صـــمدنا ونجونا. في حال تحتم عليّ الأمر، سأذهب إلى المزارع، القريبة مـــن ليوبليانا، وأجمع الذّر والبطاطا، وأُقاوم الجوع، إلى أن أتدبّر أمـــري. المهمّ أن أُحافظ على غوران، ولا يتخلّى عنّي، فأنا مُحتاجة إلى قربه منّي وأن يطمئنني بأن كلّ شيء بخير.

الخسارة الوحيدة أنني لن ألتقي سليم، ولن أتّكل عليه في إتمـــام المسرحيّة. عدا ذلك، فالأمور الأخرى يُمكن تداركها. لقد أحببـــت أن أتحدّث معه في موضوعات كثيرة، أن أساله عن الأمير عبد القادر، الذي قرأنا عنه في المدرسة، عن القديس أوغسطين، الـــذي قـــرأت صفحات من كتابه «الاعترافات»، وعن جميلة بوحيرد، التي سمعـــت عنها في سراييفو، عن المُناضلات الجزائريات، اللواتي كـــنّ يلطخّـــن أجسادهن بالرّوث والبراز، كي لا يقربهنّ جنود الجيش الفرنســـي. أردت أن أساله عن الطّوارق وعن العيش في الصّحراء، وأحدّثه عـــن المسرح والسّينما، والأشياء الصّغيرة، التي أحبّها والتي لا أحبّهـــا في الحياة. ومن المُحزن أنني لن أراه، من جديد، لكنني سأعيد له الرّواية، التي سلّمني إياها، فلن أجد وقتًا لإتمام قراءتها. قد أرسلها له مع أزرا. وإن سألتني عن سبب خلافي مع صاحب المقهى، أختلـــق لهـــا أي حكاية أخرى، كأن أقول لها أنه حـــاول أن يعتـــدي علـــيّ، أو أن

يتحرّش بـــي، و لم أفعل شيئًا سوى الدّفاع عن نفسي. المهـــمّ أن لا أقحم اسم غوران في القضية، ولن أخبرها بأنه عمل نادلاً، في المكان ذاته، قبلي. لا أريد أن أُسيء إليه، أو أن تسمع ما يُروّج عنه من تهمّة التّعاون مع الأعداء، سنوات القنص والقذائف. لكنني أعلم أن ذلـــك العربـــي، العاجز عن القذف، قد يحكي لنهادا ما حصل بالتّفصـــيل، وتُخبر أزرا بالحقيقة، وأصير في حرج معها. لقد ساعدتني، في المجيء إلى ليوبليانا، وقفت، إلى جانبـــي، في الأيّام الأولى، وتوجّب علي أن أكافئها، لا أن أخيّب ظنها في. لكن، عليها أن تتقبّلني كمـــا أنـــا، بصبري ومزاجيتي ووقاحتي.

كنت أعيش عزلة منفردة، أتحّملها وأحاول أن أنسجم معهـــا، ثم جاء غوران، وشعرت كما لو أن أحدًا حقنني بمصل الأمل، وبتنـــا نقتسم عزلتنا معًا. هذه العزلة لن تقتلنا، بل تُعلّمنا كيف نتعدّد. علينا أن نتحمّل بعضنا بعضًا، يُساعد أحدنا الآخر، فنحن الاثنان غريبان، تعيسان ومنحوسان، ولا قدر آخر لنا عدا التّيه. أظنّ أن الحـــرب لم تحمل فقط فواجع، بل أيضًا حسنات، علّمت البوسنيين رياضة كانوا يجهلونها؛ رياضة التّرحال والسّفر والاغتراب، لو لم تندلع الحـــرب، لكنّا ما زلنا في سراييفو، نؤثّث يومياتنا بالملل ولعن الحـــظّ، الـــذي أوجدنا في مدينة زئبقية مُراوغة. قد نجعل من عزلتنا، أنا وغـــوران، شجرة بلوط، نتدفأ من ورقها، ونأكل من ثمارها. لقد اخترنا مغادرة أرضنا، ولا بدّ أن ندفع ثمنًا، قبل أن نلقى جزاءً في انتظارنا.

# مسيرة الحجّاج

عثرت على مكتبة عامّة، مُختبئة في نفق، يصل بين شارعين رئيسيين. حيطانها تصطف فيها صور كتّاب سلوفينيين، ويُمكن أن أشرب فيها قهوة وأدخن في واحد من أركانها. وأستطيع أن أستغرق فيها، في التّفكير، وفي التّلصّص على وجوه ومؤخرات فتيات، يتحلّقن حول طاولات، للمطالعة أو الدّردشة، بصوت خافت. وجدت في تلك المكتبة جناحًا لكتب بالفرنسية؛ بعض روايات محمّد ديب، آسيا جبّار، إدريس شرايبي، أندريه مالرو، رومان غاري، وغيرهم. شرعت أدوّن ملاحظات عن رحلتي هذه إلى سلوفينيا، ثمّ وجدتني أتصفّح قصائدَ لسنغور. جلست قبالتي، في الطّرف الآخر من الطّاولة، مُراهقة شقراء، بشعر منفوش. سحبت، بنرفزة، كتابًا وكرّاسا، من حقيبتها، وأخذت تتصفّحهما بيدين مُرتجفتين. عيناها الزّرقاوان وخدّاها الورديان زادوها جمالاً، لكنها بدت مُستاءة أو غاضبة من شيء ما. حاولت لفت انتباهها إليّ وأطلت النّظر إليها. وحين رفعت رأسها تجاهي، ابتسمت لها وبادلتني الابتسامة. ركّزت النّظر في وجهها الدّائري المُشرق، ولاحظت وشمًا، بشكل نجمة، أعلى عنقها. اعتقدت أنني في الطّريق الصّحيح، وأنني، أخيرًا، لفتّ انتباه واحدة من بنات هذه المدينة المُحتشمة. عُدت لمطالعة نصوص سنغور، وأنا أنتظر اللحظة المُناسبة، لأجد سببًا للحديث معها.

انشغلَت بالكتاب والكرّاس، اللذين بين يديها، ولم تُبالِ بوجودي أمامها. تشجّعت وفاتحتها بالكلام. سألتها بالإنجليزية ماذا تقرأ. نظرت إليّ دون أن تردّ. كرّرت سؤالي لها، فرطنت بكلام غير مفهوم، وأدركت أنها لا تفهم الإنجليزية، وتخلّيت عن فكرة مغازلتها، وعدت إلى قراءتي، وبعد لحظات، وقفت امرأة، في حدود الأربعين، أمامها، وحدّثتها، في البدء، بصوت مُنخفض، وتلك المُراهقة الشّقراء لا تردّ عليها، ثمّ سرعان ما تحوّل صوتها إلى تأنيب وتوبيخ، أو هكذا فهمت من حركات يديها وملامح وجهها. جمعت المُراهقة أغراضها، واتّجهت إلى مخرج المكتبة، ثم تقدّمت منّي تلك المرأة، طويلة القامة، التي يبدو أنها شعرت بحرج منّي، لأنني شاهدت ما دار بينهن، وكلّمتني هي أيضًا بالسلوفينية. رددت عليها:

- لا أفهم السلوفينية.
- آسفة. آسفة.

وواصلت بإنجليزية: «ابنتي تُعاني من اضطرابات نفسيّة. وقد تأخّرت عن موعدها مع الطّبيب. أنا كلاوديا، أعمل ممرّضة، تقبّل اعتذاري لو سبّبت لك أي حرج، أو أزعجتك في مُطالعتك»، ثم صافحتني، وهي تحدّق إليّ بعينين متودّدتين، وانصرفت، بخطى مُتسارعة، وبوجه عابس، يبتذل الابتسام.

ذهبت إلى ركن المكتبة، المُخصّص للمُدخنين، حيث وجدت مُراهقات ومُراهقين يدخّنون ويُثرثرون. وقفت وسطهم، دون أن يلتفت إليّ أي واحد منهم، وأنا أفكّر في ردّة فعل مليكة لو سمعت أنني فكّرت في مُغازلة «مهبولة». لا بدّ أن تسخر منّي أو تُهينني. لم أتوقّع أبدًا أن أجدني في موقف أخرق وأتصرّف كأبله. أكملت

سيجارتي، عُدت إلى طاولتي، وأنا أفكّر في والدي. لم أُعاود الاتّصال بفاروق كي لا أسمع أخبارًا تعصر القلب وتُضاعف من كآبتي. يبدو أن والدي يعيش قدرًا أشبه بقدر جدّي، والده الحاجّ عبد الرحمن، الذي كان النّاس يُنادونه، اختصارًا، دحّة. انخرط جدّي، في الجيش الفرنسي، وقضى فيه ستّ عشرة سنة، يمتهن الحدادة، في ثكنة بالقرب من بوسعادة، وخرج منها، في العام الذي بدأت فيه الحرب العالمية الثّانية، بما يُشبه منحة تقاعد. منحة سخيّة، بالنّظر إلى الفقر، الذي كان يرزح تحت وطأته النّاس آنذاك، فبعض مئات من الفرنكات وفّرت له حياة مُحترمة. وبعد الحرب، حين تجاوز الأربعين، صار مُرشدًا سياحيًا، يقود قوافل الحجّاج برًّا، من بوسعادة إلى البيت الحرام. كانت تلك الرّحلة الشّاقة تتم خفيّة عن الإدارة الاستعمارية، التي تشرف على الحجّ عن طريق البحر، وتفرض على الرّاغبين في إكمال الرّكن الخامس من الإسلام امتلاك مال كافٍ، أن لا تكون عليهم ديون وأن تكون عائلاتهم في وضع ميسور. فبينما الحجّاج النّظاميون يُسافرون، من مينائي عنابة أو الجزائر العاصمة، كان جدّي يقود قوافله برًّا، مُتحايلاً على قطّاع الطّرق. وخارج موسم الحجّ، يُتاجر دحّة في الغنم، في سوق سيدي عيسى، ويعيش وضعًا مستقرًا، في وقت كان فيه أبناء جلدته يسرح القمل في رؤوسهم ويخيطون ملبسهم من أكياس الطّحين. وحين بلغ السّتين، فقد بصره، ومات كفيفًا. أمّي أخبرتني أنّه أُصيب بالرّمد الحبيبي. لكنها روت لي، بعد ذلك، قصّة أخرى، قالت لي إن جدّي قفز، في صغره، فوق قبر الأمير الهاشمي، نجل الأمير عبد القادر، دون أن يقرأ الفاتحة أو يذكر اسم الله، فدعت عليه سيدة عجوز، أزعجها الأمر،

وأصابته لعنة الميت. انطفأ نور عينيه مثلما حصل للأمير الهاشمي وفاضت روحه. جدّي خبِر حياة العسكر، وأتّم الرّكن الخامس من الدّين ومات كفيفًا، ووالدي مثله، عاش عسكريًّا، وأتمّ أركان الدّين، ومن المحتمل أن يموت بمرض الزهايمر. قدّر لهما أن يُصابا في أواخر حياهما، بمرضين لا شفاء منهما.

تركت أشعار سنغور جانبًا، ورُحت أتصفّح رواية ساخرة، لكاتب من الكاميرون، لكنني لم أستطع التّركيز في القراءة، فقد استفزني منظر يافعين، كانا يجلسان، على مرمى بصري، وهما يتبادلان القبلات، ويلهوان بإثارة بعضهما بعضًا. كانت الفتاة تخرج لساها، ترطّب شفتيها، ثم يطبع الشّاب قبلة خاطفة على شفتها السّفلى، فتضحك. حاولت أن أمنع نفسي، من استراق النّظر إلى قبلاهما، مع أنني حسدت ذلك الأشقر، وتمنّيت لو أنني مكانه. طويت الرّواية وسحبت قطعة خبز، من حقيبتي، ومضغتها، فالخبز هو طعامي المفضّل، الذي لا أستغني عنه، وما هي إلا لحظات حتى وقف عون أمن ضخم، على رأسي، ذكّرني في صور هرقل، أشار بإصبعه إليّ ونطق كلمتين، أدركت منهما أنه يُمنع الأكل في المكتبة، ثم رفع إصبعه، باتجاه مخرج المكتبة، كما لو أنه يأمرني بالأكل خارجًا. انتبهت إلى أن العاشقين، اللذين تلصّصت عليهما، صارا ينظران إليّ، وربما يسخران، في داخلهما، منّي. أحسست بالذّنب، ففي المكتبات العامّة، في الجزائر، يمكن للزّائر أن يأكل ويشرب، في قاعات المُطالعة، وأن ينام أيضًا، دون حرج. لم أردّ على ذلك الحارس الثّخين، الذي لا أدري من أين خرج أو كيف انتبه إليّ أنا، من بين عشرات الجالسين الآخرين. وخمّنت أهم يُراقبون المكان بكاميرات خفية.

«قوّاد»، شتمته في سرّي. أعدت الكتابين إلى مكانهما، جمعت أوراقي، ثمّ انسحبت، مطأطئًا رأسي.

مشيت، بمحاذاة ليوبليانيتسا، وتفرّجت على معروضات باعة الكتب القديمة، ثم توجّهت إلى تريغلاو. أخبرني عمّي، والجرح ما يزال باديًا أسفل عينه اليسرى، أن نادلة جديدة ستحضر، في الغد، تنوب عن إيفانا، التي طلبت إجازة مرضية. «بالشفاء عليها»، قلت له. أشفقت عليها ورجوت أن تشفى من وعكتها وتعود قبل أن أطير إلى الجزائر، وتحضر لي رواية مُراد بورغدة، لأحتفظ بها كتذكار من هذه المدينة، التي فشلت في مُغازلة أي واحدة من بناتها.

في اليوم التّالي، وصلت، بعد منتصف النّهار، إلى المقهى. لمحت ذلك الشّاب المسمّى ميران، ينفث دخّانه كتنين، وهو يلعب بكأسه فارغًا. دائمًا نتبادل النّظرات دون أن نتكلّم مع بعضنا بعضًا. عمّي أخبرني أنه يتيم الأب ويُعامله كابن له. واعتقدت أن أجد ألياش، طويل القامة كلاعبي كرة السّلة، لكنني تفاجأت بملاقاة لورينا، بنفس الابتسامة، التي عرفتها بها، في لقائي الأوّل معها، في حفلة «لاياخ». لم تكن ترتدي تنورة قصيرة سوداء، بل بنطلون جينز وقميصًا أبيض. لا تضع طلاء شفاه، لكنها في كامل بهائها، وهي تسألني ماذا أريد أن أشرب.

– قهوة، من فضلك.

«هل نسيت لقاءنا السّابق، أم كانت مخمورة وقتها و لم أنتبه؟»، تساءلت. ذهبت لتُحضر لي طلبي، وسمعت عمّي، يُناديني. عرّفني بها، بينما يانيس يقف، مبتسمًا، إلى جانبها.

– لورينا، النّادلة الجديدة.

ثمّ تحدّث معها بسلوفينية، ليعرّفها عنّي. صافحتني كما لو أنها تلتقيني، لأوّل مرّة. وددت أن أخبره أنني التقيتها من قبل، وأنّها تفهم الإنجليزية، ويُمكنني أن أتحدّث معها، دون الحاجة إلى ترجمة، ثم تفاديت الأمر، كي لا أشعرها بحرج.

لم أعرف كيف وصلت تلك الشّقراء، المُثيرة، إلى المقهى، لكنني تأكّدت، مرّة أخرى، أن سي أحمد له خيارات صائبة، في انتقاء النّادلات، يختار أجملهن، وأكثرهن شبابًا وجاذبية.

عُدت إلى مكاني، وجاءت تحمل لي كوب القهوة. مازحتها:

- هل من حفلة جديدة لفرقة «لاياخ»؟

ضحكت وردّت عليّ بارتباك، لم تستطع إخفاءه:

- آه، أنت هو الذي التقيته تلك الليلة. ملامحك ليست غريبة عليّ. إذا برمجوا حفلة أخرى، سأخبرك.

هي أطول من إيفانا، وأنحف منها، وأكثر انفتاحًا منها وترحيبًا بالتّواصل معي، أو هكذا شعرت، من مُحادثتي المقتضبة معها. تمنّيت لو أنني تعرّفت عليها، من أيّامي الأولى، كي أحوز وقتًا كافيا، لاستمالة قلبها، وتجريب مغامرة بريئة معها.

## هيروشيما كما تخيّلتها

منذ أن توقّفت عن العمل، في المقهى، تشابهت الأيّام عليّ، وصرت أعيش على مزاج غوران. أستيقظ في السّابعة، أحضر له قهوة، يشربها مع سيجارة، يطبع قبلة على شفتاي ويخرج، ولا يعود قبل الخامسة؛ يغتسل من الرّوائح الكريهة، التي يحملها معه من إسطبل الخيول، يغيّر ملابسه، ونخرج إلى واحد من المطاعم الصّغيرة. ندردش في موضوعات بلا أهمية؛ عن الحياة في سراييفو قبل وبعد الحرب، وعن أوهامه بالهجرة إلى كندا، كما فعل واحد من أصدقائه، وتحريضه لي بأن أُشاركه تلك الفكرة التي علقت بذهنه، ثم نعود إلى غرفتنا، التي تُغلّفها رائحة تُشبه رائحة محلات الخردوات، نُدخّن ونسمع الرّاديو أو نُشاهد التّلفزيون، أو أتصفّح، بملل، رواية «قرية الملائكة». يقضي وطره منّي، غير مبالٍ بضجيج نوابض السّرير المُزعج، دون أن يمهلني وقتًا لقضاء حاجتي منه، وبمجرد القذف يشعر بإعياء وارتخاء، فننام في حضنَيْ بعضنا بعضًا، مثل توأم سيامي.

ذات صباح، بعدما غادر غوران إلى عمله، عادت الشّمس، في خجل، قلّت البرودة واعتدل الجوّ. خرجت للتّسكع وللاطلاع على عروض العمل، التي تعلّق على واجهات المحلاّت والمقاهي والمطاعم، ووجدت نفسي في شارع جانبي، يفضي إلى ليوبليانيتسا، قريبًا من

الجامعة، صادفت على طرفه سينماتيك صغير، على بابه لمحت أفيش فيلم «هيروشيما، حبّي»، كُتب أسفله: «أربعون عامًا مرّت على أقوى قصائد الموجة الجديدة في السّينما». سمعت عن هذا الفيلم في أكاديمية الفنون، صادفت عنوانه في مقالات، لكن لم يسبق لي أن شاهدته. دخلت ودفعت ثمن التّذكرة، جلست في الصفّ الخلفي، رغم أن القاعة كانت خالية ما عدا ستّة رؤوس، وانتظرت نصف ساعة، قبل أن يبدأ العرض. في البداية، شعرت بضجر، من إيقاع الفيلم البطيء. لم تُثرني المشاهد الأولى، والبطلان يتعانقان دون أن نتعرّف على وجهيهما. هو يقول: «أنت لم تري أي شيء في هيروشيما»، وهي تردّ: «رأيت كلّ شيء». تدريجيًا، شرع إيقاع الفيلم في الارتفاع، وفي إثارة انتباهي. المُمثّلة الفرنسية كانت في مثل سنّي، تعيش قدرًا أشبه بقدري، وحزنًا تغلّفه سعادة شفيفة متخيّلة. علاقتها بذلك الياباني، الذي لا يتخلّى عن بذلته وربطة عنقه، بدت لي مفتعلة، لكنها خدمت فكرة الفيلم، والشّيء الذي استفزّني أكثر، هو «الفلاش باك» المتكرّر، واستعادتها لحياتها السّابقة في فرنسا، في بلدتها الصّغيرة، المُسمّاة «نوفار»، قصّتها العاشقة مع جندي ألماني، أيّام الحرب، وكيف مات، وما تعرّضت له من عقاب من أهلها، ثم انتقامها من بلدتها، بأن هجرتها، ورفضت العودة إليها. وكذا المونولوغات المطوّلة، التي تقطعها حواراتهما القصيرة والشّعرية. وجدته فيلما صادمًا ومدهشًا، وندمت أنني لم أشاهده قبلاً. «كورفا»، غمغمت. تابعت حركات المُمثلة، ومُعانقاتها لذلك الممثل، الأقرب شبهًا بالأوروبيين منه لليابانيين، ودوّنت في ذهني الحوارات، التي دارت بينهما، لعبهما بالكلمات، تغاضيهما عن

الحرب وما خلّفته القنبلة النّووية، بالحديث في العشق والاكتئاب. خرجت من قاعة السّينماتيك متأثّرة بما شاهدته. تخلّيت عن فكرة الاطلاع على عروض العمل، وعُدت إلى غرفة الفندق، وأنا أدوّر الفيلم في رأسي. عادت إليّ رغبة الكتابة، بشكل مُلحّ. جلست إلى الطّاولة ورحت أُعيد كتابة سيناريو الفيلم، بشكل مسرحية. تخيّلت حكاية تلعب فيها دور البطولة شابة بوسنية، وبدل أن تلتقي يابانيًا، تلتقي شابًا جزائريًا، يُشبه سليم، يأتي إلى سراييفو، بغرض إجراء استطلاع عن المدينة، بُعيد الحرب، فتنشأ علاقة حبّ بينهما. يحدّثها عما عاشه من حرب، في بلده، وتحكي له عما شاهدته من فظاعات في مدينتها. لماذا ألحّت على مخيّلتي شخصية سليم؟ هل أنا أبحث عن خيط يُعيدني إليه؟ رحت أكتب، تلقائيًا، حكاية مُماثلة لما شاهدته في الشّاشة، مع تغيير المكان والزّمان، وإدراج حكايات جانبية أخرى، فما حصل في سراييفو، لا يختلف كثيرًا عما حصل في هيروشيما. النّفس البشرية رخصت، والأموات بعشرات الآلاف. دوّنت قصّة شخصين متقاربين في السنّ، يلتقيان في مقهى، شبه فارغ، ويتبادلان الأدوار، في الكلام، وفي السّماع لبعضهما بعضًا. هل تستطيع مسرحية أن تنقل تلك الأحاسيس التي شاهدتها في الفيلم؟ أُسرعت في تسويد الأوراق، كي لا تضيع منّي تفصيلات، ولا تهرب منّي الرّغبة في الكتابة. أدرجت حواريات شعرية، وورّطت البطلة في قضايا هامشية، كي أجعل منها نسخة منّي، كأن تتحدّث، بتأفّف، عن أمّها، وتتفادى الحديث عن ماضي مدينتها البوسنية، الذي تودّ نسيانه. قضيت أربع ساعات، أكتب دون توقّف، متناسيّة كلّ المصائب التي أعيشها، إلى أن سمعت طرقًا على الباب.

خمّنت أن لورينا، التي لم أُصادفها منذ تلك الليلة المشؤومة، التي رأيتها فيها مع غوران، جاءت لتلعب بأعصابي، فقد تظنّ أنني خطفت منها زبونًا، ولا تعلم تاريخ علاقتي بغوران، وهذا أمر كافٍ ليؤجّج حقدها عليّ. لم أقم من الطّاولة، بعد الطّرقتين الأوليين، وانتظرت الطّرقة الثّالثة، لأقف من مكاني متكاسلة، أفتح الباب لأجد أزرا أمامي. مرّ وقت طويل لم نلتق. لم تأت لتفقّد حالي، ولم أجرؤ على الذّهاب إلى زيارتها، في بيتها، تجنبًا لإحراجها، وتفاديًا أن تظنّ بأنني ثقيلة الظلّ. انتبهت لأنّها قصّت شعرها، وصارت تبدو أصغر من سنّها الحقيقي. عانقتها، بفرح، ومازحتها:

- شكلك هذا يوحي أنك في علاقة حبّ جديدة؟
- لم تدم أكثر من أسبوعين.

أجابت بتذمّر.

- أنت ماهرة في اصطياد الرّجال.
- وماهرة أيضًا في فقدانهم.

مثاليتها في التّعامل مع الحبّ، وتسرّعها في الحكم على الرّجال وعلى نواياهم، ضيّعا عليها فرصًا في إيجاد شريك لها. جلست على حافّة السّرير، وسألتها إن كانت تفضّل شرب قهوة أم عصير.

- لم آتِ لشرب شيء.

بدت لي، على غير عادتها، حادة المزاج. أحسست أن سبب زيارتها هو ما حدث في المقهى. لكنني التزمت الصّمت. تصرّفت بشكل غير مبالٍ، وانتظرت منها أن تدلي بما لديها من أقوال، ثم أُدافع عن نفسي.

- لماذا تشاجرت مع صاحب المقهى؟

لو لم يحصل الذي حصل ما جاءت، ولا اهتمت بتفقّد حالي، أو الاطمئنان عليّ. هي تعلّم أن لا صديقة لي، في هذه المدينة، غيرها، أعيش فيها ككلب أجرب، مع ذلك لم تهتمّ بأن تخفّف عنّي عزلتي.

- لأنه وصفني بالعاهرة.
- لا أصدق. ابنة خالتي نهادا تعرفه، ولم ترَ منه سوى تصرّفات حسنة.
- إن كنت لا تُصدقيني، اسألي النّادل ألياش.

جاءت بفكرة واحدة في رأسها؛ أنني أنا السّبب في ترك عملي، في المقهى. وهي محقّة، مع أن السّبب الأعمق، هو ما فعله ذلك العربي اللئيم، مع غوران؛ معاملته السّيئة وعدم دفع مستحقاته له. لكنني تجنّبت أن أذكر اسمه، لم أُرِدْ أن أحشره في تلك القضية، فمن البداية قرّرت أن أتحمّل مسؤوليتي كاملة.

صمتت برهة ثمّ أردفت:

- كان بإمكانك أن تطلب مالا منّي، بدل أن تسرقي من صندوق المقهى.

قالتها بصوت خافض، كما لو أنها تبلغني سرًّا ما.

- تتهمينني بالسّرقة؟
- هذا ما قاله صاحب المقهى لنهادا.

ذلك القذر، قليل الحياء، لم يكفِه أن وصفني بالعاهرة، وراح يلصق بي تهمة السّرقة. لقد سبق ووجدنا ثغرة بألف تولار، بسبب فرار زبائن لم يدفعوا ثمن مشروباتهم، دفعتها من جيبي، في اليوم ذاته، وطوينا القصّة، ولم أمدّ يدي أبدًا إلى صندوق الحساب.

- هذا كلام غير صحيح.

كيف صدّقت أزرا تلك التّهمة السّخيفة، وجاءت تردّدها على مسمعي؟ نحن نعرف بعضنا بعضًا من ربع قرن. كنّا جارتين، في سراييفو، وكبرنا معًا، ولم تشهد عنّي أي فعل مُسيء.

- أنت تعرفين الوضع في هذا البلد، ليس من السّهل إيجاد عمل.

قطعت عنّي انشغالي بالكتابة، وبعثرت فرحتي الصّغيرة برؤيتها، ثم خيّبت ظنّي فيها أن صدقت ما قيل عنّي، ولم تقتنع بكلامي ولا بدفاعي عن نفسي.

- هناك شهود عما حصل في المقهى.

رددت عليها بنبرة حازمة وأنا أقضم أظافري. وحوّلت نظرها إلى حقيبة غوران، الموضوعة بجانب السّرير، وفوقها قميص له وشورت.

- هل تقيمين مع رجل؟

وابتسمت، بخبث، كما لو أنّها توقّعت أنني عثرت على رجل، في مدينة لا تتوقّف عن طعني والتّنكيل بي.

- أقيم مع غوران.

- ...

اعتقدت أنني أمزح معها، وشكّكت في كلامي، مرّة أخرى، وكان عليّ أن أحكي لها القصّة، من البداية، وكيف قابلته، أمام الفندق، ذات ليلة باردة، لكنني أخفيت عنها أنني شاهدته برفقة امرأة، تسكن في الغرفة العلوية.

- سيعود بعد قليل، ويمكنك ملاقاته.

ظنّنت أنّ ردّي قدّ يُفرحها، ويُبهجها لقاء غوران، الذي عرفته، في حياتها السّابقة، في سراييفو.

- لقد جئت، من العمل مباشرة إليك، لست مستعدة لملاقـاة شخص آخر، أفضل أن نلتقي ثلاثتنا، في مرّة قادمة.

انصرفت وتركتني في مزاج مُعكّر، و لم أشأ أن أرسـل معهـا رواية «قرية الملائكة»، إلى سليم، فقد تمرّ على هادا الكاذبة، وتُسمعه ما كالته لي من تهم.

حين عاد غوران، كنت قد جمعت أوراقي، وتظاهرت أنني على ما يُرام. لم أخبره عن زيارة أزرا، وخرجنا، كالعادة، للأكل في مطعم قريب. طلبت بوراكًا باللحم، لكنني لم أكمله. ما قالته لي أزرا، قطع شهيتي. لاحظ تغيّري، واقترح علي أن نأخذ البوراك، للغرفـة، وأن آكل حين أجوع. في طريق العودة، شعرت أن نار الغضب من ذلك العربـي، ازدادت التهابًا في قلبـي، اعتقدت أن الأمر انتهى بعد ما حدث، في المقهى، آخر مرّة، لكنه عاد ووصمني بالسّارقة، وهذا أمر لا يمكن أن أسكت عليه. تقبّلت، فيما مضى، كل أصناف الشّـتائم والإهانات من أبـي، لكنني كبرت ونضجت، ولا أقبل أن يتطـاول عليّ شخص آخر ويُمارس عليّ أبويّته السّمجة. وعلى بعد خطوات من الفندق، استأذنت من غوران لإجراء اتّصال، في مكتب بريـد. كذبت عليه وقلت بأنني أوّد مُحادثة أمّي، وأجريت اتّصالاً آخـر، لأضّع صاحب المقهى، عند حدّه، وأعلّمه كيف يحترمني. وعرفـت فيما بعد أنني اقترفت القرار، الذي حذّرتني منه قارئة الفنجان.

ملامحي خانتني والغضب طفح على وجهي، وحاصرني غـوران بنظراته.

- هل أمّك بخير؟
- نعم، هي بخير، وآنتشي كذلك.

وجب أن أغيّر الموضوع، كي لا أبقى سجينة قلقي، ولا يصرّ على سؤالي عن سبب تغيّري. أخرجت أوراقي، طلبت منه أن ينصت إليّ، ورحت أقرأ عليه، كما لو أنني مُذيع يتلو بيانًا مصيريًا، ما كتبته ذلك الصّباح.

# غضب نادا

شكّلت رقم مليكة، لأُصارحها بضجري من جفائها، فـردّت عليّ حورية، وبدت سعيدة بسماع صوتي. أخـبرتني أن شـقيقتها ليست في البيت، فقد قضت ليلتها، في بيت صـديقة لهـا. «هـل تمزحين؟». «كلا». أعرف أنّه لا صـديقات لهـا، في العاصـمة، وعلاقاتها مع زميلاتها، في العمل، متوترّة، فكثيرًا ما تهكّمن عليهـا، كونها تجاوزت الثّلاثين و لم تجد عريسًا بعد. هل تعرّفت على صديقة جديدة؟ أعدت الاتّصال، في منتصف النّهار، وجاءني، مرّة أخـرى، صوت حورية، التي اقترحت عليّ أن اتّصل بها مسـاءً. شـكرتها، ووعدتها بأن أجلب لها معي علبة شـوكولاتة، ثم أنهيـت المكالمـة، وصمّمت على أن لا أعيد الاتّصال. أنتظر إلى أن ألتقيها، وأتحـدّث معها عن سبب جفائها معي. لا بدّ أنها تخفي أمرًا عنّي. صمت مليكة أفصح من كلامها. هل أحسّت بفارق السّن بيننا وراجعت مشاعرها تجاهي؟

تمشّيت في شارع فسيح، ذكّـرني بشـارع أودان، بواجهـات تجاريّة، تعرض ألبسة وعطوراً وحقائب يد نسائية، وأبصرت حائطًـا إسمنتيًا صغيرًا، يقود إلى موقف سيّارات، تحت الأرض، ثمّ سهوت عما حولي، وتخّيلت أنني سألجأ إليه لو أن سيارة مفخّخة تنفجر أو تـدوي قنبلة يدويّة أو ينطلق أزيز تبادل رصاص، في واحدة من زوايا الشّارع.

سكان هذه المدينة، المُسالمة والمستلقية في حرير الأمن، لن يُصدقوني لو حكيت لهم ما يحصل من فظاعات، في بلادي، التي لا تبعد عنهم سوى أربع ساعات جوًّا. ليس من السّهل أن يتصوّروا أن النّاس هناك ينامون باكرًا، ويطفؤون الأنوار، في الثّامنة مساءً، من خشية زوّار الليل. وأن الكلاب الضّالة والقطط أيضًا تختفي ليلاً فزعًا من السّكاكين الطّائشة. النّاس في ليوبليانا لم يكذب عليهم المنجمّون مثلما كذبوا علينا، لم يتسلّل نواطير الأرواح إلى مخادعهم، ولم يستبح الغرباء خلوتهم. لم تصل إليهم المسوخ، التي نبتت شرقًا، ومزّقت رحم سراييفو، التي كانت، لنصف قرن، أختًا كبرى لهم، قبل أن ينفصلوا عنها. قرأت في شهادات واحد من النّاجين من الحرب في البوسنة والهرسك، أن ميليشيات هناك كانت تصنع قلادات من أصابع الأطفال، بينما لم يجد آخرون من أشياء تسليهم أكثر من مباريات في كرة القدم، تُلعب برؤوس القتلى. كانت سراييفو أختًا لليوبليانا في سنوات العزّ، ثم صارت أختًا للجزائر في سنوات السّقوط. ويصعب على من يعيش في أمن أن يتخيّل حياة من يعيش في خوف.

انعطفت إلى شارع جانبي ضيّق، يقود إلى طريق عامّ، وركبت الحافلة رقم 8، متّجهًا إلى مقهى تريغلاو، بعد أن تعبت من المشي. أيّام قليلة متبقيّة وتنتهي صلاحية الفيزا وأعود من حيث أتيت، ومن اللباقة أن أقضيها رفقة سي أحمد، أن أثرثر معه وأقلّل من وحدته وضجره، فقد لا ألتقيه، مرّة أخرى، إلا بعد سنوات، ومشاعر مختلطة تتشابك بداخلي، من جهة فرح الرّجوع وملاقاة مليكة، رؤية الحاجّ، رغم ما يمرّ به من لحظات حرجة، ومن جهة أخرى قلق البطالة، الذي ينتظرني.

وجدت النّادل ألياش يقف عند باب المقهى. حيّيته وفتحت معه الكلام. «ما معنى كوربا؟» سألته. ضحك وردّ عليّ: «أين سمعتها؟». هل هي كلمة مُضحكة إلى درجة تظهر فيها أنيابه؟ «في الباص»، كذبت عليه. «هي كلمة قبيحة؟». شعرت، من البداية، بأنها كذلك. «تعني عاهرة»، قالها ثم استدار مبتعدًا. خجلت من نفسي. لا بدّ أنّه استاء أو ظنّ أنني أستهزئ به. جلست، في شرفة المقهى، وعاد، بعد لحظات، يحمل لي فنجان قهوة، دون أن ينبس بكلمة.

خطر في بالي أن أطلب مالاً من سي أحمد، إلى أن أجد عملاً آخر. لكنني عدلت عن ذلك. فقد يُذكّرني بأنه لم يتحمّس لخياري بالعمل في الصّحافة، ويُخبر فاروق، وتتعقّد الأمور أكثر. هو قدري وعلي تحمّله بكل تبعاته. صديقي فتحي، وبحكم علاقاته المتشعّبة مع بعض السّياسيين، وجد بسهولة عملاً آخر، في وكالة توزيع المطبوعات الأجنبية. يكتب، كلّ أسبوع، تقارير مفصّلة، عن محتويات المجلاّت، التي تصل من الخارج، يُرسلها إلى مسؤوله المُباشرة، ثم ينتظر ردًّا منه، للموافقة على المطبوعات، التي توزّع في الأكشاك، والأخرى التي تُمنع، وتشحن من حيث جاءت. عزمت على أن أزوره، حال عودتي، وأسأله عن إمكانية الالتحاق بتلك الوكالة، مع أنني أشكّ في إيجاد فرصة عمل هناك. كما نويت أن أجرّب حظي أيضًا مع واحدة من الوكالات الإخبارية الدّولية، وإن لم أفلح في إيجاد شغل، فلا بأس في مُصارحة فاروق بما حصل، وتقبّل الواقع على علاته، والعمل في أي مهنة يقترحها عليّ، إلى أن تُتاح فرصة وأعود إلى الصّحافة.

كان أليباش يطوف بين طاولات الزّبائن، يسمع منهم طلباتهم، يحضرها، ثمّ يُدير لهم ظهره، حين شاهدت، بغتة، نادا تدخل إلى المقهى بخطوات مُتسارعة. للوهلة الأولى، لم أصدق أنها هي، لم يسبق لي أن شاهدتها، خارج البيت، فسي أحمد على ما يبدو لم يتخلّ عن تقاليده الأسرية، ولم تغيّر أوروبا شيئًا من سلوكياته، يُشبه الحاجّ في تسلّطه على زوجته. شككت في نظري، لم أصدق أن تلك المرأة كانت فعلا نادا، ويا ليتها لم تكن هي. بضع لحظات كانت كافية ليتحوّل المقهى، من السّكون إلى الرّعونة. بلغني صوتها وهي تصرخ. وقعت خصومة بينها وبين زوجها. شعرت بحرج ولم أعرف ماذا أفعل. تردّدت؛ هل أدخل وأنظر ماذا يحصل بينهما، أم أبقى في مكاني، ولا أحشر أنفي فيما لا يعنيني؟ ثم تحوّل الصّراخ إلى تكسير كؤوس. قام زبائن من طاولاتهم وانصرفوا دون دفع الحساب. وظلّ أليباش في الدّاخل، دون أن يفعل شيئًا لوقف الشّجار بينهما. صوت نادا العالي طغى على المكان. دلفت إلى الدّاخل، وشاهدتها وهي تنعق في وجه عمّي، وأنا غير مستوعب ما يحصل، ولا على دراية كيف أتصرّف في موقف كذلك الذي وجدتني فيه. احمرّ وجهها واختفت منه ملامح الرّزانة التي عرفتها عنها. كانت أشبه بثور هائج. لم يكن يفصل بينها وبين عمّي سوى الكونتوار، وهو مستسلم لصراخها، وعنفها في تكسير الكؤوس. سألت أليباش عما يحصل، لكنه تجاهلني. ساءني أن أرى سي أحمد في ذلك المشهد المذلّ، لكن الأمر يتعلّق بخلاف بينه وبين زوجته، وأمّ ولديه، ولا أظنّني أمتلك الحقّ في التّدخل بينهما. «يا دين الرّب، عيب!»، كدت أصرخ في وجهها، لوقف المهزلة. وعمّي يردّ على اهتياجها بالصّمت. امتصّ فورتها

بالإذعان لها وأفرغت غيظها وانفعالها، في بضع دقائق، ثم انسلت، إلى الخارج، مُسرعة، تمامًا مثلما وصلت، دون أن تنظر إليّ، رغم أنني كنت واقفًا عند عتبة الباب. وانسحب عمّي إلى ركن في المقهى، وهو يتمتم كلمات لم أفهمها.

جمع ألياش الطّاولات والكراسي، أدخلها، نزع مئزر النّادل، همس إلى سي أحمد، بصوت خفيّ، ثم انصرف، وتركني وحدي معه، وجهًا لوجه.

- مشاكل عائلية صغيرة وتزول.

أن تأتي زوجته، وتقلب المقهى على رأسه، تصرخ في وجهه، وتفزع زبائنه، يُسمّى فقط مشاكل عائلية صغيرة؟ شممت، منذ وصولي، أمرًا غير سويّ بينهما وشعرت أنهما يخفيان أمرًا ما. إن الهدنة المُعلنة بينهما، في الأسابيع الفارطة، لم تكن سوى قناع يتوارى خلفه ديناميت، وقد انفجر.

احتجب عمي، بعض الوقت، في الحمّام، غسل وجهه، ثمّ عاد وشرع في غلق المقهى، مع أن السّاعة لم تتجاوز السّادسة والنّصف، وهو وقت الذّروة وتوافد الزّبائن المُعتادين. ثم طلب منّي أن لا أتأخّر في العودة إلى البيت، فالجوّ بارد، وغير مُلائم للتّجوال. فهمت أن الوضع لا يُتيح أن أسأله عن سبب ما حصل، وهو لم يشأ أن يُخبرني بما يُشفي فضولي وحيرتي. أقفل الحديث، بشكل فظّ، وخرجت ساخطاً من ذلك المشهد الكئيب، الذي رأيت فيه سي أحمد يُهان، كمُراهق طائش. تركته، وسط رائحة التّبغ التي كانت تملأ الهواء، و لم أتوقّع أنها آخر مرّة أتحدّث فيها معه.

# مُكبّلة اليدين

غوران لم يتخلّص من جلده القديم، ما يزال عنيدًا وشكاكًا. بعد أن قرأت له ما كتبت، وهو يجلس قبالتي، على حافة السّرير، صامتًا، متظاهرًا بالإنصات، هبط بمعنوياتي إلى الحضيض.

- هل ما زلت تفكّرين في المسرح؟

قالها لي بنبرة متعالية، محشوّة باستخفاف.

- نعم. و لِمَ لا؟!
- لا أحد يهتمّ بالمسرح في سراييفو! النّاس لا تفكّر سوى في لقمة العيش.

فضّلت عدم الردّ عليه، وتجنّب الدّخول في نقاشات لا جدوى منها. لم تعد ترتسم صورة جيمس دين، في ذهني، حين أنظر إليه، كما كان يحصل في الماضي، فهو يتلذّذ بقمع رأيي، وحين أشيح عنه وجهي، يتودّد إليّ. لماذا يُولد البوسنيون شرسون مع النّساء، وديعون مع خصومهم؟ يفرغون فحولتهم في الإناث، ويعجزون عن مواجهة نظرائهم. تمنيّت لو أنّه قال كلمة واحدة ترفع معنوياتي لمواصلة كتابة ما بدأت فيه، أو صمت ورأف بحالي وتفهّم علاقتي العضوية بالمسرح. «كورفا. حبّي للمسرح يتساوى ما حبّي لك»، قلت في سرّي. أعرف أن المسرح لن يملأ بطون الجوعى، ولن يكسو أجساد العراة، لكنه، يُخفّف عنهم عزلتهم، يُنسيهم يأسهم. المسرح يُعلّمهم

كيف يُنصتون لبعضهم بعضًا، يُساعدهم في المشي بقامات منتصبة، وأن لا يخجلوا من تحمّل خطاياهم.

لملمت أوراقي، وضعتها على طرف الطّاولة، وخطر في بالي أن أقترح عليه الذّهاب، إلى مركز «كرفافس» للتّزلج، وقضاء ظهيرة الويكاند الموالي هناك، حين سمعنا قرعًا عنيفًا على الباب، انخلع له قلبي. كانت تلك المرّة الأولى التي ينتابني فيها ارتعاب، منذ وصولي إلى ليوبليانا. ذلك الطّرق العنيف ذكّرني في مُداهمة التشتنيك، لبيتنا، في بدايات الحرب. كادوا يكسرون الباب بأسلحتهم الرّشاشة وهم يبحثون عن جارنا محيي الدّين، الذي اتّهموه بقتل جندي منهم، ثم مات، لاحقًا، في اشتباك معهم. نطّ غوران، من حافّة السّرير، فتح الباب، دون أن يسأل من الطّارق، ليرتفع صوت ذلك العربي الأعرج، كخنزير ثائر. دفع غوران، بكلتا يديه، وأسقطه أرضًا، ثم وجدته أمامي ينظر إليّ، بعينين محمرّتين وحانقتين غيظًا، وهو يصفني، مرّة أخرى، بالعاهرة، «كوتشكا». لم يترك لي وقتًا للدّفاع عن نفسي. ولا مكان لي لأهرب إليه. أمسكني من شعري، وضرب وجهي، بقوّة، على الخزانة. اعتقدّت أنه سيغمى عليّ، وأنا أصرخ، وأستنجد بغوران، الذي قام وشدّه، من كتفيه، مُحاولاً إبعاده عنّي. لكن ذلك العربي المتوحّش، قوي البنية، دفع غوران عنه، ووجّه لي لكمة على فكّي السّفلي، لازلت أشعر بألمها، لحدّ السّاعة، أعقبها بركلة على بطني كادت أن تقطع أنفاسي. كان مهتاجًا، وأنا أعرف السّبب، لكن لم تكن لي فرصة لتبرير ما فعلت، ولإبعاده عنّي. حاول غوران تطويقه، بذراعيه، وإنقاذي من لكماته على وجهي، لكنه لم ينجح، وراح يسبّ غوران أيضًا، مع رذاذ بصاق يتطاير من فمه،

ويصفه بالمخنّث، «بيدر». اعتقدت أن نهايتي قد حانت وأنــني لــن أخرج حيّة من ثورة ذلك الأعرج، الذي تحوّل إلى كلب مســعور. طفت صورة آنتشي على مخيّلتي ورحت أعوي ألمًا. حاولــت، بــلا طائل، تغطية وجهي، لتجنب الضّربات، التي سقطت أيضًا على بطني وصدري، كدقّات مطارق حادّة. لكمني بقوة على عيني اليُسرى، إلى درجة أنني شاهدت غمامة سوداء تملأ نظري. ثم طوّق عنقي بيديــه الخشنتين، وحاول خنقي. استسلمت له وعجزت في الــدّفاع عــن نفسي، وتخيّلت أن لا أحد سيأتي لإنقاذي. جلجل غوران مثل فرس مسّه مرض: «أنت المخنّث وليس أنا». زأر ذلك الأعرج، وثقــب صوته السّقف، ثم ابتلعه صمت كثيف. توقّف عن خنقــي وهمــد. رأيت وجه غوران محمرًا، عرق يتصبّب منه، وهو يشهق بصــعوبة. عيناه مركّزتان في وجه صاحب المقهى الممدّد على الأرض، وأطرافه ترجف. لقد طعنه، على جانبه الأيمن. شعرت بجفــاف في حلقــي، وظلّ فمي مفتوحا.

الموت طوّقني، بضع سنين، تعايشت معه ونجــوت منــه، وفي الأخير حصل أن رأيت شخصًا يلفظ أنفاسه أمامي. شــعرت بــبرد يلفّني وأنا أنظر في وجه «غوسبودين» أحمد أو أمد، وهــو يمــوت بعينين مفتوحتين. خيط أحمر رفيع ينزل من فمه، ودم غزير ينزف من جانبه الأيمن. ذراعاه مفروشان كصليب. تخيّلت أنه يضحك عليّ، في داخله. لقد انتقم منّي ووصفني بالعاهرة أمام الشّخص الذي أحببته، ونويت أن أبني حياتي معه.

دخل ذلك الرّجل الخمسيني، الذي شاهدته، قبل أيّــام، ثمــلاً وممدّدًا، في درج الفندق، دون أن يتكلّم. انحنى علــى الجثّــة، ســلّ

السّكين، وحاول وقف النّزيف الهائل بقميص لغوران، كان مرميًا على السّرير، ثمّ نفخ هواءً في فم الميت، وضغط على صدره بكلتا يديه، لكن الوقت فات. روحه صعدت وكلّما نظرت إليه، وإلى عينيه المفتوحتين، شعرت برغبة في التّقيؤ. ثم وصل صاحب الفندق. صرخ فزعًا وحملا معًا الميت، مُسرعين إلى الخارج. وآخر ما رأيت هو غوران، الذي ركض باتجاه الباب وتبخّر وتركني أصيح: «غوران... تعال... لا تتركني». كانت تلك آخر مرّة أراه فيها. لم يقل كلمة واحدة ليُودّعني. تركني في سراييفو، وحيدة، أُصارع قدري، ثمّ فرّ منّي، بعد أن قَتل رجلاً وأنقذني من الموت.

أنفاسي كادت تتقطّع كما لو أنني أركض. أحسست بانقباض عضلات بطني. انهرت في مكاني ولم أستطع أن أقف على رجليّ، والغمامة السّوداء لم تُفارق عيني اليسرى. دم الضّحية تمدّد، على الأرض. نظرت إليه وانتبهت، فجأة، إلى أظافر يدي، التي صبغتها صباحًا، بالأزرق. وضعت يدي على فمي ومنّيت نفسي لو أن أمي أو شقيقتي أو أزرا، أو أي شخص آخر أثق فيه، يدخل وأحضنه وأنتحب على صدره. أحسست بحاجة مُلحّة إلى حضن يحتويني، إلى شخص يفهمني، يحنّ عليّ، ولا يُبالي بدموعي. بدل أن يدخل شخص ممن أعرفهم، دخل شرطيّان، ولحقهما ثالث، قيّد يداي إلى الأمام دون أن يُكلّمني. لم أشعر بأنني وقعت في جريمة إلا بعد رؤيتي للشّرطة وفقدي التّحكّم في يداي. ألصقوا شريطًا أصفر على باب الغرفة، ورحت أبكي كطفل صغير ضيّع أمّه. طلب منّي واحد منهم أن أصمت، بدا لي أنه قائدهم، وعرفت فيما بعد أنّه محقّق. طلب منّي الجلوس على الكرسي، بينما راح الآخر يلتقط صورًا للغرفة

والثّالث يجمع كلّ الأشياء، التي يجدها في الأرض، ويضعها في أكياس بلاستيكية شفّافة: السّكين، ذو القبضة البنيّة، المُلطّخ بالـدّم، قبعة العربي التي سقطت منه، علبة سجائر خلّفها غوران، زوج جوارب، قطعتان نقديتان، وعلبة علك، سقطت منّ جيب قميصي، حين همّ أحمد أو أمد بالاعتداء عليّ.

شرع المحقّق، ذو الوجه الطّويل والملامح الصّارمة، يقذف أسئلته في وجهي وأنا أردّ عليه، كما لو أننا نلعب بينغ بونغ. ينطق سؤاله وأُجيبه، ويدوّن كلامي كما لو أنه يدوّن نقاطًا لصالحه.

- اسمك ولقبك؟
- إيفانا يوليتش
- عمرك؟
- 31 عامًا.
- اسم والدك؟
- أنتون.
- اسم أمّك؟
- سلافينكا.
- هل تعرفين الضّحية؟
- هو ربّ عملي السّابق.
- هل لك علاقة معه خارج العمل؟
- كلا!
- آخر مرّة التقيت به؟
- قبل أسبوع.
- ماذا حصل بينكما حينها؟

- اعتدى عليّ في مقهاه.
- لماذا؟
- طلبت منه دفع متأخرّات راتبـــي وامتنع.
- لماذا جاء هنا؟
- ليعتدي عليّ.
- لماذا؟
- لأنّني أخبرت زوجته بالحقيقة.
- أي حقيقة؟
- أنه يخونها معي.
- لكنك قلت أن لا علاقة لك معه، خارج العمل؟
- نعم. فقد أرغمني على فعل ما فعلت.
- من يُقيم معك في هذه الغرفة؟
- غوران ماريتش.
- أين يعمل؟
- في مزرعة، بضاحية غورينسكا.
- أين هو الآن؟
- لا أعرف.

صمت وتفرّس فيّ بعداوة. خشيت أن يصفعني وبكيت.

- ردّي على أسئلتي، وأجلّي البكاء إلى حين.
- ...
- أين ذهب هذا غوران؟
- لا أعرف.

صمت، قليلاً، ثم صرخ في وجهي:

- ستعرفين في مخفر الشّرطة.

قام من مكانه وأدركت أن ذلك المحقّق، مشدود الوجه كخشب طريّ، يعرف كلّ شيء. قد يكون حقّق مع صاحب الفندق ومع رفيقه السّكير، اللذين حملا الجثّة وأخرجاها، قبل ان يصل إليّ. لا بدّ أنهما أخبراه بكلّ شيء، قبل أن يصعد، مع معاونيه، إلى الغرفة. توقّعت أن يقودني إلى طبيب ويطمئن على حالي، لكنه طلب منّي أن أتبعه وأركب معه في سيارة الشّرطة، المركونة في الخارج. بينما بقي الشّرطيان الآخران يواصلان عملهما. ساعدني في وضع معطفي على كتفاي وفي انتعال حذائي وشعرت أن ساكني الغرف الأخرى يتلصّصون من ثغرات أبوابهم، أو يطلّون من نوافذهم، ويتلذّذون بمشهدي وأنا أسير مذلولة، خافضة رأسي، ولا سيّما تلك الشّقراء البلهاء لورينا، فهي أكثر شخص قد يفرح بمشاهدتي وأنا أنقاد إلى مخفر الشّرطة. سمح لي المحقّق بحمل حقيبة يدي، بأطراف أصابعي، وداهمتني رغبة في التّبوّل. دعوت الربّ أن لا يسمع أهلي في سراييفو ما حصل. لكن هذا أمر بعيد الاحتمال، في وجود أزرا. لن تمسك لسانها. في الخارج، وجدت سيارتا شرطة متوقفتين، وصفارتهما تدويان، وعناقيد من النّاس تقف على الرّصيف، المُقابل، يُشاهدون بفضول ما يحدث. ركبت في الخلف، إلى جانب شرطي آخر. بينما ركب المحقّق في الأمام، وانطلقنا إلى مخفر الشّرطة. شعرت كما لو أنّ مثانتي على وشك الانفجار، وتذكّرت سليم. لن أجد فرصة لأبرّر له ما وقع. «أنت ابن زنا يا غوران»، تمتمت، وبغضي له يكبر، لأنه ساقني إلى أشنع لحظات عمري.

# مطرقة تدقّ رأسي

اقتربت من العمارة، حيث توجد شقّة عمّي، ولمحت السّيدة إرينا، وهي ترتدي، كالعادة، حذاءً بكعب عالٍ وتسير، على رصيف مُقابل، تزاحمها فيه أكوام ثلج، مُبتعدة برفقة كلبها دوني، غير مبالية بالمارّة القلائل، ولا بعيونهم المحدّقة فيها. ثمّ لفت انتباهي وجود سيارة شرطة. خمّنت أن أحدهم استغل سيارة العمل وجاء لزيارة أهله، فلم يسبق لي أن رأيت شرطيًا، منذ وصولي، عدا مرّة واحدة، في المطار.

وجدت باب الشّقة مواربًا، وهذه ليست من عادات سي أحمد، الذي يحرص على غلق الباب والنّوافذ، ولا يسمح لابنيه باللعب سوى في غرفتهما. ما أن دخلت حتى صادفني منظر شرطيّين، يقفان، كشمعتين متناظرتين، في الصّالون، ونادا تجلس، على الأريكة، وهي تضغط على رأسها براحتي يديها. أفزعني وجود الشّرطيين أكثر من منظر نادا، التي شعرت أنها في ورطة ما. استدارا إليّ، ورفعت نادا رأسها. شاهدت وجهها المحمرّ، وعينيها الدّامعتين. أشار عليّ واحد منهما، أن أجلس على كرسي، ثم كلّمني بالسلوفينية، وسرعان ما تدخّلت نادا، بكلمات مُختلطة بشهقات بكائها، وأبلغته أنني لا أفهم سوى الإنجليزية. اعتقدت، في لحظة من اللحظات، أنني أخطأت العنوان، ودخلت شقّة أخرى. جلست وانتظرت أن تُخبرني بما يحصل، لكنها صمتت. وخاطبني الشّرطي:

– اسمك ولقبك؟
– سليم دبكي.
– هل تعرف السّيد أحمد دبكي؟
– نعم. هو عمّي.
– متى التقيته آخر مرّة؟
– اليوم. افترقنا منذ ساعتين أو أكثر بقليل.

فكّرت أن عمّي عاد وانتقم من زوجته، التي أهانته في المقهى، وأبلغت الشّرطة عنه.

– أين التقيته؟
– في مقهى تريغلاو.
– هل أخبرك أين ينوي الذهاب بعد مغادرته المقهى؟
– كلا.

راح ذلك الشّرطي، فارع القامة، ذا العينين اللامعتين، يدوّن كلامي، على دفتر صغير. وبحثت بنظري عن ابني عمّي. رغبت في رؤيتهما لأطمئن عليهما. طرأ على بالي أن سي أحمد قد انتقم منهما، نكاية في زوجته. توقّف الشّرطي عن طرح أسئلته، وراح يتحدث مع زميله. لكنني قاطعته، وسألته عن سبب وجوده ومساءلته لي. تردّد في الردّ عليّ. نظر إلى صاحبه، ثم أجابني بجملة إنجليزية واحدة:

– وجدنا السّيد دبكي مقتولاً.

كلّ ما حصل بدا لي مجرد مسرحية. هجوم نادا على عمّي في المقهى، مشهدها وهي تجلس على الأريكة وتمسك رأسها بين يديها، وجود شرطيين في البيت، مُساءلة أحدهما لي، ثم خبر مقتل عمّي، الذي لم أصدّقه. حدّقت إليه وسألته:

– هل أنت متأكّد مما تقول؟

– نعم.

ردّ عليّ بثقة، فهذه موضوعات لا نستخف بها. هو جاء ليقوم بعمله، للتّحقيق في القضية، وأعتقد أنه سأل نادا قبلي، واستمع لشهاداتها. عمّي عاش كما أراد لنفسه، حفل بالحياة التي اختارها، وقرّرها وعمل لأجلها، خطّط وهندس كلّ شيء، لكنه لم يخبرني أن أجله قد اقترب. لاحظت تجاعيد على وجهه، لكن جسمه لم يَشِخْ، ولم أتصوّر أن الموت كان يخطو إليه. عمّي برمج كلّ تفصيلات حياته، عدا موته لم يفكّر فيه. كيف لم أنتبه إلى أن الموت كان يحوم فوق رأسه؟ لم أحذّره مما قد يلحق به، ولم أودّعه. قارئة الفنجان، في المطعم التّركي، رأت سكينًا، وأخبرتني أنني سأقطع علاقة ما. هل قصدت علاقتي بعمّي؟

خرج شرطي ثالث من غرفة عمّي، والتحق بزميليه، بخطى متثاقلة. ثم ظهرت خلفه فتاة شقراء، تلبس بنطلون جينز، وقميصًا رماديًا، وشعرها يبدو منكوشاً، كما لو أنّها استيقظت للتوّ من النّوم. بدت لي بدينة نوعًا ما مقارنة بنادا، لكنها أصغر سنًّا منها. أغلقت باب الغرفة خلفها، وبقيت، للحظة، متسمرّة في مكانها، وهي تنظر من حولها. ثم توجّهت إلى نادا. همست إليها، بصوت خافت، وهي تطوّق كتفيها بذراعها الأيمن. ساعدتها تلك الشّقراء في القيّام من مكانها. وخاطبت نادا الشّرطيين، اللذين كانا يوشوشان مع بعضهما بعضًا، ثم تقدّمت نحوي، بصحبة مرافقتها، التي ظلّت مُمسكة بذراعها الأيمن.

– نذهب إلى المستشفى، لإلقاء نظرة عليه، وغدًا نتولّى دفنه.

كما لو أنني كنت أنتظر كلمة منها لأتأكّد مما جرى. كما لو أن كلّ ما سبق لم يقنعني و لم يُبرهن لي أن عمّي مات حقًّا. تصلّب لساني. من قتل سي أحمد ولماذا؟ نظرت إلى نادا بصمت. أومأت إليها برأسي، كتلميذ مُهذّب، ورأيت الشّرطيين وهما يخرجان وهي تلحق بهما، ثم تلتفت إليّ:

- شقيقتي ألينكا ستعتني بالطّفلين، إلى أن نعود.

كان جوًّا جنائزيًا موشحًا بالشّجن، غير مُلائم للتّعرف على تلك الشّقراء الممتلئة. أثارت انتباهي، بفخذيها العريضين، وصدرها البارز. تفاديت تركيز النّظر عليها، كي لا أُثير فضول الآخرين، وانسحبت مع نادا، إلى الخارج. لمحت السّماء مُغيّمة، ونحن نركب سيارة الشّرطة، كما لو أنها تتهيّأ للإمطار.

المستشفى، الذي دخلنا إليه، يختلف كليًّا عن مستشفيات الجزائر؛ هادئ وكلّ شيء مرتّب في مكانه. ممرّضات وممرّضون بمآزر زرقاء في ذهاب وإياب، في البهو، بخطوات محسوبة، كمُجنّدين في ثكنة، ونوافذ كثيرة تملأ الحيطان، وتطلّ على حديقة سنديان. نزلنا إلى القبو، ومشينا، بضع خطوات، حيث قابلنا طبيبا، فتح لنا الباب بالضّغط على أرقام، في علبة إليكترونية، على الحائط، ودخلت نادا أولاً، ثم تبعتها، وأنا أمقت القدر الذي قادني إلى تلك اللحظة، التي لم أتمن أن أجد نفسي فيها. شعرت أنني صرت كهلاً، وأن الزّمن تقدّم بي سنوات كثيرة. عندما شاهدت جثّة سي أحمد ممدّدة اقتنعت أخيرًا أنه مات. هل تخلّى عني الله ونسي دعوات أمّي لي بالخير والفلاح؟ شعرت بمطرقة تدقّ رأسي. لم يُحزنني أنّ عمّي مات بقدر ما أحزنني أنني لا أعرف شيئًا عما حصل، وأنّه مات في بلاد الغربة،

وقد خلّف فيها طفلين، سيُيتّمان. أعدت التأكّد من وجه عمّي ميْتًا، ومرّت لحظات لأدرك أنني لست في حلم، ثمّ داهمني غثيان. تقيّأت كلّ ما أكلت ذلك اليوم، وأنا أمسك الحائط البارد بيدي كي لا أسقط، دون أن تلتفت إليّ نادا، التي راحت تحدّق في وجه أرملها، المُسجّى بكفن أبيض، وفي وسط ذلك الحزن الجارح، لم يكن بالإمكان أن أسألها عن تفصيلات ما وقع. من قتل سي أحمد؟ كان السّؤال يعصر رأسي. الشّيء الأكيد أنه ميّت، وأنا حيّ ولا أعرف ماذا أفعل. حاولت مواساتها، بالتّربيت على كتفها، لكنها لم تكن تبكي، بل كبتت شهقاتها في صدرها. أنا من كان في حاجة إلى من يُواسيني. لكن لا أحد سينتبه إليّ، ومليكة بعيدة عنّي. اشتقت إليها، في تلك الأثناء، أكثر من أي وقت آخر. حين ماتت أمّي، شعرت أن هناك عينًا تحرسني وتحميني من السّقوط، وحين شاهدت سي أحمد ميّتًا أمامي، شعرت بجسمي يترنّح، وأنني غير قادر على أن أدفع نفسي إلى الأمام. بقيت واقفًا أنظر إلى وجه جثّة عمّي تارة، وفي وجوم نادا تارة أخرى. وصمت ثقيل يلفّ المكان. مسحت بيدها على جبهة عميّ، قبّلتها ثم رسمت علامة الصّليب في الهواء، واستدارت إليّ بنظرات تائهة، كما لو أنّها أرادت قول أشياء كثيرة وعجزت على التلفّظ بها.

- غدًا صباحًا ننقله إلى المقبرة.

مشت إلى الخارج، وما كان عليّ سوى أن أتبعها، كخادم أبكم. قالت إن الدّفن، في الغد، لكنها لم تخبرني بالتّفصيلات. هي أرملته وأمّ ولديه، وأحقّ النّاس بالتّصرف، لكن عمّي مُسلم، ويهمّني أن يدفن كمُسلم، أن يغسّل ويقرأ القرآن على روحه قبل أن يُوارى

التّراب. تجّنبت مصارحتها بكل ذلك، وفضّلت أن أنتظر لأرى ما تنوي فعله. في طريق العودة إلى البيت، في سيارة أجرة، لم يشغل بالي سوى كيفية إعلان الخبر لفاروق. هل أقول له إن سي أحمد مات وكفى، أم أقول إنه قُتل، وإنني لا أعلم كيف حدث ذلك؟!

في البيت، وجدت ألينكا في انتظارنا، بوجه متجهّم. غيّرت ملابسها وارتدت بيجامة حمراء فضفاضة. انسلّت نادا إلى غرفتها، وقد صارت وحيدة بلا رفيق، وسألتني ألينكا إن كنت أوّد أكل شيء ما. شكرتها، فلم تكن لي شهية. ذهبت إلى غرفة سفيان وخالد، وتركتني مُمدّدا على أريكة الصّالون، أُحاول أن أغسل ذهني من كلّ تلك الوقائع، والتّفاصيل المُرعبة، التي عشتها. أردت أن أبكي وأفرغ قلبي من حرقته، لكنني جَبنت.

# ليديا

رغم كلّ الشقاء الذي عرفته في سراييفو؛ فإنّها لم تبخل عليّ يومًا بفراش أنام عليه، بدل التمدّد على أرضية إسمنتية، بحجّة الحبس الاحتياطي، في جريمة لم أقترفها. فحين وصلنا إلى المخفر، حرّر الشّرطي يداي، ثم فتح لي بابًا من حديد، يتوسط رواقًا، تصطف فيه مكاتب. «تفضّلي»، نطقها، بخبث، كما لو أنه يدعوني إلى دخول بيت أو مطعم. وظننت أنه سيرأف بحالي ويحضر لي، كرسيًا أو بطانية، لكنه اختفى ولم يعُد. زكمتني رائحة كريهة تطلع من زوايا ذلك الحبس، أشبه برائحة بول قطط مُختلطة برائحة قيء. شعرت بإرهاق، ولم أرغب سوى في النّوم. انزويت ووضعت حقيبة يدي على الأرض، أسندت إليها رأسي، واضطجعت، لكنني لم أستطع أن أغمض عيني. حركة الشّرطة، وهم في ذهاب وإياب، عبر الرّواق الطّويل لم تتوقّف. كلّما علا وقع أقدام اعتقدت أن شرطيًا قادمًا ليفتح لي الباب. كانوا يمرون، دون أن يلتفتوا إليّ. أمسكت بيدي القضبان الحديدية، وانتهزت فرصة مرور شرطي، لأسأله عن وضعي. بالكاد كان ينظر إليّ وهو يُجيب عليّ باقتضاب: «المسؤول الكبير خرج. عليك الانتظار للغد صباحًا»، ثم مضى في حال سبيله. على الأقل منحني معلومة مهمّة؛ أنني سأقضي الليل كلّه في حبس ضيّق، خافت الضّوء، بلا نافذة، على أرضية باردة، والخوف يتدفّق في قلبي.

فكّرت في غوران وأنا أعرف أن مصيري متعلّق به. كوابيس تزاحمت في ذهني؛ ماذا لو أنّه انتحر، كي لا يقع في يد الشّرطة؟ خلت أنه سيُلقي بنفسه تحت عجلات قطار أو يقفز في نهر ليوبليانيتسا، وينتحر غرقًا مثلما ينتحر العشّاق اليائسون. لن أخرج إلا إذا سلّم نفسه أو ألقوا القبض عليه. وفي كلّ الحالات سأخسره. لقد وُلدت لأخسر لا أن أكسب. أحسست أنني أنحدر في الفراغ، وأن سراييفو باتت أبعد مما كنت أتصوّر. اشتقت إلى أختي آنتشي، أن أحضنها، وأنا أُحاول أن أمنع منخاريّ من استنشاق رائحة ذلك المكان العفن. لا بدّ أنّ أجسادًا كثيرة تداولت عليه، ولا أحد فكّر في تنظيفه، احترامًا لكرامة المتّهمين، الذين لم تثبت إدانتهم.

لو سُجنت في سراييفو لَمَ خفت وشعرت بضعف، فحريّتنا فيها هي سجن واسع، نتحايل على المفردات كي لا نُسميه باسمه الحقيقي. ألم تكن حياتنا فيها، تحت الحصار، أشبه بحياة في سجن؟ لا نخرج من بيوتنا، سوى نادرًا، وفي حذر، بحثًا عن ماء أو غذاء أو حطب. لا نقطع الشّوارع سوى مُهرولين أو راكضين، خافضين رؤوسنا، خشية أن تُصيبنا واحدة من رصاصات القنّاصة. نطفئ الأنوار بمجرد نزول الظّلام، كي لا تبلغنا واحدة من القذائف العمياء. في البداية، كنت أبكي كلّما سمعت عن موت أحد ما، من جيراننا أو من معارفي، ثم، شيئًا فشيئًا، تعوّدت على الأمر، تحوّل إلى شيء مألوف لي، وصرت لا أتخيّل سراييفو من دون جلاّديها.

خفّ وقع الأقدام في الرّواق. «لا بدّ أنهم انصرفوا إلى بيوتهم وعائلاتهم وأفرشتهم الدّافئة»، خمّنت. ازدادت رغبتي في التّبوّل وحاولت إغماض عيني، مرّة أخرى. طفت على ذهني أغنية «ليديا»

لكمال مونتينو. أتذكّره في شبابه بشعره الأسود الكثيف وعينيه الزّرقاوين، بوجه يختصر كلّ الجمال الذّكوري البوسني. لكنه الآن شاخ، مع ذلك ما تزال أغنيته بكامل سحرها وحلاوتها... «على الطّريق الخالي... تضيع كلماتنا... ريح تُداعب يدينا وأشعر أننا وحيدان في العالم... ليديا، إذا نسيت اسمي غدًا... تذكّري الأيّام التي تِهنا فيها معًا...». كمال مونيتنو هو نبيّ المدينة ونحن العاصون. لولا سفينة الحبّ، التي بناها من كلمات وإيقاعات، لجرفنا الطّوفان، أو صرنا مسوخًا.

تكوّرت حول نفسي، كرضيع في بطن أمّه، وحلمت أنني أسير في شارع «فرحدية»، وأنظر في وجوه المارّة وإلى البنايات القديمة. رأيتني أمشي، تحت شمس ربيعية، وأُمتع أذنيّ بسماع كلمات النّاس المُتطايرة، بلهجة سراييفو الصّافية. ثم وصلت إلى شارع «غازي خسرو بك»، التقيت فيه زميلات قديمات في المدرسة، وتجوّلنا بين محلات الصّاغة والمجوهرات، نقلّب المعروضات ونجرّبها دون أن نشتري شيئًا منها، قبل أن أودعهن، وأصل إلى ميدان باشتشارشيا، حيث وجدت شقيقتي آنتشي، تقف وسط سرب حمام، في انتظاري، كما لو أنها علمت بموعد عودتي إلى سراييفو. لم أعانقها ولم أفرح برؤيتها، شرعنا في الثّرثرة، في أشياء تافهة، كما لو أنّها شُفيت من المرض الذي أصابها، وكما لو أنني لم أفارقها قطّ. كان حلمًا، لا أكثر، فقد استيقظت منه على صوت شرطي وهو يُنادي باسمي، يُعيدني إلى الواقع، يفتح الباب ويأمرني أن أحمل حقيبتي وأتبعه. استأذنته بالذّهاب إلى الحمام، ودلقت بولاً حارًّا، تصاعد منه بخار، ثم خرجت، وأنا أزرّر بنطالي. نظرت إلى ساعة يدي، وانتبهت أن

الوقت تجاوز الخامسة صباحًا بقليل. أدخلني ذلك الشّـــرطي مكتبًـــا فسيحًا، قدّم لي فنجان قهوة، ثم توارى. كنت مســـتعدّة لتقبّـــل أيّ شيء؛ أن يحلقوا شعري، الذي بدأ يتساقط، من سنين، و لم ينفع معه الاغتسال، التي تفوح منها روائح فواكه، ويُرسلوني إلى سجن بعيد، أقضي فيه سنوات، مع مساجين وسجينات آخرين، وقعت علـــيهم أحكام ثقيلة، أو أن يُعذّبوني لأنني تسبّبت في مقتل مواطن لهم، ليس من دمهم، لكنه كان يحمل هويّتهم. بضـــع ســـاعات، في حـــبس احتياطي، علّمتني كيف أروّض نفسي وأتأقلم مع وضعي الجديـــد، وأتقبّل كلّ العواقب التي ستحلّ بـــي. خسرت كلّ ما أملـــك و لم يعد لي ما أحزن عليه.

بعدما قاربت السّاعة الخامسة والنّصف، أتممت فنجان القهوة، مع رغبة الشّديدة في تدخين سيجارة، ودخل ضابط. جلـــس علـــى كرسيه، واختفى رأسه خلف شاشة كومبيـــوتر، دون أن يُخـــاطبني بكلمة واحدة. راح ينقر على جهازه ويتصفّح، بين الحين والآخـــر، أوراقاً نثرت على مكتبـــه. أحببـــت أن أســـأله: «هـــل تعـــرف توميسلاف؟». لو أن جارنا سمع بما حدث لتدخّل، وأخـــرجني دون أن أقضي ساعة واحدة في الحبس.

انتظرت، لحظات، ازداد فيها خفقان قلبـــي، وعادت لي الرّغبة في التّبوّل، من جديد، ليطلّ عليّ برأسه ويتحرّك لسانه ويكلّمني.

- إيفانا يوليتش.
- نعم.
- هل تُريدين قهوة أخرى؟
- كلا. شكرًا.

صمت، قليلاً، ثم أردف:

- يبدو أنّك محظوظة.

محظوظة؟ هذا آخر شيء يُمكن أن أفكّر فيه. أنا بالأحرى مشؤومة.

- عثرنا، أمس، على الجاني، قرب محطة القطارات، وقد أقرّ بما فعل.

هذا ما توقّعت أن يفعله غوران، أن يذهب إلى محطة القطارات، للفرار إلى بلد آخر أو للانتحار. كان من المفروض أن يصدمني خبر القبض عليه، لكنني سعدت، لأنّه لم ينتحر، لأن ظنّي أخطأ، فوجوده في الحياة، ولو بعيدًا عنّي، في مكان أجهله، يُشعرني بأمان ضئيل.

سلّمني جواز سفري، الذي سحبه منّي المحقّق، عند اعتقالي في غرفة الفندق، ثم قرّب مني حزمة أوراق، وطلب منّي التوّقيع عليها، وما أن فعلت، حتى خاطبني:

- أنت الآن حرّة، يمكنك العودة إلى بيتك.

كان يعتقد أنني سأفرح بكلامه، وأقبّله وأطير في الهواء.

- هل يمكنني مُقابلة غوران؟

- من غوران؟

- الجاني الذي قبضتم عليه.

- ليس ممكنًا قبل المُحاكمة.

- متى مُحاكمته؟

- لا أدري. ليس من تخصّصنا.

حين خرجت من مخفر الشّرطة، شعرت أنني تركت جلدي القديم هناك ولبست آخر. ما انكسر في داخلي لا يمكن ترميمه. منذ

لحظة شروعي في كتابة المسرحية الجديدة، أو بالأحرى منذ مشاهدتي فيلم «هيروشيما، حبّي»، إلى خروجي من الحبس، انقلبت حياتي كليًّا.

كانت السّاعة في حدود السّادسة، والحركة بدأت تدب، بهدوء، إلى المدينة. النّاس يذهبون إلى أشغالهم، وأنا لا شغل لي سوى لعن أيّامي، التي ضاعت منّي في سلوفينيا. أشعلت سيجارة، وأنا أدندن أغنية «ليديا»، حين زجرني صوت غليظ من الدّاخل: «لا يمكنك الوقوف عند الباب». هرولت مُسرعة، وأنا لا أعرف أين أتّجه. هل أعود إلى غرفتي، حيث قُتل ذلك العربي؟ أم أقضي يومي في الشّارع؟ أم أتّصل بأزرا؟ أم أركب أول حافلة تذهب إلى سراييفو؟

# معتُوه يعوي

فتحت عينيّ، صباحًا، وعنقي يقطر عرقًا. «أنا أنام في أريكة وسي أحمد ميّت في مشرحة»، شعرت بتأنيب الضّمير. دخلت إلى الحمـــام، وعجزت عن أخذ دشّ سريع، لم تكن لي رغبـــة في فعـــل أيّ شـــيء. غيّرت ملابسي الدّاخلية، وعدت إلى التمدّد على الأريكة. نظـــرت إلى السّاعة، المُعلّقة على الحائط، وقد تجاوزت السّادسة بقليل. كان عمّـــي يحظر التّدخين في بيته، لكنني لم أُقاوم رغبتي في حرق سيجارة، ثم ثانيـــة وثالثة. رحت أشفط وأنفث دُخّانها، إلى أعلى، إلى أن دخلت ألينكـــا، بشفتين جافتين، وهي تُغالب النّعاس. لم تقل صباح الخير و لم تسألني عن حالي. اكتفت فقط بإخباري، بما يُشبه نشرة أنباء.

- نادا ذهبت إلى المستشفى، لنقل جثمان عمّك إلى المقـــبرة. وسنلحق بها في التّاسعة.

ساءني أن تذهب وحدها. أليس من المفروض أن أذهب معها؟ لكنني تجاوزت استيائي وسألتها:

- كيف حال سفيان وخالد؟ هل استيقظا؟
- أخذتهما في طريقها، إلى بيت والداي.

يبدو أنّها خطّطت لكلّ شيء، وما عليّ سوى تنفيذ أوامرهـــا. لكنها مُحقّة فيما فعلت، فمن المهمّ تجنيب الطّفلين صدمة النّظـــر إلى والدهما ميّتًا.

تذكّرت مليكة، فهي الشّخص الوحيد، الذي احتجت أن يقف بجانبـــي. لم أرد الاتّصال بها، في الليلة الفارطة، كـــي لا أشـــعرها بضعفي، ولا أُسمعها شهقاتي. اكتفيت بمُكالمة فاروق، لأخبره بما وقع، لأجد نفسي فيما يُشبه مُساءلة بوليسية أخرى.

- من قتله؟
- لا أعرف. الشّرطة لم تُنهِ التّحقيق.
- كيف قتله؟ ولماذا؟
- قلت لك لا أعرف شيئًا.
- كيف لا تعرف؟ اسأل زوجته.
- سأسألها غدًا.
- اسألها حالاً.
- هي نائمة. لا يمكن أن أوقظها.
- متى ينقلون جثمانه إلى الجزائر؟
- سيُدفن في ليوبليانا.
- لا، لا. لا بدّ أن يُدفن في الجزائر.
- زوجته قرّرت وهي الأحقّ في اتّخاذ القرار.
- هي زوجته ولكن نحن أهله.
- ...
- أقنعها بتغيير رأيها.
- لا أستطيع. الدّفن غدًا.
- كيف يدفنونه دون أن يعرفوا القاتل؟
- هذا شأن الشّرطة وليس شأننا.
- كلا، كلا. يجب أن يُدفن في بلده.

– بلده هنا وعائلته أيضًا.

– هذا غير صحيح.

ردّد عليّ: «اسمع كلامي وطبّقه»، حين قطعت المكالمة، بيدين مرتجفتين، وفصلت كابل الهاتف، كي لا يُحاول الاتّصال بي، ولأتفادى الدّخول معه في مُهاترة، لا جدوى منها. احترامي له لا يعني أن يتصرّف معي بحدّة، ويُكلمني بنبرة آمرة. الميت هو عمّي أيضًا، وأنا حريص على احترام روحه، ربما أكثر منه ومن أي شخص آخر. أشفق فقط على الحاجّ، هو لا يعلم ولن يعلم ما وقع لشقيقه الأصغر.

افترشت سجاد الصّالون، وجلست على أليتيّ. نصبت رجلي اليمنى وأدخلت الأخرى تحتها، مثل شيخ في خلوته. استدرت إلى النّافذة، ورحت أتلو ما ترسّب في ذاكرتي من سورة الكهف، بصوت مسموع... «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا/ قيّما ليُنذر بأسًا شديدًا من لدنه ويُبشر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أن لهم أجرًا حسنًا...». ثم تلوت آيات من سورتَي «البقرة» و«مريم»، ورفعت يداي بالدّعاء لروح الميت، حين دخلت ألينكا، من جديد. نظرت إليّ، بعينين حائرتين، دون أن تقول شيئًا. لاحظت أنّها غيّرت بيجامتها ولبست جينز أسود، مع سترة سوداء، وسرّحت شعرها الأشقر الطّويل، بشكل متساوٍ، معتمرة قبعة سوداء أيضًا. شرحت لها أنني أتلو قرآنًا، وأدعية. لم تعلّق واستأذنت مني بالخروج، بحجّة شراء بعض الأغراض الضّرورية للدّفن، على أن ألتحق بها، في الثّامنة والنّصف، في سيارتها الرّمادية، أسفل العمارة.

كانت تلك المرّة الأولى، التي أجد فيها نفسي، وحيدًا في البيت. لم أُقاوم فضولي، ودخلت إلى غرفة عمّي. حمّالة صدر وجوارب

نسائية، كانت ملقاة، على السّرير، لا بدّ أن نادا أهملتها وهي تستعجل الخروج. فتحت الخزانة، ووجدت ملابس عمّي في الدّرج السّفلي، بينما الدّرج الأوسط والعلوي، رُتبت فيهما ملابس نسويّة. أسفل السّرير وجدت سلة بلاستيكية صغيرة، تحتوي على وثائق تخصّ سي أحمد؛ فواتير وأوراق إدارية. وعثرت على جواز سفره السلوفيني. «لن يذهب إلى سراييفو، كما نوى على ذلك، ولن يحتاج إليه»، تمتمت، وبداخله جواز سفره الجزائري، منتهي الصّلاحية منذ 1995. استغربت أنّه لم يجدّد جواز سفره منذ ذلك العام. في قاع تلك السّلة البلاستيكية، صادفت صورة لي وأنا صغير، بوجه مدوّر وأملس كحبّة تفّاح. دوّنت على ظهرها سنة التقاطها: 1976. كانت غرفة مصبوغة بالبنفسجي، باردة ومثيرة للاكتئاب، لا شيء فيها يُريح البال، وهذا ما توقّعته، تمامًا مثل العلاقة التي ربطت بينهما، رغم محاولتهما الظّهور أمامي، بشكل مُختلف. خطوت، بعدها، إلى المطبخ. شربت عصيرًا، مباشرة من علبته الكرتونية، ثم عُدت إلى الأريكة، وشعرت أن خفقات قلبي قد زادت سرعتها. تلوت، مرّة أخرى، قرآنًا ودعوت للميت، قبل أن أغادر البيت، دون أن أنظر إلى وجهي في المرآة. لم أحضر نفسي للحداد. كنت أرتدي جينز أزرق وسترة سوداء. ركبت مع ألينكا، وعطر فوّاح يملأ السّيارة. انطلقنا باتجاه المقبرة، وأنا أفكّر، ببلاهة: «هل يتعطّرن للذّهاب إلى الجنائز؟». وصلنا إلى مقبرة جالي، ولست أعرف إن كان يصحّ أن نُسميها مقبرة، لأنها تحفة من صنائع المعماري يوج بلاشنيك، تحوّطها حديقة وتتقاطع فيها أرصفة وممرّات، تختلف تمامًا عن مقابر الجزائر، العابسة والغارقة في الوحشة.

مشينا وسط المقبرة، ولمحت نادا، من بعيد، وهي ترتدي هنـــدامًا أسود، تغطي رأسها بوشاح، وبصحبتها إرينا، التي رأيتها للمرّة الأولى في سواد، ومن دون كلبها. وخلفهما حشد من النّاس، لم أعـــرفهم. حين اقتربنا منهم، توقّفوا عن الكلام، واستداروا كلّهم إلينا. ابتعـــدت ألينكا عنّي بخطوات، ثم راحوا يُصافحونني، ويقـــدّمون لي تعـــازيَ، واحدًا تلو الآخر، يبدأونها بـ«سلام عليكم» وينهونها بلغتهم، الـــتي لا أفهمها، لكنني استوعبت ما كانوا يقصدون. على بعد أمتار قليلة مـــن الجمع، رأيت غرفة، بباب من زجاج، وُضع داخلها تابوت سي أحمد، وفوق التّابوت صورة له؛ يظهر فيها شابًا، بشارب خفيـــف، وربطـــة عنق حمراء، يلبس سترة زرقاء وقميصًا أبيض. وقبالة تلك الغرفة، وقف ميران، وهو يعزف على أكورديون، لحنًا هادئًا. تحلّق حوله المعـــزّين، وكلّ واحد منهم، يحمل باقة ورد. وما هي إلا لحظات حـــتى وصـــل رجل يعتمر طاقية خضراء، ويلبس عباءة بلون أصفر فاتح، ولم يُخطئ ظنّي، فقد كان إمامًا. عرفت فيما بعد أنه بوسني. صافح نادا، تحـــدّث معها قليلاً، ثم أقام صلاة الميت، قبالة التّابوت، وخلفه بعض المعـــزّون من الرّجال، وأنا في وسطهم، دون أن يتوقّف ميران عن العزف. حين انتهينا من الصّلاة، لمحت لورينا، التي لبست الأسود، مثلما التقيتها أوّل مرة، لكن ليس تنورة قصيرة، بل أخرى طويلة. عزّتني في مُصابـــــي، وقدّمت لي شابًا أطول قامة منّي وأحوَل، على أنّه صديق لهـــا، اسمـــه أمير. ثم اقترب منّي ميران، مرفقًا بمُراهقة، ببطن يتدلّى، على وشـــك الوضع. صافحني، وأشار إلى بطن صديقته أو زوجته وهـــو يكـــرّر: «لولا... لولا». ربما قصد أن المولود سيكون أنثى واسمهـــا لـــولا، أو هكذا فهمت. ووصل يانيس، ومعه رجلان آخـــران. قـــارب عـــدد

المُشيّعين العشرين شخصًا، من رجال ونساء، آخرهم كهـل، جـاء يتوكّأ على عكّاز، مُرفقًا بامرأة عجوز، أخبرتني نادا أنهما والـداها. ثم حمل أربعة من المشيّعين التّابوت، ومشوا به، حوالي مائة متر، في ممـرّ جانبـي، حيث هُيّأ القبر، وطرأ في بالي: «هل غسّـلوه؟». وضـعوا التّابوت في الحفرة، وقبل أن يهيلوا التّراب عليه، اصطف المعـزّون في طابور، بشكلّ منظّم كما لو أنّهم تدرّبوا على ذلـك قبـل مجيـئهم، وراحوا يلقون باقات الورد، واحدًا خلف الآخر، ثمّ يُشعلون شمعـة، يضعونها على الأرض وينصرفون مبتعدين، آخرهم الإمام، الذي دسّت نادا في يده ورقة نقدية، شكرها واختفى.

حين دفنوا عمّي وتركوني، مع نادا وشقيقتها ووالديها، شعرت بابتئاس وحسرة. نظرت إلى شاهد القبر الرّخامي السّوداء، زفـرت واستغفرت الله.

## أحمد دبكي

## 1999-1937

حزني على عمّي اختلط مع حزني أن أجد نفسي في مكـان لا أعرف فيه أحدًا، لا أفهم فيه لغة ناسه، ولا ما يفكّرون فيه. شعرت أنني غريب وشخص غير مرغوب فيه. ما يربطني بليوبليانا هو سـي أحمد، وقد انقطع الحبل، وزال سبب بقائي فيها. سحبتني نادا مـن ذراعي. طلبت منّي العودة مع ألينكا، إلى البيت، بينما توصل هـي والداها، وتطمئن على طفليها، ثم تلتحق بنا.

حين وصلت نادا، إلى البيت، أطلّت أولاً على غرفة ابنيها، التي صارت تشغلها شقيقتها، مكثت فيها بضع دقائق، ولست أعـرف حول ماذا تحدّثتا، ثم جاءت إلى الصّالون. سألتني إن أودّ شرب قهوة،

لكنني شكرتها، أخبرتها بعدم رغبتي في شرب أي شيء، مع ذلك ألحّت. أحضرت فنجاني قهوة، وجلست قبالتي، ساقًا على ساق. لم يدم صمتها طويلاً، وفاتحتني بصوت خافت وكلمات متأنّية.

- هل كنت تحبّه؟
- طبعًا. هو عمّي الوحيد.

نظرت إليّ، كما لو أنها تراني للمرّة الأولى.

- لقد رحل دون أن يقدر على مواجهتك ويتمّ إجراءات نقل الملكية.

وضعت فنجان القهوة، على الطّاولة، التي فصلت بيننا، ونظرت إليها بعينين حادتين. تنفست نادا ملء رئتيها، وأردفت:

- كان ينوي أن يتنازل لك على شقتنا القديمة.

استغربت الأمر. لماذا فكّر المرحوم في التّنازل لي عن شقّة؟ حين سألني عن نيّتي في البقاء في سلوفينيا، أجبته بعدم تحمّسي لذلك.

- أنتِ أحقّ بها وسفيان وخالد.

هم عائلته الأقرب، أمّا أنا فلست سوى من عائلته الكبيرة والبعيدة، وبعد أن مات، قد لا أعود، من جديد، إلى هذا البلد.

ابتلعت ريقها وأخذت ركبتها ترتعد، كما لو أن خوفًا ما داهمها. حكّت أرنبة أنفها الدّقيق، بنرفزة، أغمضت عينيها ثم فتحتهما وهي تقول:

- أحمد هو والدك.

ثمّ خفضت رأسها ومرّرت يدها على شعرها.

لقد غُدر بالرّجل، الذي أحبّته في شبابها، وخاصمت والدها العسكري، من أجله. فقدت والد ابنيه الصّغيرين، تيتّما وهي حزينة

لأجلهما. لكن لم أتوقّع أنّ يختل عقلها، تتفوّه بكلام لا معنى له، وتخلط بين أمور، لا يصحّ أن نمزح فيها.

- سأخرج وأتركك ترتاحين.
- كلا، ابق هنا. لم أكمل كلامي.

قامت، من مكانها، مُنتفضة كي تقنعني بالجلوس. ومرّت عشر دقائق كأنّها دهر وأنا أنصت إليها، وأرى عينيها تدمعان، غير مُصدّق ما كنت أسمع، لأخرج بعدها، من البيت، غير مبالٍ بزعيقها وتوسلاتها بالبقاء، وغير مهتمّ بنظرات ألينكا الحائرة، التي أَطلّت من الغرفة بعدما ارتفع صوت أختها. اصطدمت بعجوز وأنا أركض نازلاً عبر السّلالم. لا أذكر وجهه لكنني أذكر أنني لم أتمالك أعصابي وشتمته... قوّد... ورُحت أمشي كمعتوه في شوارع ليوبليانا.

حياتي كلّها كانت خدعة. سي أحمد هو والدي، ومن اعتقدت أنه والدي لم يكن سوى عمّي. خرجت عن طوري وراحت شفتاي ترتعشان، كما لو أن شحنة كهربائية مسّتني، ولا رغبة لي سوى في الصّراخ... العواء... التأوّه... النّواح... وفي ركل كلّ الأشياء، التي أراها في طريقي.

## الجزء الرّابع

# قبر منسيّ

# أمضي في خفّة حُلم

لفظت عقب سيجارة، على الأرض، احتسيت ما تبقى في قاع فنجان القهوة، دفعت الحساب، ثم تمشّيت في شارع سلوفانسكا. شاهدت عناقيد أطفال، وهم يتّجهون إلى مدارسهم، مُرفقين بأوليائهم، وحسدتهم على الغبطة التي كانوا فيها. كنت أمشي بقدمين مرتجفين، وأتظاهر، أنني على ما يُرام. والتفت، بين الحين والآخر، خلفي، فمنذ خروجي من مخفر الشّرطة، تملّكني شعور غريب، أن شخصًا ما ينوي طعني، انتقامًا لمقتل ذلك العربي، الذي أراد قتلي. تخيّلت أن زوجته ترصدني، أو سليم يتعقّبني، ولن يهدأ له بال حتّى يُريق دمي.

طردت، من رأسي، فكرة العودة إلى غرفة الفندق، فلن يُصدّقني أحد إن دافعت عن نفسي، أو إن قلت لهم أن الشّرطة برأتني، ولن يرحمونني بكلماتهم. لم يكن بوسعي سوى الاستعانة بأزرا، فهي لا تذهب إلى الشّغل قبل التّاسعة. وأنا بحاجة إلى شخص يسمعني، يتحدّث إليّ، يُواسيني ويخبرني بأنني بخير، وأنني أستطيع أن أحيا، وأن أخرج من العتمة التي تُحاصرني.

حين وصلت إلى العمارة، التي تسكنها، وصعدت إلى الطّابق الثّالث، شعرت بإرهاق. تخيّلت أن أزرا، التي تقاسمت معها حجرة المدرسة في صغري، وضحكنا كثيرًا معًا، وكنّا نخرج، مع بعض، في

صباحات الألعاب الأولمبية الشّتوية، لتنظيف شوارع سراييفو من الثّلوج المتراكمة على الأرصفة، لن تُصدّقني هي أيضًا. أغمضت عيني، برهة، وطرقت الباب. فتحت لي أمّها، وتفاجأت برؤيتي.

- كيف حالك إيفانا؟
- بخير.

لم تقترح عليّ الدّخول، ولم تسألني عما أريد. بل انتظرت منّي أن أخبرها بنفسي عن سبب زيارتي.

- هل أزرا في البيت؟

ما إن سمعت سؤالي، حتى نادت على ابنتها، التي وصلني صوتها، من الدّاخل: «من على الباب أمّي؟». بقيتُ صامتة، وأمّها كذلك، إلى أن جاءت ورأتني. حينها صارت مخاوفي حقيقة. اعتقدت أنني سأزورها، برفقة غوران، ونشرب قهوة مع بعض، كما وعدتني آخر مرّة. لكنني جئت وحدي. تراجعت أمّها إلى الخلف ووقفت أزرا أمامي. بدت لي أنّها تتهيّأ للخروج إلى العمل. نظرت إليّ من أسفل إلى أعلى، دون أن تنطق بكلمة، دون أن ترحب بي. أعرف أن شكلي لم يكن يسرّ النّظر، فقد نجوت من محاولة قتل وقضيت ليلة كاملة، ممدّدة على أرضية إسمنتية باردة، رغم أنني حاولت أن أعدّل، في مظهري، في حمام المقهى الذي جلست فيه؛ سرّحت شعري، وضعت أحمر شفاه وماسكارا على عيني اليسرى المزرقّة، ودهنت يداي، بكريم مُرطّب.

- ماذا تفعلين هنا؟

هل ارتكبت جريمة بزيارتي لها؟ ومجيئي لأتحدّث معها، وتُساعدني في تخفيف اضطرابي وقلقي الحادّ؟ رغبت في أن أرتمي في حضنها، أن تضغط على كتفاي وهي تنظر إليّ، أن تعطف عليّ،

أن أشمّ فيها رائحة سراييفو، رائحة حيّينا، الذي لم يرفق بنا، لكنها لم تمنحني فرصة، وانهالت عليّ بكلماتها الجارحة.

- لا أريد رؤيتك.

شعرت بشفتي ترتجفان.

- لسنا صديقتين.

وصفقت الباب، في وجهي.

لم أتحمّل ذلك الموقف المذلّ وركضت إلى خارج العمارة، بعد أن عجزت عن مقاومة رغبتي في البكاء. صرت ملعونة ومشؤومة. لم يعد لي مكان واحد ألتجئ إليه في هذه المدينة السّادية. الكلّ يحقد عليّ، مع أنني أعلم، منذ سنين، أن الحقد صناعة بوسنية. لسنا إخوة سوى في الحقد، عدا ذلك فإن كلّ شيء يُفرّق بيننا.

وأنا أمشي وألعق دموعي، انتبهت إلى أن مظهري مُثير للشّفقة، لكن لا أحد من المارة توقّف، أو انشغل بحالي. النّاس يعبرون مسرعين، يرمقونني بنظرات، ويمضون. تذكّرت وجه آنتشي، زاد اشتياقي لها، وزاد بُكائي الصّامت. أخذت أحدّث نفسي: «يا إلهي، أين أنت؟ لماذا غبت وتركتني؟.. يا إلهي أنقذني!»، إلى أن وصلت مكانًا، لم يسبق لي أن زرته. كتب على واجهته: «مكتبة المدينة». مكتبة عامّة متوارية في نفق يصل بين شارعين رئيسيين مُتعامدين.

في الدّاخل، شعرت بدفء أنساني برودة الطّقس. فوجودي في مكتبة، يكتظّ فيه أُناس كثر، أراحني من كابوس أن يأتي أحدهم، من خلف، ويطعنني.

وقفت أمام رفوف الكتب، ولم تكن لي رغبة في المُطالعة. بقيت أتأملّها، وأسحب، بين الفينة والأخرى، كتابًا أتصفّحه، على مضض،

وأُعيده إلى مكانه. شاهدت كثيرًا من اليافعين والمراهقين، يتوزّعــون في جماعات، على طاولات، يوشوشون فيما بينهم، أو يفرشون أمام أعينهم، كراريس وكتباً، ويتناقشون حولها. حسدهم على الطّمأنينة، التي تعلو وجوههم. لا أحد منهم ضاع منه شخص عزيز عليــه، أو تورّط في جريمة، تهدم حياته. تمنّيت لو أنني في سنّهم، مراهقة، أزهو بأحلامي السّاذجة.

في زاوية بعيدة، من الرّفوف المتراصّة، وقعت عيناي على كتــاب «الأمير الصّغير». أظنّني قرأت ذلك الكتاب ثلاث أو أربع مــرّات، ولم أملّ منه. تلمّسته، وتفرّجت على الرّسومات، التي تزيّنه، في الـــداخل، ثم جلست، إلى طاولة، بجانب مراهقتين، وشرعت في قراءته، من جديـــد. عندما وصلت إلى الفصل الثّاني عشر، توقّفت عن القراءة، وفكّرت أنني أشبه ذلك السّكير، الذي التقاه الأمير الصّغير، في رحلاته عبر الكواكب. سكير، جالس أمام قارورته، وهو يشرب دون توقّف. يشرب لينســى عاره، عار أنه يشرب. أنا أيضًا أحتاج أن أنسى عاري، عار أنني لم أصنع شيئًا في حياتي. لو قدّر لي أن أحقّق رغبة أمي، في الارتباط، مــع أنــني أدرك أن لا رجل يقبل بــي، وأنجبت طفلاً أو طفلين، فماذا أحكي لهما عنّي مستقبلاً؟ حياتي كلّها خيط طويل من الإحباطات.

أغلقت الكتاب وأعدته، إلى مكانه، لكنّني لم أرغب في مُغادرة المكتبة، فقد أشعرتني بالحماية، وأن لا شخص يُهددني. وقفــت، في زاوية المُدخنين، وأشعلت سيجارة، وما هي إلا لحظات، حتى وقفت أمامي مُراهقة شقراء، بعينين زرقاوين، وشعر منفوش، وطلبت مــني سيجارة، بنظرة تملّق. أعطيتها ما أرادت، وانتظرت أن تبتعد عنّــي، لكنها طلبت ولاعة. أشعلت سيجارتها، وسألتني عن اسمي.

- إيفانا.
- وأنا كاتيا.

أعقبتها بضحكة طويلة. أخرجت من حقيبة يدها أحمر شفاه، واقترحت علي استخدامه، لكنني امتنعت. ليس من عادتي استخدام ماكياج الآخرين. التفتت، من حولها، كما لو أنها مذعورة من شخص ما يُلاحقها. ودون أن أسألها، حدّثتني:

- أخشى أن تأتي أمّي، وتجدني أدخن.
- كم عمرك؟
- 16 سنة.
- أمّي امرأة مجنونة، تعمل مُمرضة، لا تُحبني، تمنع عنّي التّدخين وترفض أن أسهر مع صديقاتي في الويكاند.

أرتني وشمًا، في أعلى عنقها، بشكل نجمة، وطلبت مني رأيي فيه. استحسنت الشّكل، وموضعه. أسعدها رأيي، وأخبرتني أنها تفكّر في وضع وشم آخر، بشكل زهرة، على كتفها. ثم أطفأت السّيجارة، دون أن تكملها. انصرفت، وأرسلت لي قبلة في الهواء وهي تقهقه. أزعجني سلوك تلك المراهقة، لكنني تفهمتها. أعتقد أنّها تُعاني من اضطراب نفسي، وتشعر من خوف مُبالغ فيه من أمها، التي تقول أنها لا تحبّها.

مرّ يومي، بين الكتب والتّدخين، وحين اقتربت الثّامنة مساءً، بدأ النّاس في مُغادرة المكان. خفّت الحركة، ولم يبق على طاولات المطالعة سواي، ورجلان، في منتصف العمر، يُطالعان جريدتين، وامرأة تتصفّح قاموسًا، وواحدة من موظّفات المكتبة، تطوف بين الطّاولات، تلتقط الكتب، التي خلفها الزّوار، وتعيدها إلى أمكنتها.

كان عليّ أنا أيضًا المغادرة. لكن إلى أين؟ منذ اليوم الفارط، لم يعد لي سقف، في ليوبليانا. أكثر من ثلاثة أشهر مرّت منذ وصولي إليها، على أمل أن أجد فيها عملا ثابتا لي، أو أجد فيها سببًا للسّفر إلى أي بلد آخر، أواصل فيه شغفي بالمسرح، لأعود في النّهاية إلى نقطة الصّفر. صرت منبوذة، ووحيدة، حتى صديقتي أزرا، التي طالما اتّكلت عليها، تخلّت عنّي. هي فعلاً حقيرة، لو أنّها بوسنية ومن نسل سراييفو لّما غيّرت اسمها العائلي. هي على الأرجح من أصول مشكوك فيها، لذلك تصرّفت معي بكل ذلك الحقد والشّرر يتطاير من عينيها، وهي تطردني، من بيت أهلها.

دخّنت سيجارة أخيرة، بينما موظّف كهل يخفض إنارة المكتبة، وقرّرت الذّهاب إلى غرفتي، في الفندق، وحزم ما تبقى لي من أغراض، ومغادرة هذا البلد، إلى سراييفو، في أوّل حافلة. بعض التولارات التي بقيت معي أدفع بها ثمن تذكرة الحافلة، وأصرف الباقي على قارورات راكيا، لعلّ الربّ يلطف بي، ويبدّلني أيامًا أفضل من تلك التي عشتها، في الفترة الأخيرة.

اتّصلت بأمّي، أعلمتها بقرار عودتي، دون أن أخبرها عن السّبب، ومن غير أن أنتظر منها ردّة فعل. فأنا أعرف أن حضوري أو غيابي عن البيت سواء. ثم مشيت إلى الفندق. من الخارج، بدت الأمور كلّها عادية وهادئة، ولا شيء يوحي بأن جريمة وقعت في الطّابق الثّاني منه. أطللت برأسي، من الباب، وأبصرت صاحب الفندق البدين، شتيفان، متكئًا، كالعادة على أريكته، يُشاهد التّلفاز، يُقلّب مكعب روبيك بين يديه ويُراقب من يدخل ومن يخرج. ما إن لمحني، حتى وثب من مكانه، وأسرع متّجها نحوي.

- ماذا تُريدين؟

قالها لي بنبرة حادّة، كما لو أنني قتلت ابنه أو قريبًا له.

- جئت أجمع أغراضي لأُغادر.

سحب ورقة، من مكتب الاستقبال، دوّن فيها اسمي، وتوقيت وصولي.

- وقّعي أسفل الورقة؟
- لماذا؟
- تعليمات الشّرطة.

لم يكفهم أن غوران اعترف، بما اقترف، وأنني خرجت بريئة من الجريمة، وما زالوا يتعقّبون خطواتي، ويُرقبونني. لم يكن لي خيار آخر، وقّعت على الورقة، طلبت منه المفتاح، وصعدت في الدّرج، دون أن أضيف كلمة واحدة أخرى.

وجدت الغرفة كما تركتها. بفوضاها، وعناكبها على زواياها الضّيقة، وملابسي وملابس غوران، المرمية على السّرير، وعلى الكرسي. أحسّست بخوف مفاجئ. تخيّلت أن شخصًا قد يأتي، يقفل الباب، ويعتدي عليّ أو يغتصبني. دخلت الحمام وأنا أتمنّع عن النّظر لنفسي في المرآة المغبّشة. رزمت بعض الأغراض و لم أعثر على فرشاة أسناني ولا فرشاة غوران. هل أخذهما الشّرطة؟ جمعت ما يُمكنني جمعه من ملابس قليلة، وكتب وأوراق، في حقيبتي، التي جئت بها من سراييفو، كي أنصرف بأسرع وقت. تركت باب الغرفة مفتوحًا، عن قصد، كي أجد منفذًا، أفرّ منه، في حال حصل أي شيء، أو فاجأني شخص بالدّخول، لكنني ندمت على ذلك، فقد دخلت لورينا، دون استئذان منّي.

- مرحبًا إيفانا.
- مرحبًا.

رحّبت بــــي، بحرارة مُصطنعة، كما لو أنها لم تسمع ما حدث.

- هل ستُغادرين؟
- نعم.

كانت تُشاهدني وأنا ألملم أغراضي، وهذا أمر ليس معناه سوى أنني بصدد المغادرة.

- خسارة.

ضربت راحتي كفيها، على بعضهما بعضًا، كما لو أنها فقدت شيئًا ثمينًا. وبينما شرعت تثرثر، على أنّها ستشتاق لي، وأنـــا غـــير مُبالية، بكلماتها، دخل ساشا، ونظر إليّ بفاه مفتوح، ثم تبعه أمـــير. عقدت الدّهشة عيناي. كان هو فعلاً، شقيقي. بقامتـــه الطّويلـــة، ووجهه، الذي لم تغيّره السّنين. هل أنا أحلم؟ لطمت خدّي كما لو أنني أودّ التأكّد مما أرى، ونسيت، في تلك اللحظة، وجـــود لورينـــا وأمير وكلّ ما حصل معي. حدّقت إلى ساشا وعانقته، لكن فـــات الأوان.

# شريكان في المسرح

أعود إلى سلافونسكي برود، وأدخل البوسنة والهرسك، بيدين مضرّجتين بدم غريب. أحمل وزر جريمة أنا بريئة منها. أرجع بعـــدما عاقبتني العذراء لسبب لا يعرفه غيرها. هل لأنني بغضت أمي و لم أُطع الوصايا العشر وإكرام الوالدين؟ حقيبتي خفّ وزنها، بعد أن تخلّصت من مخطوط المسرحية القديمة، التي فشلت في إكمالها، ودسست فيها مخطوط المسرحية الجديدة، التي أعكف على كتابتها. أسطوانتا سرفينا يابوكا وتوما زدرواكوفيتش بقيتا، طوال الوقت، أسفل الخزانـــة، لم أجد وقتًا للاستماع إليهما، فهل أجد وقتًا لهما في سراييفو؟

لقد نحفت، صار عنقي دقيقا بارزًا، ورأسي لم يـــتخلّص مـــن ضجيج الحرب. كلّ صوت عنيف يُفزعني وأعتقد أن مكروهًا يقترب منّي. حين أسمع مفرقعات، في مكان قريب، أتخيّل أنها قـــذائف، وأن واحدة منها قد تسقط أمامي، وتحوّلني إلى أشلاء. عنـــدما أمشـــي وحيدة، في شارع عريض، أُسرع الخطّى، متخيّلة أن قنّاصًا، يختبئ في زاوية بعيدة، يترصّدني من شقّ جدار أو من نافذة، ويتهيّأ لإطـــلاق آخر رصاصة، من بندقيته، تخترق صدري، ويكسب مكافأة ســـخيّة من قائده العسكري المُباشر.

حين عثرت على شقيقي، سعدت. شعرت بأمان. أراني مفتاح بيتنا، الذي يحتفظ به مثلما يحتفظ جندي بوسام حرب. حدّثته عـــن

أمي وعن سخطها عليّ، لأنني لم أصر أمًّا كما تمنت لي، لكن الوقت لم يفت. ما دمت لم أبلغ سنّ اليّأس بعد، فلن تيأس من تكرار المحاولة وإقناعي بإنجاب حفيد لها. ما دامت عادتي الشّهرية تزورني في حينها، يبقى طموحها مشروعًا. في اليوم الذي مات فيه تيتو، وجلس أبي قبالة التّلفزيون، مُمسكًا رأسه بين يديه، منصتًا بخشوع لأناشيد عسكرية، سال دم، للمرّة الأولى، بين فخذاي. أسرعت إلى الحمام، مُرتعبة. نزفت كأرنب مذبوح. أخبرت أمّي، وأنا أشعر بوخز أسفل بطني، وتوقّعت منها أن تُساعدني في تجاوز قلقي، لكنها ضحكت. أخفت حزنها على وفاة الماريشال، وخاطبتني: «لا تخافي. ستتعوّدين على الدّم». استحممت وعدت إليها في المطبخ، فوجدتها قد عادت إلى حزنها وعيناها محمرّتان، تكلّم نفسها: «ماذا سنفعل بعده؟». وتخيّلت أنّ نهاية العالم قد اقتربت بموت الرّئيس. ربتت على شعري وقالت لي: «من اليوم تنامين في غرفة منفردة، وليس مع أختك». كبرت بسرعة، وسأشيخ كذلك، وإن لم أحقق رغبة أمّي، سينوب ساشا عنّي. فقد أخبرني أنه يُواعد فتاة سلوفينية، تعمل نادلة، وينوي الزّواج منها. قد يصير أباً، ولحظتها سأرتاح منها، وأكسب معركة يتيمة ضدّها. لكن، إلى ذلك الحين، عليّ تقبّل ثقل ظلّها. فلربما يتحقّق حدسها بأن «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها». لكن هذا الأمر لن يتحقّق، على الأقل، في المستقبل القريب. وعليّ أن أنتظر، وأضيف وصية جانبية إلى الوصايا العشر: «اصبر على عثرات القدر».

لم يكن لي وقت كافٍ لأجلس مع ساشا، و لم أُعانق لورينا كما أردت، فقد عرفت أنها ابنة عمّي. ساعدتني، من حيث لا

تدري، في العثور على شقيقي، الذي تعرّفت عليه، بالصّدفة، عن طريق زبون سابق لها. «أم أنه هو زبونها وخجلت من قول الحقيقة؟». أنقذته من التّشرد، بعد أن صرف أموال بيع مخبز أبي، على شهواته، و لم تعلم بجذوري وأنني شقيقته، سوى بعدما سال دم العربي. وخجلت من نفسي لأنني بغضتها. و لم أكمل حديثي مع أمير، الذي هجر رفيقته الخمسينية، بعدما اتّهمته ابنتها، التي قاربت العشرين، بالتّحرّش بها. شعر بالعار، وتركها، مُتناسيًا أنه هو نفسه قادم من عار أكبر. من عار مُضاجعة أخ لأخته، في حرب عائلية، حوّلتنا جميعًا إلى لقطاء.

لا شيء أحزن عليه أكثر من حزني على سليم. لم أكن مهتّمة به، في البداية، لم يُثرني و لم يُغريني، لكنني شعرت، بالتّدريج، بقرب منه. تمنيّت لو أنه فهم نظراتي إليه، وبادر بالإمساك بيدي، وقرّبني منه. لقد ضيّع عنّي وعن نفسه أن نقيم حلمًا يجمعنا، ويخلّصني من التّفكير في غوران، في العودة إليه، وفي وقوع ما وقع. كنت مُغفلة، فبرج غوران الفلكي لا يُناسبني، هو من برج الحمل، من نار؛ غضوب ولا يثبت في مكان وأنا من برج الجوزاء، من هواء؛ أحبذ السّكينة والعلاقات المستقرّة. بينما سليم، الذي احتفل عمّه بعيد ميلاده، في المقهى، بأن أهدى كؤوسًا مجانية للزّبائن، فهو من برج الجديّ، من تراب؛ صبور وهادئ ومتّزن. الهواء يُناسبه التّراب وليس النّار، وقد أجرمت في حقّ نفسي، بأن وثقت في مشاعري تجاه شخص مضطرب، مثل غوران. لماذا جبن سليم، و لم يتصرّف مثل رجل واثق من نفسه، وضمّني إلى صدره؟ حركة واحدة وبسيطة منه كانت قادرة على تغيير قدري. لا وقت للعتاب، لن أُحاسبه، فأنا

مدينة له بأنه أوحى لي شخصية المسرحية، التي أشتغل عليها. وأظنّ أني أثقلت عليه، عندما كتبت له تلك الرّسالة، على الصّفحة الأولى البيضاء من رواية «قرية الملائكة».

*عزيزي سليم،*

*حين تقرأ هذه الرّسالة، سأكون قد غادرت إلى سراييفو. وعدت إلى حياتي السّابقة، حيث الرّتابة والقلق المُزمن. في تلك المدينة، يستيقظ النّاس صباحًا ولا يهمّهم إن كانت الشّمس ستطلع من الشّرق أم الغرب. فكل شيء قابل للانفجار في أي لحظة. ستعلم ما حصل لعمّك، وتكرهني. لكنني أؤكد لك أنني لم أقتله. لقد دافعت عن نفسي لا أكثر. قلبي معك وعزائي قد لا يكفي لأقنعك ببراءتي. ابحث عن الحقيقة كاملة، ولا تكتفي بشهادة شخص واحد. أثق في عدالتك، فأنت صحافي ومثّقف ولا أظن أنك ستُخدع مثلما خُدعت أنا. إذا حقدت عليّ، سأتفهّم موقفك، أمّا إذا سامحتني، فأطلب منك خدمة صغيرة. أنا بصدد كتابة مسرحية، مُقتبسة عن فيلم «هيروشيما، حبّي». هل شاهدت هذا الفيلم؟ أكيد نعم، فأنت تفهم الفرنسية. سأضمّ حكايتك إلى النصّ وأحتاج أن تكتب لي ما خطر في بالك من سيرتك. لأكمل الكتابة. وتُرسلها لي على عنواني، المدوّن في أسفل الصّفحة. لم نستطع أن نكون شريكين في الحياة، فهل تسمح بأن نكون كذلك في المسرح؟ اخترت المسرح لأنني أشعر فيه بوجودي. اكتشفت حرّية اللهو على ركح وأنا صغيرة في المدرسة، ولم أتخلَّ عنه من يومها. في المسرح يُمكنني أن أتخيّل الحياة التي أريدها، وأناور القدر، أشاكسه، أعجنه، وأتغلّب*

*عليه. على الرّكح تنبت لي عضلات، يصير وجهي باسمًا وأتحرّر مــن عقدي. لقد عشت حياة عنيفة، لم تملّ من التّلاعب بــي، بــأبٍ تقيّأني يوم ولادتي وجدّ لم أره يومًا. تخيّل أنني إلى غاية اليوم لم أكن أعرف من هو جدّي من ناحية أبي! ولم أكن أعلم أن أبــي وُلــد غلطة. عشت أشبه بلقيطة، أجرّ أخطاء الآخرين معــي. صــورتك ستبقى محفورة في مخيلتي. كانت أيّاما قصيرة، لكنني تعلّمــت منــها الكثير. هذه المدينة التي جمعتنا، بالصّدفة، لم ترأف بــي، وســأكرّر المحاولة مع سراييفو، فلربما تشفق عليّ، بعــدما عــاقبتني وكــادت تسحقني وتتخلّص منّي.*

*إيفانا.*

*Stara Crkva 16. Sarajevo 71000. Bosnia and Herzegovina. 0038733681332*

وضعت الرّواية في كيس بلاستيكي، أغلقته بشــريط لاصــق، وسلّمته للورينا. قبّلتها على خدّيها، ودموع حارقة تطفر من عــينيّ، اعتذرت لها عن كلّ حماقة بدرت منّي تجاهها، وخرجت، بصــحبة ساشا إلى محطّة المسافرين. سلّمته ورقة نقدية ليضع وردًا علــى قــبر العربــي، وركبت الحافلة المتجّهة إلى سراييفو.

# تركة الميت

عُدت إلى البيت، متعبًا، أتمايل يمنة ويسرةً، وقد تجاوزت السّاعة الثّانية صباحًا. تسلّلت، إلى غرفتي، على أصابع قدمي، كما لو أنني لصّ، ولاحظت أن أحدًا ما قد غيّر الغطاء والبطانية، في غيّابي. نزعت حذائي وسترتي الجلدية، وتمدّدت، بعد ليلة طويلة وباردة، قضيتها في مكان اسمه ميتيلكوفا، يعجّ ببشر من كلّ الألوان، بين حفلي روك، واحتساء عدد لا أذكره من قنينات البيرة. أغمضت عيني، وشاهدت مليكة وهي تسألني عن الملح وعن المقلاة، وباقي أغراض المطبخ، لتحضّر لي العشاء. حاولت أن أقنعها بأن لا رغبة لي في الأكل، لكنها أصرّت. غافلتها ووقفت خلفها، لتقبيلها، وهي تتمنّع. «سيغضب منّا سي أحمد»، همست لي. انتبهت أنها جاءت إلى شقّتي، في حيّ الرّمان، بقدمين حافيتين. صوّبت نظري إلى عينيها فوجدت أن لونهما صار أصفر. «لماذا غيّرت لونهما؟». «أنا حرّة فيما أفعل». خيّرتها بين أن تقبّلني أو لا آكل من طبخها، فأشارت إلى يدي، التي تجمّعت فيها كومة من النّمل. صببت عليها كأس ماء فتشتّت. واستفقت على صراخ نادا، وهي تؤنب طفليها. تذكّرت أن هذين الطّفلين ليسا ابنيها فقط، هما أخواي أيضًا. هل يُعقل؟ كل تلك السّنوات التي عشتها دون أن أعرف من هو والدي ومن هو عمّي؟ من يصدّق أنّ لي أخوان، يفصلني عن أكبرهما ثماني عشرة

سنة؟ هل تُصدق مليكة هذه الحكاية؟ قد تسخر منّي، لأنني عشت حياتي كمُغفل.

دلفت، مُسرعًا، إلى الحمام، كي لا أُصادف نادا، في البهو، ولا تراني بوجه مرتخٍ وعينين شبه مُطبقتين. استحممت بماء بارد، حلقت ذقني، وذهبت إلى الصّالون، حيث وجدتها تجلس مع طفليها، أو أخواي. تذكّرت تلك الليلة، التي قضيت فيها وقتًا ممتعًا أصنع معهما طائرات وقوارب من ورق، وما أن لمحتني، حتى طلبت منهما الانصراف إلى غرفتهما، وسألتني إن كنت أريد قهوة بالحليب أو قهوة وحدها. طلبت منها قهوة فقط، بملعقة صغيرة من السّكر. أحضرتها، وجلست، قبالتي، مثلما فعلت، في اليوم السّابق، وهي ترتشف شايًا. توقّعت منها أن تسألني أين قضيت ليلتي الفارطة، لكنها راحت تحدّثني عن حزن والديها، لمقتل زوجها، أو والدي. هذا الأمر أيضًا التبس عليّ، من الصّعب علي أن أنادي شخصًا والدي وقد كبرت على أنه عمّي. وأخبرتني عن نيّة شقيقتها ألينكا، في الاستقرار معها، ومساعدتها، في تربية سفيان وخالد، والاهتمام بشؤونهما. ثم قاطعتها:

- من قتله؟
- الشّرطة تقول أن القاتل، مُهاجر بوسني، وقد اعترف بالجريمة.
- لماذا قتله؟
- بينهما ثأر قديم.

أحسست أن من صار أبي كانت له حياة ثانية، خفيّة، أجهلها، وأظن أنني لن أعرف شيئًا عنها.

- اتّصل بـي أمس فاروق.

قالت لي نادا.

لكنهما لم يتحدّثا، فهو لا يفهم الإنجليزية، وهي لا تتحدّث الفرنسية.

- أرجو أن تتّصل به أنت، وتخبره بكل شيء. يبدو أنه قلق وغير مطّلع عما حصل.

- سأغادر غدًا، وأحكي له حين ألتقيه.

حدّقت فيّ، كما لو أنني نطقت شيئًا مشينًا.

- لكن موعد طائرتك الأسبوع القادم!

- سأغيّر التّذكرة. أحتاج أن أعود إلى الجزائر، لأرتاح.

- اعتقدت أنك ستؤجّل مغادرتك إلى أن نتم الإجراءات القانونية.

- سنتمّها، في وقت لاحق.

أجبتها وأنا أعلم أنني لن أستطيع تغيّير تذكرتي، ولا مال لي لشراء تذكرة جديدة، حين دقّ جرس الباب. قامت من مكانها، ثم عادت مُرفقة بلورينا، التي حملت بين يديها شمعتين حمراوين كبيرتين وكيسًا، من الخضر والفواكه. جلست على طرف الأريكة، وأحضرت لها نادا فنجان قهوة، دون أن تطلبه منها. ارتشفته، على عجل، كما لو أنّها مجبرة على ذلك. أخبرتنا لورينا أنها جاءت فقط لتطمئن علينا، ولن يطول مكوثها، لأن لديها انشغالات أخرى.

لورينا لها ملامح هادئة ومُثيرة للعين، لكنها تبدو لئيمة، ويصعب القبض على قلبها. لم تمضِ لحظات حتى خرج خالد، من

غرفته، باكيًا، وهو يمسك بفأرة حاسوب في يده. ذهبت إليه أمّه لتحمله بين ذراعيها، وتسكته، وقامت لورينا، من مكانها، وسألتني إن كنت أنوي الخروج.

– أنا ذاهبة باتجاه وسط المدينة، هل تودّ مرافقتي؟

كان في نيّتي أن أذهب إلى القلعة، «ليوبليانسكي غراد»، أجلس فيها، وأشغل نفسي بمشاهدة النّاس، الدّاخلين والخارجين إليها، كي أنسى الكآبة التي تملكتني. حيّيت نادا، وسمعتها تطلب منّي أن لا أتأخّر، في المساء، كي نتعشى معا. أحببت أن أسألها لماذا هجمت على سي أحمد، في المقهى، ذلك اليوم، وشتمته، أمام النّاس، لكن لورينا استعجلتني وخرجنا.

في الأسفل، عرّفتني على قريبها ساشا، الذي كان في انتظارنا، على متن سيارة بيضاء صغيرة. استغربت أنه لم يصعد إلى الشّقة معها، لكنني تجنّبت إحراجها بالسّؤال. ركبت في الأمام وهي في الخلف، وانطلقنا إلى حديقة تيفولي. ركن سيارته، ومشينا إلى مقهى، مُجاور لمبنى الأوبرا. لم تنتظر لورينا كثيرًا، وراحت تسرد عليّ ما خفي وما عُلم، تقصّ عليّ حكايات، تسقط من لسانها، كحجيرات صماء، تتكسّر على رأسي. سحبت، من حقيبة يدها كيسًا بلاستيكيًا، مغلقًا بشريط لاصق.

– أرسلته لك إيفانا.

وجدت داخله رواية «قرية الملائكة» لُمراد بورغدة، في ترجمتها السلوفينية، بغلافها الأحمر الدّاكن.

– هل هي بخير؟

– نعم. غادرت، ليلة أمس، إلى سراييفو.

طفقت لورينا تتحدّث عنها كما لو أنهما صديقتان. هـذا مـا حفزّني أن أسألها عنها، عن أحوالها، وأن أسمعها تتحدّث عن تلـك الفتاة النّاعمة، التي ملأت عيني وشغلت بالي، في الأيّـام الأولى مـن وصولي إلى سلوفينيا.

- هي تحتاج أن ترتاح من تلك المُصيبة.

ساشا ظلّ صامتًا. يحتسي كأس بيرة، وهو ينظّـر إلى المـارّة. يستمع إلى حوارنا، دون أن يتدخّل بكلمة واحدة. لم أفهـم مـاذا قصدت بكلمة «مُصيبة»، فآخر شيء عرفته عن إيفانا أنّها غابت في إجازة مرضية، على نيّة أن تعود إلى المقهى حالما ترتاح.

- هي تعتذر منك عما حصل، وترجو منك أن تُسامحها.

- عماذا تعتذر؟

عندما أجابتني، بالتّفصيل، وأخبرتني بمـا لا أعـرف، أصـابني تخشّب ودعوت الله، في قـرارة نفسـي، لـو أن الأرض انشـقت وابتلعتني. وقعت أشياء، من خلف ظهري، لم أكن لأعلم بها، لـو لم تخبرني لورينا. ظهرت كأحمق أمامها. لم أكن أعلم أن إيفانا تقـف وراء مقتل من صار أبـي. ليست وحدها، بل نادا أيضًا شـاركت، رغم أنها لم تتوقّع أن ينتهي غضبها من زوجهـا، بمقتلـه بسـكين يُستخدم لتنظيف حوافر الأحصنة. ما حكته لي لورينا بدا لي أشـبه بفيلم رعب، أضعت بدايته و لم أعش سوى خاتمته. لم أحتمـل مـا سمعته. وازداد الأمر سوءًا لما أعلمتني أن ساشا، الذي لم يتوقّف عـن احتساء كأسه، من دون أن ينفعل إزاء ارتباكي، هو ابـن عمّهـا، وشقيق إيفانا الأصغر. ثلاثتهم من عائلة واحدة، انفلقت إلى جزأين، بين البوسنة والهرسك والجبل الأسود، ثم اجتمعوا صدفة، في ليوبليانا.

كنت أسمع كلامها بفاه مفتوح، وأشعر بدوار حادّ، في رأسي. طلبت قهوة ثانية، قبل أن تتم لورينا قهوتها، ورحت أشعل سيجارة تلو الأخرى، واستمع إلى الحكايات الصّادمة.

- عمّك ترك أملاكًا كثيرة. ستستحوذ عليها نادا.

ما غاب عن لورينا أن الميت هو أبي وليس عمّي، لم أخبرها، لأنني أحسست بخجل أن تعرف أنني عشت، كل هذا العمر، دون أن أعلم من هو والدي. أعلمتني أنها سمعت من يانيس، الذي تجمعها علاقة حميمة به، رغم فارق السنّ الواضح بينهما، أن أبي يمتلك شققًا في ليوبليانا، ومزرعة، في ضاحية غورينسكا. مع ذلك، فلن أرث منه سوى شقّة واحدة، كما أخبرتني نادا، وتنفرد هي بالباقي.

- أظنّ أنه يملك بيتًا في سراييفو.

أخيرًا نطق ساشا، ليُخبرني أن «ميستر أحمد»، كما سمّاه، كان مقرّبا، من مسؤولين بوسنيين، سنوات الحرب. شارك في توصيل مُساعدات غذائية، وفي تهريب أشخاص، من سراييفو إلى زغرب أو ليوبليانا، وأصابته رصاصة قنّاص في كاحل قدمه اليمنى، فصيّرته أعرجًا.

كلّهم ضحكوا عليّ ولم يبقَ لهم سوى أن يطوحوا بي بعيدًا، ويتخلّصوا منّي. سأُريحهم من عناء ذلك، وأخرج من اللعبة بنفسي، فحياتي كلّها ليست سوى كذبة. والدي، المُجاهد القديم، عجز عن مواجهة الموت في بلده، وعلى مساعدة أبناء جلدته، وراح يُعاون غرباء عنه في حربهم، التي لا تعنيه. علمت من لورينا، التي نقلت كلام يانيس، أنّه قضى، ستّة أشهر، تحت المراقبة القضائية، بسبب شكوك حول تورّطه في جريمة وقعت في حرب البوسنة. «خدعني يا دين الرّب»، كدت أصرخ.

اعتقدت أن ساشا ولورينا جاءا بـي، إلى ذلك المقهى، شبه الفارغ من الرّواد، ليحكوا لي ما ضاع منّي، ويكشفوا لي ألاعيب نادا، التي تحرّرت من عبء ثقيل، وباتت أملاك كثيرة بين يديها، لكن سبب دعوتهما لي، كان أمرًا آخرَ، فبعد أن شعروا بتوتري، فاتحتني لورينا.

- أودّ أن تساعدنا.
- في ماذا؟
- خدمة صغيرة.
- ...

راحت تلوي خصلة متدليّة من شعرها، وواصلت:

- أن تقنع نادا بعدم بيع المقهى، وأن تتنازل عنه ليانيس، على أن يدفع لها مُقابلاً، بالتّقسيط.

تلك الملعونة تفكّر في بيع المقهى؟ فهمت أنني ساذج وأنني لا أعلم شيئًا. لهذا أسرعت في دفن جثة أبـي، كي تتفرّغ لممتلكاتها الجديدة. وهذه الشّقراء، جاءت مع قريبها، ليتفاوضا معي كي يخلو المقهى ليانيس، وتصير شريكة معه.

- سأحاول.

اشتدّ صداع رأسي، ورغبت في التّقيؤ. لم أعد أرغب في قول أو سماع أي شيء، ولا في رؤية نادا مرّة أخرى. لن أستطيع النّظر في وجهها، وتقبّل لؤمها الصّامت. قد لا أتمالك نفسي وأضربها أو أفقأ عينها. أحتاج أن أعود إلى شقتّي في حي الرّمان، أن أختلي بنفسي، أن أستوعب الحال الذي وصلت إليه، لكن لا مال لي، لشراء تذكرة سفر. كانت فرصتي الوحيدة أن أطلبه من لورينا. لم يسبق لي أن

طلبت مالاً أو سلفًا من امرأة، لكنني وجدت نفسي مُجبرًا. طلبت منها أن تقرضني ثمن تذكرة، على أن أرده لها، حال رجوعي إلى الجزائر. «أرجوك»، تسوّلت إليها مثلما يتسوّل مساكين بركات سيدي عبد الرحمن. لم تُمانع وألزمتني بأن أقسم بأعزّ ما أملك على مساعدتها في إقناع نادا، بعدم بيع المقهى. لم يكن لي شيء عزيز أقسم عليه، عدا روح من اعتقدت أنها أمي وماتت، قبل سنوات. أقسمت لها أنني سأتصرّف، وأن المقهى لن يُباع. اتّسعت عيناها وشاهدت ابتسامة هادئة، على شفتيها، لم تُفارقها، طوال الطّريق، إلى المطار، حيث رافقتني مع ساشا، وأنا لا أحمل معي شيئًا، عدا رواية «قرية الملائكة»، وسندويتش «شفاتشيشي»، اشتريته من مطعم ألباني، لم تُراودني شهيّة في أكله. ودّعتهما وودعت ثلج ليوبليانا الذي لم ينقطع، ذلك اليوم، ووعدت لورينا بالاتّصال بها على رقم تريغلاو. ركبت الطّائرة وتمنيّت أن تسقط وأصير ترابًا.

# الورطة

ليت «باكا» لم تُفارقنا، لأخبرها أن حبيبها وابن عمّها ميلو، الذي حبلت منه بوالدي، لم ينسها، فقد أخبر معارفه، قبل أن يغمض عينيه بسبب التّيفوس، في قرية بالجبل الأسود، أنّه أحبّ قريبة له، اسمها هيلينا، وعاش معها جنون المُراهقة، بينما كان تيتو يقود حربًا على النّازيين وأعوانهم، وفي أوقات الفراغ يرسم سنبلات تتقاطع حول نجمة حمراء، حوّلها إلى شعار جمهورية يوغسلافيا. لكن «ديدو» ميلو كتم العار ولم يفشِ سرّ الطّفل، الذي تركه في سراييفو، سوى لقسّ، انتظر وفاته، ليُبلغ عمّي، الذي أُصيب بإحباط، وقد بلغت لورينا آنذاك العاشرة من عمرها. دهس فتاة بسيارته، فماتت قبل أن تصل إلى المستشفى وفرّ إلى تريستي، عمل فيها نجارًا ودُفن قبالة بحرها.

لورينا كبرت برفقة أمّها، التي عملت بائعة في متجر صغير، ووجدت، عن غير قصد منها، قطع البازل المفقودة، وجمعت نسل «يوليتش». تركتها خلفي، مع ساشا، الذي كان يعلم بكل ذلك، لكنه لم يتّصل بنا مخافة أن تُعاتبه أمّي على فشله في سلوفينيا، والذي بات يشغل غرفتي في ذلك الفندق المشؤوم، مع أمير، وعُدت إلى البيت، محصورة بين وجه أمّي الصّامت، وصخب آنتشي، التي لم تعبأ بعودتي. فحين حاولت مُعانقتها، صدّتني؛ وانسحبت إلى غرفتها

مُهرولة وضاحكة. شعرت أنّها تقول لي: «أنت طائشة ولا تستحقين أن تكوني شقيقة كبرى لي».

أمّي فطنت لأن وجهي شحب ووزني قلّ، وإلى شفتاي الجافتين، وشهيّتي للأكل التي تكاد تنعدم.

– هل أنت مريضة؟

– كلا. مُتعبة فقط.

متعبة من ثلاث عشرة ساعة، من السّفر برًّا، في حافلة تكتظّ بعمّال وعاملات بوسنيين، تفوح منهم رائحة العرق المختلط بعطور رخيصة، ومن وقاحة الشّرطة، الذين كلّما أبصرتهم، على المعابر الحدودية، قفز إلى ذهني كابوس تكبيل يداي وتلك الليلة التي قضيتها في الحبس. كانوا، في كلّ مرّة، ينزلون كلّ الرّكاب، ويفتشون حقائبهم، واحدًا تلو الآخر، وهم يكرّرون أسئلة مستفزّة: «ماذا كنت تفعلين في سلوفينيا؟»، «لماذا أنت ذاهبة إلى البوسنة؟»، «في أي مدينة تُقيمين؟» وأنا أردّد الإجابات نفسها... نادلة في سلوفينيا، وذاهبة لزيارة أهلي، في سراييفو... مع أن الحقيقة غير ذلك. غادرت ليوبليانا كي لا أعود إليها وأنسى أنها سرقت منّي الرّجل الوحيد، الذي أحببته.

– هل قابلت ساشا؟

– نعم.

– كيف حاله؟

– بخير.

زفرت أمّي، بعمق، وأمسكت برجل كرسي خشبي، دلالة على أن الحظّ وقف في صفّها، وابتهلت للرّب، الذي عطف عليها

وللعذراء، التي استجابت لدعواتها واعتنت بابنها. لكنها لم تهتمّ بحالي؛ لم تسألني كيف قضيت أشهري هناك. هي لا تعلم ما حصل لي، ولن يجدي نفعًا أن أخبرها بالتّفصيلات، هي لا تعرف أصلاً غوران، و لم يسبق أن تحدّثت معها عن حياتي الخاصّة. مدّت رجليها قبالتي، تلوك قطعة من فطيرة تفّاح، وهي مُطمئنة بما سمعته عن ابنها. أخبرتها بما عرفته عن جدّي، وهي تنظر إليّ بعينيها الزّرقاوين المفتوحين، على اتّساعهما، اللذان يعلوهما تجاعيد يتقاطعون على جبهتها، وما إن سمعت أنه كان ابن عمّ باكا، حتى ضربت يدها على صدرها وتنهّدت: «ميلي بوج!». لقد خرج أبي من زنا محارم، وليس لنا سوى دفن الماضي، كي لا يكرّر نفسه.

- أبوك مات ميتتين، حين هجره أباه، ويوم سقط بشظايا قذيفة.

حين كلّمتها عن لورينا، أو بالأحرى ابنة عمّي، وعن والدها، الذي هجرها، مثلما هجر جدي والدي، شعرت كما لو أنني حرّكت شجنًا راكدا، كان ينتظر فرصة فقط، ليخرج من قلبها.

- الرّجال رحلوا ونحن بقينا عالقين.

أخبرتني، وهي تُغالب نفسها لتتكلّم، أن جدّتي ماتت دون أن تتصالح معها. اعتقدت أنّ أمّي سرقت منها ابنها الوحيد، وفرقت بينهما، لذلك أصرّت على عدم زيارتنا في البيت، كي لا تشتعل خصومات بينهما. «كان، في البداية، يُحبّني، عارض أمّه من أجلي، ثمّ انقلب عليّ وصار يتصرّف مثل الجبناء. وعندما شعر بأنّه أخطأ معي، تقرّب من آنتشي ونافسني في حبّه لها». أذكر أن آنتشي كانت مبعوثًا بينهما، حين يحجم أبي على الكلام معها، ورغبت أن

أسألها المزيد عن علاقتهما المتوترة، لكنها غيّرت الحديث وأبلغتني أن قوائم ضحايا الحرب، قد امتلأت بأسماء جديدة، ومن المُحتمل أن تتقلّص المساعدات التي تتلقاها، وباتت تفكّر في البحث عن عمل، لتوفير الغذاء ودفع الفواتير وشراء أدوية آنتشي. باغتني كلامها. أمّي تعمل؟ لقد تركت عملها القديم، في معمل النّسيج، بعد ميلاد آنتشي، لتتفرّغ لأشغال البيت، وأبلغتني أن الطّبيب نصحها أن لا تُجهد نفسها، فقد ضعف قلبها، وهزلت قواها.

- سأجد عملاً، وساشا سيتّصل بك ويُرسل لك مالاً، ولن تحتاج للخروج من البيت.

ردّي المشجّع لم يكن مقنعًا لها. ردّدت تعويذتها المملّة: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها»، ثم صمتت.

لن يصعب عليّ إيجاد عمل في شقق التّأجير، أو في واحد من الفنادق الصّغيرة، التي حوّطت باشتشارشيا. فلم يعد يوجد بوسني واحد، يُقيم في محيط وسط المدينة، كلّهم أجرّوا ممتلكاتهم، أو حوّلوها إلى عقارات سياحية، وذهبوا للعيش في الضّواحي، أو في قرى قريبة. في الماضي، سكن محتلّون وسط البلد، واليوم يحتلها سيّاح. المهم أن لا تخرج أمّي للعمل كمتسوّلة، وأن لا أرى وجهها يضمر مثل حبّة عنب ذابلة. لكن قبل ذلك، توجّب عليّ أن أطهّر عقلي من الصّدمات التي عشتها، في سلوفينيا، وأن أُواصل كتابة المسرحية. أكمل مُسوّدة أولى، أرسلها إلى «مسرح التّل»، الذي يُشرف عليه ديشان، أستاذي السّابق في الأكاديمية، وفي حال وافق عليها، أشتغل عليها وأنهيها. وأنتظر ردّ سليم على طلبي له. هل قرأ رسالتي إليه؟ قلبي مشتّت؛ قد يكون غاضبًا وحاقدًا عليّ، ولم يغفر لي خطيئتي، وتسببي في مقتل عمّه.

لن أستاء من ردّة فعله. لو كنت مكانه فلن أسامح من يتسبّب في أذى لأي واحد من عائلتي القريبة.

كلّ يوم، أستيقظ في السّابعة صباحًا، وأتمشّى في شارع أوبالا كولينا بانا، ذهابًا وإيابًا. أنظر إلى نهر ميلياتسكا، وأتحسرّ على الحال التي وصل إليها. منسوب الماء انخفض ولونه تلوّث. لا أظنني أملك جرأة الشّرب منه، كما كنت أفعل سنوات الحرب. أتفرّج على الترامواي، الذي يسير بعكس اتّجاه المجرى، وعلى المارّة وهم يُسرعون الخطى أو يركضون، كما لو أنّهم لم يتعوّدوا على الأمان، ثم أعود إلى البيت؛ أجلس إلى طاولتي الصّغيرة، أسدّ أذناي بقطعتي قطن مبلّلتين، كي لا أسمع نشيج وقهقهات آنتشي، ولا يصلني وقع أقدام أمّي وهي تعبر خلف الباب، للتّلصّص عليّ، وأكتب إلى غاية الثّامنة مساءً، مع جرعات متقطّعة من قارورة راكيا وسجائر درينا. الوقت يركض وأنا أكتب، كما لو أنني أُصبت بلوثة. أسبوع يتلو أسبوعًا وأنا أسوّد الورق كي لا أشيخ، ولأتخلّص من إحساس بأنني أسبح في فراغ. أنتقل من مشهد إلى آخر، كما لو أنني أكتشف الكتابة للمرة الأولى، بلذّة من تكتب لتبلغ الأورغازم، ومن شخصيّة إلى أخرى، وأنا أفكّر في سليم، أتخيّل حياة ثانيّة له، ألعب بقدره، من الجزائر إلى سراييفو. أطلقت اسمه على الشّخصية الرّئيسية، التي تتقاسم البطولة، مع بوسنية، تتمّ عامها الأخير في معهد الفنون التّشكيلية، أسميتها تانيا، تيمّنًا بصديقتي المُفضلة، ثم تذكّرت أن عادتي الشّهرية قد تأخّرت. ظننت أن القلق الحادّ، الذي تملّكني، منذ عودتي، هو سبب تأخّرها، لكنني اكتشفت ما كنت أخشاه. اشتريت اختبار حمل، بلّلته بقطرتي بول، وارتفعت ضربات قلبي. وقعت في

المصيدة وحبلت من رجل يقبع في السّجن، وقد لا يخرج منه سوى كهل، أو جثّة. «لطالما أمتع نفسه دون أن يُمتعني وأهملت أن ألزمه بالعازل»، حدّثت نفسي. كدت أبكي وأنا أجلس في مرحاض البيت، لكنني عضضت على شفتي، كي لا أنهار ولا أضاعف من حدّة الصّدمة. «كورفا... اللعنة... الجحيم»، رغبت في الصّراخ بكلّ الكلام الفاحش الذي أعرفه. أمّي لن تصدقني لو حكيت لها الحقيقة، وقد تظنّ أنني ذهبت إلى سلوفينيا للمتاجرة بجسدي. وإن حصل وغفرت لي، فلن تستطيع مُساعدتي في التكفّل بالرّضيع، فهي تقضي وقتها بالقرب من آنتشي، وفي الاعتناء بها. سأُضيع على نفسي فرصة إيجاد عمل، وتتوقّف كل مشاريعي الشّخصية، وتصير حياتي مُعلّقة بطفل بلا أب. ليس لي خيار آخر سوى إسقاط الجنين. لكن هذا الأمر يتعارض مع قناعاتي، ويحشرني مع زمرة القتلة.

كاد يُغمى عليّ، وأنا أنظر إلى نهداي المسترخيين، في المرآة، وقد لامستهما نسمة باردة. أحسست بتصلبّهما، وبألم خفيف كلّما وضعت إصبعي عليهما، واضطرم خوف في رأسي، حين سمعت طرقًا خفيفًا على الباب. فكّرت أن واحدة من الجارات أو من مرتادات الكنيسة، جاءت في زيارة لأمّي، ولم أتخيّل أن أجد أمامي ناتاشا، شقيقة غوران. لاحظت أنها نحفت، وقد قصّت شعرها وصبغته بالأصفر. دمعت عيناها وهي تسألني:

- ماذا حصل لأخي؟

هو بخير، لكنه لن يعود. سيقضي سنوات في حجرة ضيّقة، لا نافذة فيها. سيجرّب أمراضًا جديدة، ولن يجد المرأة التي تحبّه، وتحضّر له القهوة، دون أن يطلبها منها.

لبست، على عجل، بنطالي، وسترتي الجلدية البنية، صففت شعري بيدي، كي لا تتفطّن أمّي للشّخص، الواقف على الباب، ثم سحبتها معي إلى خارج العمارة.

- نذهب إلى مقهى ونتحدّث.

تبعت خطواتي، وهي صامتة. شعرت بحزنها، وسمعت شهقاتها المكتومة.

ما أن جلسنا في مقهى، بشارع ساراتشي، حيث تصطف محلاّت الحرفيين وبائعي الأواني النّحاسيّة، حتى بادرت بسؤالها عن أمّها، كي أخرجها من الحالة المتأزمة التي وجدتها فيها.

- بخير. أخبريني، ماذا حصل وكيف حصل ذلك لغوران؟

طلبت ناتاشا من النّادل قهوة بالحليب، وطلبت منه كأس راكيا، غير مُبالية بتلك الرّوح التي تكبر في أحشائي. حدق فيّ وأخبرني أنهم لا يقدّمون مشروبات كحولية. اعتقدت أنني قلت كلامًا بذيئًا يستحق منه تلك النّظرة الشّرسة، فعدّلت رأيي وطلبت منه فنجان قهوة وقارورة ماء صغيرة.

أنبأتني، بصوت خشن من كثرة التّدخين، كما لو أنّه صوت رجل، أنّ محاميًا اتّصل بها، من ليوبليانا، وأخبرها أن غوران في السّجن، بسبب جريمة قتل. شمّموا ثيّابه لكلاب الشّرطة، الذين عثروا عليه، بالقرب من محطة القطارات، وهو ينوي الفرار إلى كرواتيا. وقد حُكم عليه بالمؤبد. «انتهى كلّ شيء»، قلت في نفسي. لقد فكّر في الهجرة إلى كندا، وحرّضني على التّفكير في ذلك ومرافقته، وقد تحقّق له مُراده، وهاجر، ليس إلى وجهته، بل إلى السّجن. أعلمها المحامي أن امرأة اسمها إيفانا، شهدت ما حصل، وقد عادت

إلى سراييفو. لا شكّ أنه عرف بموضوع مغادرتي من الشّرطة، الـتي كانت تُراقب تحركاتي. «كوكافيتسا»، شتمتهم بداخلي.

حدّثتها عن فشله في فرنكفورت، وطرده من مقهى العربـي، وعن عمله بين روث الأحصنة، لكنني لم أقُل لها أنني عثرت عليه بين ذراعاي فتاة شقراء. فتلك الفتاة ابنة عمّي، لم تكن تُقايض جسدها عن قناعة، بل فقط كسبًا للمال، لمُساعدة شقيقي، وكي لا تموت جوعًا أو بردًا.

أحضر النّادل لنا طلباتنا، وكرّر نظرته الوقحة لي. رغبت أن أضع رأسه بين فخذيّ وأتبوّل عليه. ظلّت ناتاشا صامتة، وهي تسمع وتنظر إليّ. ومن حين إلى آخر تضرب راحة يدها على جبهتها، وتلعن أخاها..«يابـي سا... وغد... كورفا».

- سرق أموال أبـي ومجوهرات أمّي، سلّمهم للتشتنيك ليسمحوا له بالفرار.

أخبر والديه أنه ينوي مغادرة سراييفو، بمساعدة واحد من المهرّبين، وفي الصّباح وجدا أن كلّ ممتلكاتهما قد اختفت. لكن غوران أخبرني بأمر مختلف. لم يطلعني على الحقيقة. لم أكن أعلم أنه سلب كل ما تملك عائلته، وتركهم يلطمون وجوههم. استغل طيبتي وحبّي له، وكذب عليّ. لقد طُرد من فرنكفورت، بعدما سرق مدّخرات أصدقاء له، استضافوه وفتحوا له بابهم. وربما كان سيسرقني أنا أيضًا، لو وجد في غرفتي شيئًا ذا قيمة. تذكّرت ذلك المثل الشّعبي: «ستدفع ذهبًا لتتعرّف على من تجهله»، وأنا دفعت أحلى سنوات عمري لأتعرّف على لصّ وأحبّه.

- أبـي مات وهو ناقم عليه. وأمّي لا تُريد أن تراه. وإن

عاد، سينتقمون منه، فقد وشى بواحد من قادة «الأرميا»، وقتلوه مع رفاق له.

شعرت بغثيان، و لم أستطع إكمال القهوة. احتجت أن أتمدّد، وأبكي دون أن يسمعني أحد، أن أتخلّص من الورطة التي سقطت على رأسي. ناتاشا لم تعلم أني كنت أحمل في بطني جينات شقيقها، وأنها قد تصير خالة، لابن لصّ وكذّاب وواشٍ، ومحكوم عليه بالمؤبد.

قمت من مكاني، بعد أن سكبت قارورة الماء في جوفي، وعزمت على توديعها، حين أسرّت لي:

- أمي لا تعلم بما حصل، لكنني أودّ زيارته في السّجن.

فكّرت في أن أطلب من لورينا استضافتها في غرفتها، بضعة أيّام، كي تزور شقيقها، والأهمّ من ذلك، أن تخبره كم صرت أمقته، ولا أُبالي بالمصير الذي وصل إليه. لكن خيطًا رفيعًا يُعيدني إليه. لقد أذاقني الحلو والمرّ، الحبّ والألم، علّمني النّقيضين، ولن يستطيع شخص آخر أن يجمع بينهما بعده.

في طريق العودة، لمحت خالتي برناردا، وهي تخرج من «فندق أوروبا»، تحمل حقيبة صغيرة في يدها. هل تعمل منظّفة في الفندق؟ شكلها أوحي لي بذلك.

- كيف حالك خالتي؟

عانقتها بحرارة، ومسحت على وجهها، الذي يُشبه وجه أمّي، بعينين كبيرتين وأنف مستوٍ. سعدت أنني رأيتها، بعد سنوات، من معاداتها لنا. لكنها ردّت عليّ ببرودة، كما لو أنّها تحرّجت من مُلاقاتي.

- كيف حال أمّك؟

- بخير.
- وشقيقتك؟
- بخير أيضًا.

سكتت، للحظة، ثم أردفت:

- لقد عاقب الربّ أباك، بأن مرضت ابنته الصّغرى.

لم أفهم ما قصدت بكلامها، وبدا لي أنها تحقد على أبــــي.

- كان يعمل مع التشتنيك، وينقل لهم الأخبار.

رغم كرهي لأبـــي، فإنني لم أتقبّل ما قالته عنه. أظنّ أن الربّ عاقبها هي، وجعل منها خادمة في فندق، لأنها خاصمت شـــقيقتها. واصلت طريقها وتركتني واقفة في مكاني، أتصبّب عرقا وبرغبة في أن أصفعها أو أصرخ في وجهها.

لم أخبر أمّي عن لقائي بها. انعزلت في غرفتي، ورحت أسرع في إكمال مسوّدة المسرحية. رائحة كريهة طلعت منّي، كما لـــو أنهـــا رائحة سمك عفن، وقررت أن أذهب، في الغد، إلى مسرح التـــلّ، في نهج تيتو، وأسلّم ديشان ما كتبت، وأنتظر رأيّه، ثم أمرّ على طبيـــب النّساء، لإجراء الفحوصات، والتّصوير بالألتراساوند، لأتأكد ممـــا في رحمي. لا حلّ آخر لي سوى الإجهاض في حال ثبـــت حملـــي، ثم العودة إلى روتين الحياة، والعمل مرغمة كنادلة أو موظّفة استقبال، في حال رفض ديشان نصّ مسرحيتي.

في الصّباح الموالي، قبل أن أخرج، حملت لي أمّي ظرفًا بريـــديًا. تعلوه طوابع غريبة، رسمت فيها أباريق. كان ظرفًا من الجزائر، يحمل مخطوطة كتب لي فيها سليم تفصيلات من سيرته؛ عن والده، المُناضل السّابق في حرب الجزائر، دراسته وعمله في الصّحافة، عن شـــخص

يُدعى فتحي، وفتاة أحبّها ثم هجرته، وعن مشاعره تجـــاه امـــرأة، لم يذكر اسمها، لكن وصفها يُشبهني. هل قصدني أنا؟ لماذا لم يُصارحني؟ كتب تفصيلات مهمّة، ستُساعدني في استكمال المسرحية، وفي إقناع ديشان على تجسيدها. وفي مخرج العمارة، بينما اختلطت مشـــاعري بين خوف من الحمل وغبطة أن سليم كتب لي ما أُريد، مع أنه طلب مني، في ذيل الرّسالة، أن أفعل الشّيء نفسه، وأكتب له تفصـــيلات حياتي، صادفت جارنا توميسلاف، وهو يمسك بســـيجارته، بيـــد ترتجف. وضع راحة يده على فمه، وهو يسعل، وينظـــر إلي بعيـــنين نصف مغمّضتين.

- زدرافو.
- زدرافو غوسبودين توميسلاف.

لم يسبق أن أوقفني أو تحدّث معي، بل مطلقًا لم يسبق أن بادلني التّحية.

- أودّ رقن نصّ صغير، في ذكرى وفاة إيليـــا، وإرســـاله إلى جريدة قصد نشره.

إيليا، الذي كان يُشبهني بالبالون، لو قام من قبره سيُشاهد كم هزلت، لم أعد «غوزيتشاركا»، مؤخرتي الآن مسطّحة، تُشبه مؤخرة جرو.

- في خدمتك.

# في بيت سعدية

قطعت آلاف الكيلومترات، وقضيت شتاءً في بـــلاد الشّـــمال، لأدرك أنني مُجرد أبله، بعينين معصوبتين، ونسب مشكوك فيه. أفنيت ربع قرن ويزيد متوهّمًا أن أبـــي يعيش معي، ولم أتخيّل أنه رجل آخر؛ مُهرّبًا ومُجنّدًا في حرب البلقان. قتل وكاد يُقتل برصاصـــة قنّـــاص. كسب معركته، وخرج مزهوًّا من سراييفو، كوّم نساء وعشـــيقات، اشترى أملاكًا وعقارات، لكنه خسر ابنه، ولم يحفظ كرامته. هذا مـــا كتبته، في اليوم الثّالث من عودتي، بعد مُحاولة انتحار، فاشلة، بتقطيع شرايين يديّ. هل يصلح أن يكون نواةً لرواية أقصّ فيها حياتي؟ لعـــل فاروق يقرأها، يومًا ما، ويُقاسمني ما شعرت به، فقد صرخ في وجهي حين سألته من هو أبـــي، ولم يصدّق ما سمعته.

- لا تكرّر هذا الكلام.

قالها وهو يرفع سبابته كما لو أنّه يؤنبني. «خـــاف ربـــــي»، غمغم وراح يدور في الصّالون كما لو أن نحلة لدغته.

- الحاجّ خرف، وأنت لحقت به. تلزمك رقية.

كلا، لم أخرف ولا أحتاج رقية. وبما أنني بعقلي فقد حـــزرت أنه لن ينفعني أن أواصل الجدل معه. فيوم وُلدت، لم يتجاوز الخامسة من عمره، ومن الطّبيعي أن الأمر قد أخفي عليه هو أيضًا. نفى كـــلّ الأشياء التي حكتها لي نادا، ولامني على أنني تركتها تتصـــرّف، في

جثّة سي أحمد، وسمحت لها بدفنه في بلاد غريبة وبعيدة.

- لو أنّ الحاج بعقله لتبرّأ منك.

لم أفعل شيئًا يلومني أحد عنه، فهو قرّر الاستقرار، في سلوفينيا، وله عائلة هناك، وأنا لست سوى «غلطة»، نطفة هاربة، وُلدت في لحظة شكّ، وتبرّأ منّي، ثم راجع نفسه وعطف عليّ. شعرت بغضب فاروق منّي، فتركته، ودخلت إلى غرفة الحاجّ. هو الحاجّ وليس أبي، رغم أنني أشعر بذنب إن لم أفكّر فيه كأب. منذ أدركت العالم، لم أعرف أبًا غيره، هو ربّاني، ولم يخذلني. حزنت لحاله؛ صار فاروق يغيّر حفاظاته، بعدما نسى كيفية استخدام المرحاض. وجدته يحمل سبحة من الكهرمان، ويتمتم. حيّيته، ولم يتعرّف عليّ. جلست، على طرف سريره، وسألته إن أكل شيئًا واكتفى بنعم جافّة، كما لو أنه غير متحمّس للكلام معي. أشاح بوجهه عنّي، ثم عاد إليّ سائلاً: «هل أذّن العصر؟». كان الوقت ظهرًا، ثم إنّه توقّف عن الصّلاة، من زمان، ولا حاجة له لمعرفة مواقيتها. أجبته بالنّفي، فخفض عينيه، كما لو أنه يريد إنهاء الحديث.

مليكة عرفتني صحافيًا وابنًا لرقيب أوّل في جيش التّحرير، وقد تشعر بإحباط، كالذي أشعر به، حين تكتشف أنني عشت في نكتة ثقيلة، وبهوية غير هوّيتي الحقيقية. حسمت أن أذهب إليها في شقّتها، أحضنها، أقبّلها، أسمع منها كلمات تقلّل من حدّة توتري، وتخلصني من الاكتئاب الحادّ، الذي تملّكني، نتناقش، ونرى ما يجب فعله. لكن الوقت ما زال مبكرًا، هي لا ترجع من الثّانوية قبل الرّابعة، وقد أمرّ عليها في الخامسة، تكون حينها مُستريحة على أريكتها، تشرب قهوتها أو تستمع للموسيقى.

قصدت وكالة توزيع المطبوعات الأجنبية، في شارع بلــوزداد، الذي يتمدّد ويتلوّى مثل حنش كسول، وتحرسه دوريّــة شــرطة، لمُلاقاة فتحي، واعتقدت أنني ســأدخل مركــزًا، بمكاتــب كــثيرة ونظيفة، فوجدته مجرّد شقّة صغيرة، من غــرفتين ومطــبخ وحمّــام، في عمارة قديمة، بسلالم حالكة السّواد ورطبة. كان فتحــي يشــغل غرفة ضيّقة، لا تتّسع لأكثر من شخصين. يجلس خلف طاولة، ترتفع فوقها كومة من المجلات، وعلى جانبه الأيمن فنجان قهوة بلاستيكي فارغ.

- حبيبــي... سليم...

أقدم عليّ معانقًا، وبدا سعيدًا برؤيتي، فنحن نقتسم كثيرًا مــن النّكت ومن المقالب والذّكريات المشــتركة. «ســلوفينيا خرجــت عليك» قال لي وهو يحكّ يده على ظهري. «بل خرجت فيّ» رددت عليه. رغم أنّه متزوّج وأب لصبية، فهو ما يزال زيــر نســاء، مــن الصّف الأوّل، لا تمرّ أمامه امرأة دون أن يفحص خصــرها ويقــيس اتّساع ردفيها. والبذاءة لا تفارق لسانه. لم يسألني عن حالي بقدر ما سألني عن نساء البلد، الذي جئت منه.

تأفّف من ذلك العمل، الذي بالكاد يكسب منه قوت شــهره، وردعت رغبتي بأن أسأله عن إمكانية الالتحاق به. قام من كرســيه، رفع سرواله المتدلّي، واقترح عليّ أن نخرج إلى مقهى مُجاوِّر.

- عندي ليك خبر يعجبك.

بمجرد جلوسنا في مقهى، على زاوية زقاق تمتلئ حيطانه بصور ورايات فريق شباب بلوزداد، جاء النّادل يحمل معه فناجين قهــوة. «صحّيت خويا»، شكره فتحي.

لم يتغيّر شيء في صديقي، عدا شاربه، المصفّف، بشكل أفضل، عما كان عليه من قبل، وأسنانه التي بدأت تصفرّ، من كثرة التّدخين.

- كيف حال ابنتك سميّة؟
- بخير.

على واجهة المقهى، علّقت صورة كبيرة للشّاب مـامي، مـع إعلان حفل له، في عيد الاستقلال القادم. خمّنت أن أحضـره مـع مليكة، مع أن مامي هو غريم مغنيّها المفضّل الشّاب خالد.

- هل من جديد بخصوص الجريدة؟

سخر منّي فتحي حين سألته عن جريدتنا السّـابقة وإمكانيـة عودتها للصّدور.

- أظنّ أنك لا تعرف كيف يسير هذا البلد!

أنا لا أعرف نفسي، فكيف يُريد منّي أن أعرف بلدًا، تلتهمـه حرب، وهو يحتفل بسهرات الرّاي، ولا يُبـالي. أخـبرني أن كـلّ شكاوى مدير النّشر لم تنفع، لإعادة إصـدار الجريـدة، وشـعرت بإحباط مُضاعف، فأنا لا أعرف مهنة أخـرى ولم أمـارس غـير الصّحافة. اعتدل فتحي في جلسته، ثمّ برقت عيناه، وهو يُعلمني أنّـه حصل على غرفة مستقلّة، في فندق المنار، وظننت أنّ هذا هو الخـبر العظيم، الذي أراد إبلاغي به، قبل أن يردف:

- تعرّفت على مسؤول كبير. وعدني بأن يُسهل لنا الحصول على اعتماد جريدة جديدة.

أعرف أن له علاقات متشعّبة. فقد انخرط في تنظيمات طلاّبية، سنوات دراسته في الجامعة، ثم التحق بالحركة الأمازيغيـة، وربطتـه علاقة طيّبة مع وزير سابق، لكنني لم أشعر باستعداد للتّفكير في تجربة

مثل التي اقترحها عليّ. أن نصدر جريدة جديدة، والبلــد يتــرنّح في الفوضى، فتلك مُخاطرة. ثم علينا البحث عن داعمين وعن شركات تقبل نشر إعلاناتها، وذلك أمر مُعقّد.

- نحتاج فقط 100 مليون سنتيم وننطلق.

اعتقد فتحي أنّ أبــي، المُجاهد القديم، الــذي يســتفيد مــن امتيازات، قد يُساعدنا في جمع المال المطلوب. لم يكن يعلم أن الحاجّ ليس أبــي، ومن هو أبــي قد مات مقتولاً، ودُفن في غربته. لم أرد أن أخبره بالحقيقة، فالأمور لم تكن واضحة في بالي، ثم إنني أتفــادى أن يخرج أمر شخصي وعائلي عن إطــاره، ويصــل إلى أشــخاص آخرين. أكملت قهوتي وطمأنته أن أفكّر في الموضوع، تجنبًا لإلحاحه. تحدّثنا قليلاً عن الوضع العام، وانصرفت، بعد أن اتفقنــا علــى أن أزوره، في الأيّام القادمة، ونتناقش أكثر حول هذا المشروع.

ازدادت خفقات قلبــي وأنا أقترب من بيت مليكة. اشتريت، في الطّريق، باقة ورد، من يافع أسمر، وتذكّرت قصّة ذلك الطّفــل، بائع الورد في سوق مغطّاة، الذي انفجرت قنبلة بين يديه، ومات معه كثيرون، من بينهم زوجة خال مليكة. سحبت رواية «قرية الملائكة» المترجمة، من حقيبة ظهري الزّرقاء، فقد تركت الأخرى السّوداء، في سلوفينيا، ومزّقت الصّفحة الأولى منها، حيث كتبت لي إيفانا، بخطّ صغير، رسالتها. طويتها وأخفيتها في جيب بنطالي الصّغير، خشية أن تصل إليها يد مليكة، وتُشعل غيرها.

صورة إيفانا في ذهني اختلطت مع شكوكي حولها. لا أخفــي أنني حقدت عليها، في البدء، ورغبت في كسر عنقها، ثم شيئًا فشيئًا هدأت انفعالاتي، وزال لومي عليها. تخيّلتها، مرّة، دراكولا، تحيــك

مؤامرات وتعتاش من دماء ضحاياها. ثمّ استعدت ما حكته لي لورينا، لأدرك أنها هي أيضًا خُدعت، وأن حبيبها، المسمّى غوران، اكتسح غابتها، وغنم من ملذّاتها، ثمّ ورطها فيما لا تحتمل. لقد اعتذرت لي عما حصل، عزّتني في عمّي، الذي صار والدي، وأخبرتني عن شروعها في مسرحية مُقتبسة من «هيروشيما، حبّي»، تستلهم بعضها من حياتي. هي لم تفعل شيئًا سوى الدّفاع عن نفسها، كما أن المُجرم أُلقي القبض عليه، كما أبلغتني لورينا حين هاتفتها على رقم تريغلاو.

طرقت الباب، كما تعوّدت أن أفعل؛ طرقتين خفيفتين، ثم أتوقّف، فطرقة ثالثة. كان ذلك أشبه بكود بيني وبين مليكة، لا تسأل من الطّارق، بل تفتح مباشرة. تصوّرت أنها ما أن تراني، حتى تقفز إلى عنقي، تضمّني إليها، تفرح وتهمس في أذني: «توحّشتك»، وأحضنها، بدوري، بما أوتيت من قوة وشوق لها، وأدنو منها: «ملوكتي»، كما تعوّدت أن أدلّعها، وقد تُعاتبني قليلاً، لأنني لم أخبرها عن موعد رجوعي. انفتح الباب، وظهر نصف رأس فتاة محجّبة، تزيّن جفنيها بكُحل. لم أتعرّف عليها، للوهلة الأولى، حتى بلغني صوتها. كانت حورية. تذكّرت أنني وعدتها بعلبة شكولاتة، وأخلفت وعدي.

- سليم. على سلامتك. وش راك؟
- بخير. وأنت؟
- لا بأس.

بقيت واقفة خلف الباب المُوّارب، كحارس متوجّس، تنظر إليّ في احتشام. ولم تدعوني إلى الدّخول. شعرت بحرج، واعتقدت أنني جئت في وقت غير مُلائم.

- مليكة هنا؟

من ملمح وجهها، توقّعت أن شقيقتها لم تصل بعد، أو أنّها جاءت ثم خرجت. لمحت خلفها طيف فتاة قصيرة القامة، كما لو أن أصدقاء أو أقارب جاؤوا لزيارتها.

- مليكة في فرنسا.

ماذا تفعل هناك؟ ذهبت في رحلة سياحية؟ لم تخبرني عن نيّتها في السّفر. انتبهت حورية لتعجّبي، وفهمت أنني لم أستوعب ردّها.

- تزوّجت وراحت.

قالتها وهي تُدير بصرها عنّي. يبدو أنّه كان يومًا للنّكت. فتحي يقترح عليّ، في لحظة من لحظات جنونه، إنشاء جريدة، تكتسح السّوق والقرّاء، وحورية تُخبرني أن شقيقتها، وحبيبتي، قد تزوّجت وسافرت. ابتسمت لها كأحمق. مسّدت شعري بيدي، وأنا أقبض باقة الورد بيد أخرى، معتقدًا أنها تُمازحني. ظلّت ممسكة بطرف الباب، وهي تلقي عليّ ما لم أكن أتوقّعه. عاد حبيبها السّابق الصّيدلي حميد، بعدما سوّى وضعيته في فرنسا، تزوّجها، وطارا بعيدًا. سبق وأخبرتني أنه وعدها بزواج وعائلة وأطفال، أمّا أنا فلم أعدها بشيء. عشت معها، على آمال مؤجّلة. تركتها، قبل ثلاثة أشهر، وهي تعلم أنني صرت بلا عمل وبلا مستقبل واضح، وقد تكون اختارت الطّريق الأسهل، فضّلت الزّواج من رجل أحبّته، وهجرت رجلاً آخر أحبّها. كانت حورية تكلّمني وأنا بفم نصف مفتوح، بالكاد أسمع صوتها، كما لو أنني صنم من حجر صوان. أعلمتني أنها بصدد جمع أغراضها، مع صديقة لها، لإخلاء الشّقة، والانتقال للعيش في الحيّ الجامعي.

أعذر حورية، فشقيقتها كانت جبانة. حين حكيت لها، الصّيف الماضي، عن انتحار جارتي نبيلة، ردّت علي: «رأسي ورأسك في شاشية واحدة. نحيا معًا أو نموت معًا». لم تقدر على مواجهتي وقول الحقيقة، وكلّفت شقيقتها نقلها لي بدلا عنها.

– خامْجة.

همهمت، وأظنّ أن حورية سمعتها. ما إن شكرتها، وأنا أكبح رغبتي في ولوج البيت وتحطيم كلّ ما فيه من أثاث، حتى أغلقت الباب، وبقيت وحدي، معلقًا كشاة تنتظر جزارًا. «العاشق لا يُلام... والحبّ على العاشق مُقدّر»، غنى الشّاب خالد. لكن مليكة لم تكن تستمع إليه بقلبها، بل بأذنيها فقط. «يا ربّ صبرْني... وخذ الحقّ على اللي ظلمني»، قلت كما قال خالد، ورميت باقة الورد، في مزبلة أسفل العمارة، عائدًا إلى شقتي المحفّزة على القنوط.

فتحت حنفية الحمام، لأغسل وجهي، وأمخطّ أنفي، فخرج ماء يميل للاصفرار، برائحة تُشبه رائحة بيض عفن. لم أتقزّز منه، فأنا أيضًا شخص عفن. وتذكّرت قارئة الفنجان، في ليوبليانا. لقد رأت سكينًا واحدًا وليس اثنين. قالت أنني سأقطع علاقة ما، وحصل ذلك ومات سي أحمد، لكنني لم أتخيّل أن علاقتي بمليكة أيضًا في طريقها للفناء.

نظرت إلى السّاعة الحائطية المتوقّفة، وأرجأت أمر كسرها. خرجت، في ذلك المساء، وأنا أسمع نباح كلاب ضالة، وقهقهات مسطولين على طرف الحيّ، يلتفّون حول نار تلتهم القمامة، أوقفت سيارة أجرة وذهبت إلى محطة خروبة، وركبت الحافلة المتّجهة إلى بوسعادة، بغرض لقاء خالتي سعدية، أو من اعتقدت أنها كذلك.

كانت مقرّبة من أمّي، أو بالأحرى زوجة عمّي، ولا بدّ أن تُخبرني بما غاب عنّي.

حين شاهدت نصف الحافلة ممتلئًا، ولا سيّما من شباب، في مثل سنّي، ارتحت. إذا صادفنا حاجزًا مزيّفًا من حواجز نواطير الأرواح، فلن أموت وحدي، وتؤنسني جثث أخرى في نومي الأخير. ثم لا حرج أن أموت، فأنا لست سوى لعنة، بماضٍ مُخجل، لا أب لي ولا حبيبة. جلست في مقعد خلفي، أشعلت الإنارة فوق رأسي، سحبت أوراقًا، ورحت أكتب كلّ ما يخطر على بالي لإيفانا. قرّرت أن ألعب معها اللعبة وأجدّد علاقتي بها. كتبت لها عن حياتي، التي لم تنفع أحدًا، لعلها تفيدها في مسرحيتها، وأقدّم خدمة واحدة أرضى عنها، لكنني لم أخبرها عن أبي الحقيقي، أظنّها هي نفسها لا تودّ سماع شيء عنه. لقد ظلمها وعاملها كعاهرة، وحاول قتلها.

كانت ضربات قلبي تزداد كلّما خفضت الحافلة، التي تتهادى في سيرها، من سرعتها، معتقدًا أنّ حاجزًا مزيفًا في انتظارنا، لتواصل طريقها وأعلم أن السّبب ليس سوى منعرج أو حدبة على الطّريق، بينما يتمدّد في مقعد بجانبي شاب طويل، بهيئة رثّة، أزعجني صوت شخيره، فكوّرت قطعتي ورق صغيرتين، سددت بهما أذناي. لم يتوقف عن العزف بمنخريه وهو نائم سوى في الحاجز العسكري، على مدخل مدينة سيدي عيسى، حيث صعد جندي، وهو يفرك عينيه، لمُراقبة وثائق الرّاكبين. و لم أستطع أن أغفو، طوال الطّريق، كما لو أني شربت منشطًا. ظلّ عقلي يقظا، أتخيّل مليكة وهي تنام جنب حبيبها، في فرنسا. أضحك عما كانت تسرّه لي: «لن أقدر على نسيانك». لو أنني علمت بخيانتها لي وأنا في ليوبليانا،

لاقتربت من إيفانا، وصارحتها: «كلّما نظرت إليك شعرت برجفة في قلبي». قد لا يُقنعها كلامي، للوهلة الأولى، لكنني كنت مستعدًا لملاحقتها والظّفر بحبّها لي. لقد انتهى كلّ شيء، وصرت وحيدًا، ولم يعد يهمّني سوى ما تخبّأه لي خالتي سعدية.

قبل أشهر، قطعت هذه الطّريق، لطلب وثائق شخصية لسي أحمد، فهمت فيما بعد أنه احتاج إليها لاستخراج جواز سفر له، وليس لابنيه، وأجدني أعود إليها، بحثًا عن أوراقي الشّخصية. لماذا تخلّى عنّي أبي؟ من هي حقًا أمّي؟ هل هي أرملته الأولى، كما قالت لي نادا، أم أخرى؟ استحوذت عليّ فكرة أن أمّي ليست نفسها التي قال أنها انتحرت. فكّرت أنه أنجبني من امرأة أخرى، ما تزال حيّة.

بالوصول إلى محطة بوسعادة، لجأت إلى مقهى قبيح، يُقابل ملعب الكرة، الذي يتحوّل، مرّتين في الأسبوع، إلى سوق ماشية، أشعر بألم العصعص من كثرة الجلوس. كانت السّاعة تقترب من الخامسة، وآذان الفجر يصدح في خمول، وليس من المناسب أن أطرق باب سعدية في هذا الوقت المبكّر. طلبت قهوّة مركّزة، وجلست، أتسلّى بمنظر سائقي سيّارات جماعية وهم يتخاطفون الرّكاب، أتلصّص على عمّال يستعدون، بكسل، لبدء يومهم، وأرمق التّلفزيون المعلقّ على جدار المقهى، الذي يبثّ أغانٍ، من محطة غربية. قضيت ثلاث ساعات وأنا مُرتكن إلى كرسي، أكملت فيها أربعة فناجين قهوة مرّة، بلا ذوق، قبل أن أخرج، وأرى أن الحياة بدأت تنفتح على المدينة. صادفت مكتب بريد، بالقرب من محطة المسافرين، أرسلت منه المخطوط الذي كتبته، دون مراجعته، إلى إيفانا، ثم

أوقفت سيارة أجرة، وذهبت إلى «شباط»، أو حيّ اليهود قديمًا، لمقابلة خالتي.

وجدت الميلود، زوج سعدية، يجلس على عتبة الباب، في شارع طويل، تتناوب فيه الحفر، يفضي إلى وادي بوسعادة، وهو يحمل فنجان قهوة في يده.

صافحني وعانقني.

- عظّم الله أجركم.

عزّاني في موت من يعتقد أنّه عمّي، فقد أخبر فاروق الأهل بما حصل. شرّع الباب، ونادى على زوجته.

- يا امرأة... سليم ولد الحاجّ هنا.

أقبلت عليّ بأحضان، بيدين مبلّلتين، كما لو أنّها خرجت للتوّ من معركة غسل أواني أو ملابس.

- ربي يرحمه ويوسّع عليه.

لم أكن بحاجة لمن يُعزيني في سي أحمد، الذي بات أبي، بل كنت أحتاج من يعزيني أنا ويُخبرني من أكون. جلسنا في المطبخ وقدّمت لي فنجان قهوة، مع عشبة الجرتيل، التي تطلق مذاقًا قويًا، وتنبت في جبل كردادة، الذي يطلّ على المدينة، كجمركي يتربّص بأسرارهم، وحيث تكثر الأفاعي والعقارب السّامة.

- كيف حال الأولاد؟

- بخير.

لها ثلاثة أولاد، أكبرهم نبيل، يدرس في جامعة سطيف، والاثنان الآخران، حسام ويونس، في الثّانوية. أما زوجها الميلود فهو موظّف في الوكالة العقّارية. سألتني عن زيارتي إلى سلوفينيا، عما

جرى وظروف الجريمة التي وقعت، واختصرت لها الطّريق، بأن القضيّة تتعلّق بتصفية حسابات شخصية، مع مجهول، والشّرطة أوقفت الجاني وكفى.

لمحت حيرة في عيني خالتي سعدية، فليس من عادتي زيارتها، دون سبب، وأطالت في صمتها، كي تمنحني فرصة للإفصاح عن سبب مجيئي. أعرف أنها أقرب الأخوات للمرأة التي ربّتني، وأتذكّر حزنها ونوّاحها في جنازة أختها. لا بدّ أنها تعرف أشياء كثيرة، تنفعني وتخلّصني من شعوري بأنني خدعت.

- شكون هو بابا؟

وضعت يدها على فمها، كما لو أنني نطقت كلامًا بذيئًا. ثم قامت وأغلقت باب المطبخ، خشية أن يصل كلامنا أذني زوجها، الذي كان يجلس على خطوات منّا، وهو يحدّق في الشّارع وفي المارّة.

- وشْ بك، سليم؟

تلعثمها أشعرني أنها تخفي أمرًا ما، تملك ما يمكنه أن يجيبني عن الأسئلة، التي جئت لأجلها.

- باباك هو الحاجّ إبراهيم.

- كلا.

أفهمتها أنني مصرّ في سؤالي، وأنني أعرف، على الأقل، أن والدي ليس الحاجّ.

- قولي الحقيقة وسأحفظ السرّ.

نبّهتني أن الحاجّ فرض منطقًا عسكريًا على أختها، وعلى المقرّبين منها، لم يكن يجرؤ أحد على مخالفة رأي له ولا كلمة. «مّا

الله يرحمها هي اللي كانت تزورها»، أخبرتني. جدّتي زبيدة هي الشّخص الوحيد الذي كان يزور أمّي، في سنواتها الأولى، مع الحاجّ، ولم ترني سعدية أنا وفاروق، سوى بعدما كبرنا. نظرت إليّ بخجل وحكت لي أنّها لم تحملني، للمرّة الأوّلى، في ذراعيها سوى بعدما بلغت سنّ التّمدرس.

ذلك كلّ ما تعرفه سعدية. لم تسأل أكثر ولم تشكّ في نسبي إلى أختها. كان صوت الحاجّ كفيلا بإسكات الجميع، كان يُرعبهم، واليوم سكت، وانحنى أمام ضعفه، دون أن يفكّر فيما أعيشه. لم أودّ الإطالة أكثر معها، أعرف أنها امرأة مغلوبة على أمرها، فحتى زوجها لا يُناديها باسمها، ويكتفي بـ«يا امراة» أو «ياو». أتممت فنجان قهوتي، استأذنت بالانصراف، وأنا أشعر بصداع يزحف إلى رأسي.

- هل ستأتي للغداء؟
- لا أظنّ. شكرًا.

في الخارج، سألني الميلود:

- كيف حال والدك؟
- بخير.

والدي بخير، فهو يرقد مُطمئنًا في قبره.

# مثل نعل مهترئ

لم يبقَ لي سوى ضلع أخير في مثلث البحث؛ ففـاروق كـان صبيًا ولا يعرف، وسعدية لم تفدني، ولن أسمع شـيئًا مهمًـا مـن شقيقتيها. ما زال منصور، الذي قابلته المرّة الماضية، وسخر مني لأني كنت أتبوّل في حجره، وأنا رضيع. كان يشتري لي حلوى، كمـا قال، وسأشتري له ما يُريد لو يُخبرني كيف صرت ابنًا لمن ليس هـو أبـي.

الحارة التي يسكن فيها منصور، بالقرب من دار البلدية، تبـدو مكانًا مثيرًا للحيطة والاحتراز. درب ضيّق، وبيوت هشّة، في كـلّ واحد منها نافذة أو نافذتان. شعرت كما لو أن أعينًا تُراقبني وتتأهبّ للانقضاض علي. لمحت طفلاً يلعب بكرة صُنعت من كيس حليـب، وناديته. اقترب منّي، وهو يمسح مخاطه بكـمّ سـترته، وشـاهدت تقرّحات في وجهه، كما لو أنه مُصاب بالليشمانيا.

- وش بك؟
- قرصتني بعوضة.

أعطيته قطعة نقدية من فئة خمسة دنانير، التمعت لهـا عينـاه، وطلبت منه أن يطرق باب منصور، ويخبره أن أحدًا ما في انتظـاره. ذهب راكضًا، ثم عاد إليّ بصوت أخنّ.

- قالوا لك راه في قهوة البلدية.

وجدت منصور مستندًا إلى عمود إسمنتي، يقضم بذور دوّار الشّمس المملّحة، وهو يُطالع جريدة رياضية. «أهلاً ولد الحاجّ. وش راك؟». رحّب بي كما لو أنني صديق عزيز عليه.

- تأكل؟

- كلا. شكرًا.

دعوته لشرب فنجان قهوة، ولاحظت أن الفلجة، المندّسة بين قواطعه العلويين، قد تمدّدت. لم يمهلني وقتًا لأفاتحه في الموضوع الذي جئت من أجله، وراح يحدّثني عن فريق مولودية الجزائر، يقذف من لسانه أسماء لاعبين، أعرفهم ولا أطيق مشاهدتهم، وهو يؤكّد لي أن فريقه سينال البطولة هذا العام.

- إن شاء الله.

رددت عليه، فقط ليوقف شلال ثرثارته.

كان بنفس الشّارب، الذي رأيته به المرّة الماضية، مع لحية يبدو أنه لم يحلقها من أسبوع أو أقلّ بقليل.

- أنهيت العمل اليوم؟

ردّ عليّ متحسرًا.

- لقد طردوني من مصنع الحاج لزرق للآجر، من أيّام، مع عاملين آخرين.

سرت رعشة باردة في ظهري... «الحاجّ لزرق».. ومض هذا الاسم في رأسي. كان سي أحمد قد ذكر اسمه، وهو يحدّثني عن اختطافه وتعذيبه في حفرة رطبة ومُظلمة. كيف غاب عن ذهني كلّ هذا الوقت؟ هل هو نفس الشّخص الذي حقّق معه؟

سألت منصور ببلاهة وخبث، كي أجرّه في الكلام.

- مصنع من؟
- مصنع الحاج لزرق... الكولونيل.
- تعرف بيته؟
- من؟
- الحاجّ لزرق.

ظنّ منصور أنني جئت، بصفتي صحافي. لا يعلم أن الصّحافي الذي كنته قد صار لقيطًا. «لا يستقبل صحافيين»، حاول لجم رغبتي في الذّهاب إليه.

- أنا مُرسل إليه من طرف صديق له.

أشعلت له سيجارة وكذبت عليه كي أختصر الطّريق. تمخّط في منديل، ثم خاطبني، بنبرة فيها غصّة وتودّد.

- ربي يحفظك. قل له أن يُعيدني إلى العمل.

انطلقنا بدراجته النّارية، جنوبًا، على الطّريق المؤدي إلى بسكرة، الذي تحفّه بيوت منخفضة العلو، مع عابرين تطفح وجوههم بالضّجر. ومررنا بمُحاذاة المتحف، الذي بدا لي كاليتيم في ذلك الدّيكور المتجعّد، وقد طُليت جدرانه الخارجية، و لم تعد تظهر عليه أمارات حريق العام المنصرم. وبعد ثلث ساعة، وصلنا إلى مزرعة، ووجدنا دركيين واقفين في مدخلها.

- عندك موعد مع الحاجّ لزرق؟
- نعم.

قلتها وأنا أعرف أنني أكذب. لكن لا حيلة لي لتجاوزهما، وبلوغ بيته، أو بالأحرى قصره، الذي لم يكن يبعد عنّي، سوى بأمتار قليلة. اتّصل واحد من الدّركيين باللاسلكي. كرّر اسمي مرّتين

لمحدّثه. وانتظرت لحظات، قبل أن يردّ.

- لم يجدوا اسمك في قائمة المواعيد.

استعنت بكلّ ما أملك من مخزون الحيل والافتراء، لتجاوز الدّركيين، اللذين وقفا أمامي كصنمين يحرسان معبدا قديمًا. وأخرجت لهما الخطّة الاحتياطية، التي فكّرت فيها وأنا أمتطي مع منصور، دراجته النّارية. «أنا مبعوث إليه من طرف السّيد أحمد دبكي». أعاد الاتّصال، و لم يتأخّر الردّ هذه المرّة.

- أنت تدخل وصاحبك ينصرف.

طلبت من منصور أن يعود إلى بيته، على أن أخبر الحاج لزرق بما طلبه منّي، وأمرّ عليه، قبل مغادرتي للعاصمة. لكنه ألحّ على البقاء وانتظاري

أدخلني شرطي، بزيّ مدني، صالونًا فسيحًا، يُشبه ردهة فندق، تحرس بابه «خُمْسة» بأصابعها المتلاصقة، تتدلّى من سقفه ثريّة من كريستال، زادته فخامة. جلست وأنا أتأمّل لوحتين لإيتيان ديني، علقتا، على حائطين، مُتقابلين. أظنّ أنهما لوحتان أصليتان. فقد سمعت أن بعض الأثرياء اقتنوا تلك اللوحات، من مالكيها، بعد الاستقلال، بأثمان بخسة. كان المكان هادئًا، لا يسمع فيه طنين ذبابة، حين دخل رجل أصلع، ببشرة مسمرّة وقامة متوسطة، وهو يلفّ ذراعيه خلف ظهره. وقفت من الكرسي وصافحته.

- سلام عليكم.

- أهلا وْليدي.

لم أسمع كلمة «وْليدي»، من قبل سوى من سي أحمد. حتى الحاجّ إبراهيم لا يستخدمها، بل يُناديني باسمي. كان الحاج لزرق

يلبس قندورة بوسعادي بيضاء، وينتعل صندلاً بنيًّا. ما أن توسّط الصّالون، وجلست على جانبه، حتى دخل ذلك الشّرطي، بزيّه المدني، وهو يخفي مسدسًا خلف ظهره، حاملاً معه صينية قهوة وحلويات.

بدا لي الحاج لزرق مُهادنًا، ومُطمئنًا. لم يظهر عليه أي ملمح شرّ. يصعب أن نصدّق أن ذلك الشّخص عذّب أبي ونكّل به.

– خير ما جابك؟

دخل مباشرة في الصّميم، فلا وقت له ليُضيّعه، ومن المؤكد أنه ترك أشياء مهمة، وقبِل مقابلتي، رغم أنه لا موعد مسبّق لي معه.

– هل تعرف أحمد دبكي؟

– لم أره من زمن بعيد.

ملامح وجهه صارمة، تشي بشخص لا يحتمل الهزل. توجّب عليّ أن أخرج ما في قلبي، في أسرع وقت، وأفقس بيضة الكلام.

– لماذا عذّبته؟

ظننت أن هكذا سؤال قد يُمهد للاسترسال في الحديث، ويُحيلني إلى إجابات على الأسئلة العالقة في ذهني، لكن الحاجّ لزرق انتفض من مكانه. نطّ كما لو أن شوكة وخزت مؤخرته. «أنت مهبول؟» زأر. تغيّرت ملامح وجهه ونظر إليّ في غضب:

– تتهمني بالتّعذيب؟

حاولت أن أنفي عنه التّهمة. «ليس قصدي»، قلت. أردت فقط أن أخطو معه إلى الأمام، أن أدفعه إلى بركة المكاشفة، وأسمع منه من أنا. قاطعني وخرج عن طوره. «أحمد الحرايمي بعثك عندي؟»، تمتم، ثمّ تحجّج بانشغالات شخصية، وقادني ذلك الشّرطي

إلى الخارج، بوجه عابس، وأدركت أنني ضيّعت فرصتي في معرفة حقيقتي.

وجدت منصور في انتظاري.

- حدّثته عني؟

هذا ما كان يهمّه. لا يعلم أنني في ورطة أكبر مما هو فيه.

- هو مشغول الآن. سألتقيه، في الغد، وأحلّ مشكلتك.

بصقت في وجهه تلك الإجابة، من غير تفكير، ثم ألحّت عليّ. لا بدّ أن أكرّر المحاولة.

قضيت ذلك اليوم في التّسكع مع منصور، من مقهى إلى آخر، في بوسعادة، التي تُشبه رجلاً اجتثت منه خصيتاه. مستأنسة بالخمول والابتئاس. نساؤها يعبرن الشّارع مهرولات، كما لو أن أحدًا يُطاردهن، ورجالها يمشون برؤوس مطأطئة. لمحت موظّف البلدية الذي استخرج لي وثائقًا لسي أحمد، يجلس أمام محل خردوات، ساورني شكّ أنه ملكه، وأدرت له ظهري، فلم تكن لي رغبة في مبادلته ثرثراته. قبلت، مثل المرّة السّابقة، دعوة منصور إلى بيته، الذي لم يتغيّر شيء فيه، سوى أنّه فرش هيدورة، على الحصيرة، ومضغت بصحبته خبز الشّعير، وجرّبت نصف كأس من «اللاقمي»، الذي يُستخرج من جذوع النّخيل. «من هو أبي؟» كدت أسأله. ألحّ عليّ السّؤال، لكنني لجمت لساني. حدّثني عن خصوماته الصّبيانية مع زوجتيه، وعن نيّته في تطليقهما معًا إذا لم يجد عملاً. «رزقي مقطوع»، تحسّر. وعرفت أنّه من أعوان الدّفاع الذّاتي. يُخبئ كلاشينكوف أسفل سريره، لعمليات التّمشيط، التي يقوم بها مع رفاق له، في سفوح جبل كردادة، لُملاحقة نواطير الأرواح. تدخّل

ليلة حرق المتحف، وأنقذ ما يمكن إنقاذه من لوحات، وقال لي: «أرادوا حرق المتحف وذبح مديرته لأنها امرأة». لم أحتمل سماع كلّ قصصه عن الرّؤوس المقطوعة التي صادفها، وعن هجمات نواطير الأرواح، وتصدّي رفاقه لهم. انسحبت إلى السّرير، أغلقت جفناي من شدّة التّعب، وأنا أستعيد صورة الحاج لزرق في ذهني، وأفكرّ في كلمات أُلقيها عليه في اليوم الموالي.

في الغد، كرّرت نفس الكذبة على الدّركيين، ودخلت، بتؤدة، دون أن يقدّم لي ذلك الشّرطي، الذي يقضي وقته على عتبة الباب مثل كاميرا مُراقبة، لا قهوة ولا حلويات. ضغطت على رأسي لأجد جملة أفتتح بها كلامي. «آسف عما حصل أمس!» أو أقول له: «جئتك ألتمس الحقيقة، لوجه الله». لكنهما لم تُعجباني. وجدتهما جملتين تختزنان ذلاً وتملّقًا. بقيت أقلّب عيني في ثريّة الكريستال، حتى وصل الحاجّ لزرق وجلس على مسافة بعيدة قليلاً منّي، بوجه أقلّ عبوسًا، وسمع منّي ما أردت قوله.

- لم آت لاتهام أحدّ أو الإساءة لك.
- ..

تلعثمت. فهدوؤه، ونظراته المربكة، أفقدتني التّركيز. ارتعدت رجلاي وشعرت بانقباض في أمعائي، خفت أن أنطق كلمة في غير محلّها، فينتفض في وجهي، مرّة أخرى، ويطردني، ويرفض استقبالي مجددًا.

- أحمد دبكي مات!

هذا ما خطر لي أن أقوله. أن أخبره بنهاية الرّجل، كي يحيط بها علمًا، ثم يطردني، إذا تمنّع من حكي التّفاصيل، التي أبحث عنها.

سكت وهو يدلّك عنقه، ثم نطق أخيرًا.

- استغفر الله.
- ...
- مات؟

لاحظت تأثّراً في وجهه. كرّر الاستغفار، وتمتم بكلام لم أتبيّنه. «راك كبرت يا وْليدي»، قال لي. نزل صمت، لم أسمع فيه سوى دقّات ساعة معصمه، قطعه صوته المتحسّر: «يا دين الرّب».

- مات مقتولاً.

لم يكن ليفتح صفحة الكلام معي، ويسرد ما غاب عنّي لو لم يسمع عن موت سي أحمد. أخبرته بما حدث في سلوفينيا وعلّق، بحرقة: «يستاهل». ثم تدارك: «الله يرحمه ويوسّع عليه». قام من مكانه، أشعل سيجارة، ونفث دُخانها، على لوحة إيتيان ديني، وحسبت أنني عكّرت مزاجه، وقطعت رغبته في الكلام.

- دنيا بنت كلب.

أغلق باب الصّالون، وتخيّلت، لوهلة، أنّه ينوي تعذيبي، ويستدعي الشّرطي، الواقف خلف الجدار، ليفعل بي أفاعيله. لكنه عاد إلى الجلوس، اقترب منّي واستوى، خفض رأسه، واضعًا إبهامه على ذقنه، تنحنح، وطفق يحكي لي وقائع رفعت من صدامات قلبي كما ترتفع الهزّات على سلم ريختر. «أحمد باعنا مُقابل مال وسخ»، قال. وشى بعمّ الحاجّ لزرق، وهو مُجاهد قديم اسمه بوعلام، انتهى به الأمر إلى الموت تحت التّعذيب، في مخفر الشّرطة الاستعمارية. ونوى مجاهدون، أو من نعتهم الحاج لزرق بـ«الخاوة» تصفيته، لولا هروبه إلى الجزائر العاصمة، واختفاؤه فيها سنوات.

وحين عاد إلى بوسعادة، بعد الاستقلال، فرض عليه الحـــاج لـــرزق الزّواج من ابنة بوعلام الوحيدة: «الزّهرة»، التي ولدتني، ثم ماتـــت برصاصة في رأسها، من بندقية أبـــي، الذي أراد الـــتّخلّص منـــها، ليعيش حياة جديدة، ولفق لها قصّة انتحارها، بعد إشـــاعات عـــن تعرّضها لاغتصاب من مجاهدين، إبّان الثّورة. «تحـــوّل مـــن أحمـــد السبايطي إلى أحمد الحرايمي»، قال الحاج لزرق. راوغني و لم يعتـــرف بأنه عذّبه. «أردت فقط أن يقرّ بنسبـــي إليه»، وأردف: «اعتقـــدنا أنك ستموت رضيعًا. فقد وُلدت قبل الوقت، ببشرة مزرقّة، وحمّى لم تُفارقك في أيّامك الأولى». نفى سي أحمد تهمة قتل الزّهرة، ثم أُطلق سراحه، رأفت به، للاعتناء بالرّضيع، الذي كان أنا، لكنه تملّص من الحاجّ لزرق والشّرطة السّياسية آنذاك، باع ورشة صناعة الأحذيـــة، تركني عند زوجة عمّي فاطمة، التي مات جنينها الثّـــاني في بطنـــها، فاعتقدت أن الله كافأها، وفرّ إلى الخارج، ولم يعد سوى بعد عامين، وتطمينات من عمّي إبراهيم، الذي نسبني إليه، مُقابل أن لا يـــؤذوا شقيقه، ثم انتقل الحاجّ للعيش في العاصمة، بعدما عاد من مكّة، وأنا في الثّالثة من عمري، كي يمحو آثار القضيّة، ولا أسمع بها حين أكبر.

بلعت شهقاتي، وحاولت أن أتحكّم في شفاهي المرتعشـــة، ولا أنهار أمامه. اجتاحتني رغبة في النّواح، فكلّ ذلك حدث، بينما كنت أكبر، وأصدق كلّ ما يُروى لي وأحلم بامرأة تحبّني أكثـــر ممـــا قـــد أحبّها. لقد تخلّص منّي أبـــي كما كان يتخلّص من النّعال المهترئـــة. وأورثني جريمة بلا قصاص. عضضت على شفتي السّفلى بنواجـــدي، لكني وهنت، في الأخير، كطفل صغير، حين أخبرني الحاجّ لزرق أن أمّي الزّهرة لم تكن فقط ابنة عمّه، بل أخته من الرّضـــاعة... «يـــا

ربـــي... أعطيني الصّبر»... جثوت وصرخت، ممسكًا برأسي بـــين يدي، وشعرت أن الوقت قد توقّف. حاول مواساتي: «أنت رجـــل وسيد الرّجال». «أنا خراء». خجلت من مظهري أمام الحاجّ لزرق، الذي ترقّى في مناصب عليا بالجيش وخرجت، من بيتـــه، بعيـــنين داميتين، وعرفت أن اسمه الحقيقي مختار بلزرق. أصرّ عليّ أن أبيـــت، فشكرته وتمنّعت، ووعدته أن أزروه، في سكنه الآخـــر بالعاصـــمة، كلّما سنحت الفرصة.

انتبهت، وأنا أهرول، إلى صوت منصور وهو يركض خلفي. لم أعلم كم مرّ من الوقت، لكن السّماء بدأت تظلم، وغيوم تُحاول أن تقترب من بعضها البعض وتفشل. طمأنته بأنه سيعود لعمله، وأنـــا ابتلع دموعي أمام اندهاشه، وانحدرنا إلى ضفّة الوادي، حيث مقـــبرة «سيدي بلمبارك»، لقراءة الفاتحة، على روح أمي، الـــتي لا يعـــرف قبرها أحد غير الرّاحل سي أحمد وعمّي الحـــاجّ والحـــاجّ لـــزرق. صادفت على باب المقبرة متسوّلة، وضعت قطعة نقديـــة في يـــدها، وسمعتها تدعو: «الله يعيطك ما تتمنّى». لست أتمنّى سوى أنـــني لم أُولد و لم أعش. لمحت نسوة قلائل يطفن، في المكان، والقبور نوعان؛ منها ما يقوم عليه شاهد صغير، وأخرى ترتفع للأعلى كما لو أنهـــا بناية من طابقين. وتعذّر علي العثور على شاهد قبر «الزّهرة بلزرق». قرأت الفاتحة على جميع الأموات، ثم ركبـــت الحافلـــة عائـــدًا إلى العاصمة، وأنا أتساءل: ماذا يُثبت أنّ ما سمعته من الحاجّ لزرق هـــو الحقيقة؟

# النّهر الذي خرجت منه

أقف على رجليّ، أخطو إلى الأمام، كصبي يتعلّم المشي، أنحني بجسمي، ثم أستقيم وأفتح ذراعيّ، أدور حول نفسي، كما لو أنني أرقص، وأقفز في الهواء، مثل ضفدع هرِم، مسرورة بعودة الدّم إلى شراييني، ومغتمّة لأنني أزهقت روحًا كانت ستجري في أحشائي.

الطّبيب واجهني، مثل قسّ يخاف على الآخرين أكثر مما يخاف على نفسه، وحاول أن يقنعني بالتّراجع عن قراري. ذكّرني بتعاليم الدّين، وأنا أنظر إليه بوجه جامد. فهم أن لا جدوى من النّقاش وتمدّدت على السّرير. وفي لحظة من اللحظات، كدت أُغيّر رأيي، وأهرب من العيّادة. تخيّلت أنني سأنجب طفلاً يُشبه غوران؛ كنود مثل والده، قبل أن تسطع صورة أمّي، في بالي، ويُعاودني خوفي من ردّة فعلها. فتحت ساقيّ، كما لو أنني عاهرة تقدّم نفسها لواحد من زبائنها، وشعرت بحرج. خدّر نصفي السّفلي، وقام بعمله. سحب روحًا إلى الخارج، وخلّصني من الشّرك الذي وقعت فيه. بقيت أنزف ثلاثة أيّام، وأذرع المرحاض ذهابًا وإيابًا، كما لو أنني أُصبت بإسهال حادّ، وأشعر بتشنّج عضلي، يمنعني من المشي بشكل سويّ، وأبكي في سرّي.

لم يكن بمقدوري تحمّل تلك القسوة لو لم يدفع لي ديشان مقدّمًا، عن نصّ مسرحيتي. أعجبه ما كتبت، وأغرته فكرة اقتباس

«هيروشيما، حبّي». «سيكون أهمّ عرض هذا الرّبيع»، قال لي. دفع لي شطرًا من العقد، ذهب جلّه إلى ذلك الدّكتور المتديّن، الذي يحفظ ما ورد في الكتب السّماوية، يُعارض الإجهاض، من حيث المبدأ، ويقوم به مُقابل مال. اشتريت ملابس لي، وهامستر بنيّ، بفرو ناعم وعينين لامعتين، لآنتشي، من متجر حيوانات، في طرف زقاق مرصوف، يتّصل بشارع تلالي، حيث ما يزال يوجد محل العطور، الذي عمل فيه ساشا، ذات يوم. وسلّمت الباقي لأمّي. «أدفع بها الفواتير»، غمغمت.

الأسابيع تمرّ، وليوبليانا تتحوّل إلى ذكرى بعيدة في ذهني، وأنا أصرف أوقاتي في التّسكع في حارات، تفضي كلّها، إلى نهر ميلياتسكا، بناياتها لم تتخلّص من آثار الرّصاص، تظهر عليها ثقوب كما لو أنه وجه امرأة يطفح بالنّمش، ذاب الثّلج الذي فرش أرصفتها، وتجمّع في برك وحل، يقفز فوقها المارّون، مثل قطط فزعة، وأحيانًا أجلس، وحيدة، في مقهى، كأرملة مخذولة، أتحسّس فكّي السّفلي وموضع لكمة العربي الميت، التي ما زلت أشعر بها، أنقح وأضبط نصّ المسرحية، بإضافة أشياء وحذف أخرى، أو أزور مسرح التّل بغرض تدارس كيفية إخراجها مع ديشان.

- هل فكّرت في عنوان؟
- عناوين كثيرة تدور في رأسي.

هل أقترح عنوانًا من كلمة واحدة أم من كلمتين أم من جملة؟ أحتاج أن أنعزل، مع كأس راكيا، وسيجارة درينا، وأبتكر العنوان الأجدر، للمسرحية الأولى التي أكتبها، فالعنوان في حدّ ذاته مسرحية مستقلّة.

ديشان وضع ثقته فيّ، ولن أخيّبه، فقد نزع عن نفسه صفّة الأستاذ السّابق وعاملني كزميلة له. فتح لي بابًا ظننت أنه لن يفتح لي من جديد، ودفعني إلى جنّتي. أعاد خلقي. أخرجني من بطن الحوت، بعد أعوام من الظّلمات. «ما رأيك أن ندرج مقطعًا لفرقة زابرانيينو بوشني في العرض»، قال لي. توهّمت أنه ينوي الاستعانة بموسيقى لجيوفاني فوسكو. «لِم لا مقطعًا للايياخ!»، علقّت. فهم أنني غير مُكترثة بمقترحه، فلم يكرّره. وبينما هممت بالخروج، دخلت ألكسندرا، واندهشت من الحليّ الذي يطوّق معصميها وعنقها. مددت لها يدي بالبرودة التي تليق بها. وفاجأني أنّها عانقتني وابتسمت لي بحفاوة. أخبرني ديشان أنها ستتكفّل بالسّينوغرافيا، فتظاهرت بالابتسام. وحين انفردت بي، خارج مكتبه، حكت لي أن زوجها السويسري الأشقر قد هجرها، وعاد إلى بلده. ولم تجد سوى أمّها لتُساعدها في الاعتناء بطفلها.

– كان يُعنّفني. لا أعرف كيف تحمّلته ثلاثة أعوام.

كاد دمع أن ينهمر من عينيها، شفقة على طفلها، وليس حزنًا على الرّجل الذي تركها.

«على الأقلّ، ترك لك حليًا من ذهب خالص»، أردت أن أقول لها، وتجنّبت أن أخبرها أن قدمي زلّت، وبطني أوشك على الانتفاخ، ثم قذفت البذرة التي أولجها غوران داخلي، وقطعت الأمل في أن أصير أمًّا، خشية أن تصفني بالمجرمة، وهي محقّة، فقد فتحت عينيها في عائلة متديّنة، تُحرّم الإجهاض، لهذا راوغت رغبتي واختصرت لها الكلام:

– ستجدين رجلاً آخر، أفضل منه.

تحدّثنا في موضوع المسرحية، وعبّرت لي عن إعجابها بما كتبت، مع أنني لم أصدق ثناءها عليّ. ومدحت ديشان، الذي أعادها إلى سيرتها الأولى في المسرح.

في ذلك المساء، ظللت، لدقائق، أحملق في آنتشي وهي تلعب مع الهامستر، تمسّد على ظهره، وتحضنه، كما لو أنّه من رحمها، تقبّله على أنفه، وهي تبتسم، ثم تُعيده إلى قفصه، المفروش نشارة، مع دولاب في الوسط، يتلهّى به. منذ أن صادقت ذلك الهامستر، كثير الحركة، قلّ صخبها ونشيجها. انشغلت به وتركتني أنا وأمّي في أمان. لا نسمع لها نواحًا ولا ضحكات هسترية. انتبهت أنها تضع على إصبعها خاتم الذّهب، الذي تركته لأمّي، قبل أن أُغادر إلى ليوبليانا. «ألهذه الدّرجة تعطف عليها؟». وخطر في بالي أن أزجّ بقصّتها في نصّ المسرحية. فما حكاه لي توميسلاف صدمني. تجاوز خيالي. لم أكن أعلم أن ذلك الرّجل الذي سُحبت السّلطة من تحت قدميه، لم يتخلّص من جلد «درجاونا بازبيدنوتسي»، وظلّ يُراقب الحرب، كشيخ زاهد في ديره، يدوّن الوقائع، ويحصي القتلة والوشاة والمغدور بهم. خرم كوّة يطلّ منها على الأحداث، هو وزوجته ميريانا، والتقطا كلّ ما غفلنا عنه، عرفا اسم القنّاص الذي أسقط ابنهما ورفعا دعوى قضائية ضدّه.

- لقد اغتصبوا شقيقتك. تناوب عليها ثمانية رجال، في ليلة واحدة.

داهمني غثيان وأنا أسمع كلامه. اضطرمت نار بداخلي، ورغبت حينها أن أفقأ أعين مُغتصبيها واحدًا واحدًا. أن أبتر خصياهم وأقليها بالزّيت أمامهم. أن أُدخل قضيب حديد في دُبر كلّ واحد منهم.

ليتهم اغتصبوني أنا وتركوا أختي الصّغرى تعيش شبابها. أذكر وجه آنتشي حين عادت، بعد يوم من الغياب. خرجت تبحث عن الماء وتأخرّت. اعتقدنا أنها اختبأت، عند قريب أو صديق، حذر الموت والقذائف والقنّاصة. ثم عادت في اليوم الموالي بشعر أشعث. اشتكت من آلام في الظّهر، وفشلت أمّي في مداواتها، ثم انّسلت إلى عالمها السّفلي، بيسر. مرضت، وتملّكها هذيان وانفصام، وراحت أمّي تصل الليل بالنّهار في الاهتمام بها، وأنا أُجالسها، بين الفينة والأخرى، أسمع هذيانها وأبكي، بحرقة. اعتقدت أنها اقتربت من الموت. «يا رب، خذ روحي، ودعها هي بسلام»، دعوت. لم يخطر في بالي أن تكون قد أُغتصبت. «أبناء زنا»، صرخت أمام توميسلاف. نزلت كلماته على رأسي مثل صعقة، أعادتني إلى سنوات مضت، ظننت أنني خرجت منها مُعافة. شعر توميسلاف بحرج أمامي. كتم أنفاسه. فهم أن أختي أهمّ لي من أي شخص آخر. فكلّ ليلة، أنتظر شهابًا يعبر، وأحمّله أمنيتي بأن تُشفى. لقد طلب منّي أن أرقن نصًا صغيرًا، في تذكّر ابنه إيليا، وفعلت، وقد نشرته الجريدة التي أرسله إليها، ثم صارحني بالحقيقة، وأخذت أطرافي ترتجف. لطالما ظننت أنه يحتضر في شقّته، ويوم عُدت من ليوبليانا توقّعت أن يكون قد استقرّ تحت التّراب، ولم أتخيّل أنه يعلم الأسرار كلّها.

– والدك كان شهمًا. راوغ التشتنيك، وأوهمهم بالتّعامل معهم ليضمن لكم خروجًا آمنًا. لكن الموت سبقه.

لن أغفر لأبي. كذب على أبنائه وظلم زوجته، لكنه نال ما يستحقّه. مات، مثل فأر تجارب، قبل أن يفرّ. لا شكّ أنه التحق بالفيلق الأجنبي للجيش الفرنسي، هربًا من الخدمة العسكرية في

يوغسلافيا، وليس لشيء آخر، وحتمًا طُرد منه، فهو عسكري فاشل، لم يفلح في بسط سلطته سوى على جسد أمي، ثم فكّر في الهرب من الحرب، بدل أن يحمل السّلاح، مثل أقرانه، ويُواجه ضربات التشتنيك بشرف. لن أشغل بالي، مرّة أخرى، بتبرئته. فما سمعته، العام المنصرم، من موظف الاستقبال، في الفندق الذي عملت فيه، لم يكن شائعة. وها هو توميسلاف، دركي النّوايا، وحارس الخافيّات، يؤكد لي ذلك. أنا ابنة رجل جبان. خاننا ومات مثلما تموت الجرذان. سألتقيه، في الجحيم، وأصفّي حسابي معه. كان يجب أن تُرمى جثّته للكلاب، كما رُميت جثّة بولينيس، في مسرحية أنتيغون، للغربان.

لا أتصوّر، للحظة، أنّ أمّي جهلت بما حصل. إنّها تُحصي عدد الزّخات التي تنزل، ولا تغفل عينها عما يدبّ تحت الأرض. ركنت إلى الصّمت، وعاملتني كقاصر لا أفهم، أو لا يحقّ لي أن أعلم أكثر مما يجب. لكن جاء يوم فاضت فيه الخبايا، ووصل سمعي كلّ شيء، وسأتصرّف معها بمنطق قنفذ، يشمّ كلّ ما حوله ولا يبطش. نحن مُتساويتان في الهزائم يا أمّي! نعلم ولا نتكلّم. نحن امرأتان خارجتان من فمّ الشؤم.

عبرت زقاق أباجيلوك، الذي تتراص فيه محلاّت حرفيين، يتخاطفون العابرين، ويرون في كلّ مارّ زبونًا محتملاً، وتصوّرت لو أن سليم جاء هنا، لأريته سراييفو التي أنبتت تجاعيد في وجهي، ثم لمحت شابّة تستعجل الخطو وهي تجرّ عربة طفلها، وشفتاها تنفثان كلمات نابية. أشفقت على حالها، وألحّت عليّ فكرة تثبيت لولب في رحمي، لمنع الحمل. وفي نهاية الزّقاق، دخلت مقهى، افتتح حديثًا، واجهته من زجاج، وطاولاته لم تخدش، ووجدت ناتاشا في انتظاري.

عانقتني كما لو أنّها لم تراني من زمن بعيد، ثم قبّلتني ثلاث قبلات على وجنتاي، وهي تُطيل في ابتساماتها، ولم أجدها مهمومة ومنكسرة، كما ظننت، بعد زيارتها لشقيقها في السّجن.

- لورينا تبلغك السّلام، ويانيس أيضًا وأمير وميران.

قدّمت لي حقيبة، أرسلتها لي لورينا، وضعت فيها بعض الأغراض الصّغيرة، التي أهملتها في غرفة ذلك الفندق البائس، مع قارورة من نبيذ سفيتشك، كهدية من ابنة عمّي، وانتبهت أن أظافري طالت، ولم أشذبها، وقد خرجت من البيت، من دون مكياج. لقد صرت أهمل الاهتمام بشكلي، وأغفل عن حمل مرآة صغيرة، في حقيبة يدي، كما ألفت ذلك من قبل.

أعلمتني أن لورينا انتقلت للعيش في بيت، أرشدها إليه صاحب الفندق الثّخين، تقتسمه مع يانيس، كما أنها تعمل معه في المقهى. «ترغب في إنجاب طفل معه». برقت عينا ناتاشا وهي تحدّثني عن مشروع لورينا. أمّا أمير فقد عاد للمصنع الذي استقال منه، وتناسى ما وقع له، مع مسؤوله السّابق، الذي وبّخه أمام عمّال آخرين.

زارت ناتاشا شقيقها، في السّجن، ووجدته أشبه بعنزة في موسم جفاف. «هزلُ وشحب وجهه، وبرزت عيناه، كما لو أنهما ستخرجان من محجرهما». بكت عندما شاهدته على تلك الحال، ثم طمأنها بأنه وجد أصدقاء جددًا خلف القضبان. «نلعب الشّطرنج، كلّ يوم، ونُشاهد التّلفزيون أحيانًا». «سيجد عائلة له هناك»، كادت تخرج من لساني. هو نسخة من أبي، كذّاب وجبان. أمها لم تعلم بزيارتها إليه، فقد تبرّأت منه، ولا يهمّها مصيره.

- هل تُسامحينه عما جرى؟ هو يطلب منك الصّفح.

أنا أمقته الآن، ولن يُفيده أن أصفح عنه أم لا. راوغت سؤالها، ورددت عليها:

- المهمّ أن يستعيد صحّته وعافيته.

ثم طفقت تقصفني بأخبار، لم أتوقّعها، عن شقيقي ساشا.

- أنت سعيدة لأنه ينوي العودة إلى سرايبفو؟

يعود إلى هنا؟ لم يتصلّ بنا، كما وعدني. كيف نزلت على رأسه فكرة العودة؟ خفضت رأسي، بلا مبالاة، كما لو أنّها تُنبؤني بخبر قديم، وأرتشفت من فنجان القهوة، كي لا أشعرها بحرجي وعدم معرفتي بما يجري. وأردفت:

- رفيقته جميلة. هل تعرّفت عليها من قبل؟

ختمت سؤالها بابتسامة ماكرة على ركن شفتيها. جاءت تحمل معها سلّة ممتلئة من الأخبار الطّازجة، التي لا دراية لي بها.

- حدّثني عنها، لكنني لم ألتقي بها.

- اسمها لوتْسيا. نادلة في مطعم تركي، بالقرب من محطة الحافلات. استضافتنا للأكلّ، وبدت لي لبقة.

يا إلهي! شقيقي ارتبط بتلك النّحيفة المتعجرفة. ماذا أعجبه فيها؟ وجهها جافّ، لم يُخالطه دمّ، ونهداها ضامران.

- يُخطّطان لاستثمار مال في شركة لتأجير السّيارات.

الشّخص الوحيد الذي سيفرح له هو أمي. ستجد حجّة لإحياء أملها في وصول حفيد لها، يحرّرها من تواطئها مع الصّمت، ويحقّ لها، بعد ذلك، أن تكرّر، ألف مرّة، تعويذتها: «مرارة الأشياء تزيد في حلاوتها».

قابلت ناتاشا لتُحدّثني عن وضع شقيقها، الذي أنقــذني مــن موت، وبعثني، في غفلة منه، إلى سرايفو لأمســك بشــغفي، مــرّة أخرى، في المسرح، وليس لسماع مصائر الآخرين. لكــن لســانها طويل، تتحدّث فيما لا يعنيها، وتتلصّص على حكايــات البعيــدين عنها. لم يخطئ ذلك الضّابط حين قال لي: «يبدو أنّك محظوظــة». نجوت من نهاية مأساوية في ليوبليانا، وقادني الحــظّ إلى الخشــبة في سراييفو، التي ظننت أني لن أعود إليها. ولن أضطر للبحث عن ذلك المشعوذ، ولا عن الدّيك الذي دفنه، وذكرته لي أمّي. لم يكن لي صبر لسماع مزيد من أخبارها العاجلة، استأذنت منها، وأخبرتهــا أنــي سأوصل لها دعوة لحضور العرض الشّرفي للمسرحية، ثم خرجت من المقهى، أخطو بين أزقة متعرّجة، يحوم الخوف فوقهــا، وصــولاً إلى مسرح التلّ، وبالي مشغول بالدّقات الثّلاث، التي تسبق رفع السّتار، وعرض المسرحية التي أصحو، كلّ يوم، وأنا أتخيّل تعداد الجمهــور، الذي سيحضرها.

عرّفني ديشان على المُمثلين، واستحسنت الشّاب، الذي سيلعب دور سليم. هو أبيض، لا يُشبهه كثيرًا، لكنه ينطق بسلاسة الكلمات العربية والفرنسية، التي وظّفتها في النصّ. علمت، فيما بعد، أنّ أمّــه لبنانية. واستشرته في العناوين، التي فكّرت فيها، ثم انسحبنا إلى زاوية خافتة الضّوء، ليكلّمني عن الشّرط المالي المتبقي، من العقد، والــذي سيدفعه لي، بعد العرض، وعن نيّتــه في اقتــراح المســرحية علــى مهرجانات خارجية. ثم تقدّم باتجاهنا رجل، يمشي كدبّ أحــدب، يحرّك فكّيه كما لو أنه يعلك أو يمضغ شيئًا طريًا، لم أتبيّن وجهــه، حتى وصل إلينا. صافحه ديشان بجفاوة.

- أقدّم لك بوريس. لا بدّ أنك تعرفين اسمه. جـــاء بغـــرض كتابة مقال مطوّل عن المسرحية.

كيف لا أعرف ذلك المبتزّ الأرعن. وجهه ازداد تكوّرًا، وبطنه تدلّى. مددت له يدي كما لو أنني أقابله، لأوّل مرّة. لم تعــد بيننـــا كلمة «تافاريش»، ولا أي صفة أخرى، لقد تحايل عليّ، ولن أغفـــر له ما فعل. تحجّجت بالتّعب والتمست أن نؤجل المقابلة الصّـــحافية، إلى وقت آخر، ووعدت ديشان أن أنقل النصّ، الذي عجزت علـــى كتابته بالإنجليزية، إلى الصّربو - كرواتية، وأعرضه عليه، في المستقبل القريب.

- غدًا، سوف ننجز ملصقات المسرحية.

- أمرّ عليك بعد الظّهر، وأُعاينها.

رمقت بوريس باحتقار، وتركتهما يثرثران عن الصّواريخ، التي تهطل على بلغراد، منذ أيّام. وخرجت أتمشّى، بمحاذاة ميلياتســـكا، الذي بدا لي كأمّ تزحف على جسم صغيرها الهزيل، تدلّكه في نعومة وحبّ. أظنني رضعت من مائه وارتويت وليس من نهد أمّي. لم يتعبّ هذا النّهر من خياناتنا له، ولم ينضب. يغضب منّا أحيانًا، يفور مثلما تفور القهوة، وسرعان ما يعود إلى خموله ويحفـــل بالعـــابرين علـــى جسوره، ويمدّهم بمائه ودفئه. لا شكَّ أن له عينًا تحرسنا. هذا النّهـــر هو أنا. لا سراييفو من دون ميلياتسكا ولا إيفانا من دون ســـراييفو. هذا ما برق في بالي وأنا أدخل مخبز سمير. شعّت عيناه لرؤيتي، طلبت قطعة بوراك بالجبن، ورفض أن يقبض ثمنها. ثمّ عُدت إلى البيت على وقع أجراس كنيسة قريبة. «أحد ما مات»، غمغت. وجدت آنتشي تلعب مع الهامستر، في الصّالون، وصورة أبـــي معلّقة فوق رأســـها.

قدّمت لها علبة شوكولاتة أوروكريم، وحاولت أن تُجبره على تذوّقها، وهو يعترض، وأنا أكرع قليلاً من سفيتشك، الذي حملته لي ناتاشا، حين رنّ الهاتف. «زدرافو». لم أسمع شيئًا. «ألو». وصلتني فقط زفرات شخص، على الخطّ الآخر، ثمّ انقطعت المكالمة. هل هو رجل أم امرأة؟ هذه المرّة الثّانية، التي يحصل فيها الشّيء عينه. تخيّلت أن في الأمر خدعة. أحد ما يتعقّبني؟ يعرف صوتي ويريد التّأكد من وجودي في البيت. هل هناك من يقتفي أثري للانتقام منّي لمقتل العربي في ليوبليانا؟ فصلت كابل الهاتف، وفررت إلى غرفتي، ثم انتبهت، وأنا أغيّر ملابسي، أن عادتي الشّهرية قد عادت، إلى طبيعتها، وفرحت، قبل أن يبلغني صوت أمّي وهي تتقيّأ في الحمام. هالني أن أراها تقرفص، بوجه مصفرّ، وعينين يكادان يخرجان من محجريهما، كما لو أن مرضًا خبيثًا ألمّ بها.

- هل آخذك إلى المستشفى؟
- كلا. لقد تعوّدت على ذلك.

تعوّدت على أن تتقيّأ كما لو أن قلبها سيخرج من فمها؟ ساعدتها في الوقوف كي تغسل وجهها، وكادت تنزلق من يدي، عندما سمعت صوت المفتاح في قفل الباب الخارجي. دخل ساشا، ووقف أمامنا، بينما رفيقته تتفرّج على المشهد، من الخلف. ارتمى في حضنها: «ماما... ماما». عاد الدّم إلى وجهها وهي تصيح مثل طفلة عثرت على لُعبتها: «موي سين... ابني». ثم التحقت بهما آنتشي، وتشابكت أذرعهم السّتة كما لو أنّهم ينهون رقصة كولو، وتجاهلوني، كما لو أنني شبح بينهم، وأنا أتبادل ابتسامة بلهاء مع لوتْسيا.

## صورة قديمة

# كي أعرف أصل الحكاية

أبـي مات، كما يموت جربوع، في الـبراري، ولم يتـرك لي سوى نزر من ذكريات يُعيدني إليه، وأمّي استحالت سمادًا، يخصّب التّراب، دون أن أرى يومًا وجهها، أضفت إلى النصّ، الذي شرعت في كتابته، منذ عودتي، وأقبلت على حياة جديدة، في هذه المدينـة، التي تطبخ حساءها من دم المذبوحين، وتتعطّر برائحة الموتى. وإن لم أُكرّر مُحاولة الانتحار، بعد كلّ ما جرى، فليس في الأمر شـجاعة، بل عجز على تحمّل آلام أخرى.

حوّلت نادا ثمن بيع الشّقة، في ليوبليانا، على حسابـي البنكي، وعلمت أن اسمها الحقيقي: برناردا. صرنا نثرثر، بين الفينة والأخرى، في الهاتف، وشعرت كما لو أنّ روح أبـي تـدفعني إلى مشـروع الجريدة، مع فتحي، لأغفر له ما فعل. سأكبر وأنسى، وقد تُصـيبني لعنة الزهايمر كما أصابت الحاجّ، وأتجاوز خيباتي، لكـن أبـدًا لـن تُسامحه نادا عن أذيّته لها.

– من سنين، تلحّفت السّواد. لجمت صوتي في صدري. لكـن أحمد لم ينتبه إليّ. خانني، وأغمضت عيني، ثم هدّدني بالطّلاق.

قالتها لي، وهي تزفر، بحدّة، في الهاتف. «لا شيء يُنسيني فيه»، أضافت.

رغم أن أبـــي غبن حقّها، فقد توسّطت له، عند قريب لهـــا، برتبة ضابط في الشّرطة، ليرفعوا الرّقابة القضائية عنه، وظنّ أنها تخونه معه.

- لم تكن لتحصل على فيزا، لو لم أبيّض ملفه، العام الفائت.

أرهقها بشكوكه، وغاب عنه أنها احتملته أكثر مما تطيق. كان أشبه بغراب يأكل من الجيفة، ويشيح بوجهه عن امرأتـــه الأسمـــى. ضاجع نساءً عابرات، وعزم على الارتباط بلاجئة بوسنية اسمها نهادا. وحين عاد إلى نادا، قبل خمس سنوات، برجل تعرج، انّطلت عليهـــا الحيلة وصدّقت أنّه أّصيب في حادث سير، في مدينة موستار. لم تعلم أن زوجها شارك في الحرب في سراييفو، سوى لمّا شرعت الشّـــرطة تحقّق في جريمة كان شاهدًا عليها، وخرج بريئًا منها.

- بعنا مصنع الأحذية، الذي تراجعـــت مداخيلـــه وأثقلتـــه الضّرائب، كي ندفع أتعاب ثلاثة محامين تكفلّوا بالـــدّفاع عنه. ثم استلفت قرضًا وفتح المقهى، باسمي، وتحسّن الوضع واشترينا الشّقة، التي زرتنا فيها، وفكّر في شراء مزرعة، من ورثة أرادوا التّخلصّ منها بمقابل زهيد، بقرض آخـــر، ثم إعادة بيعها، لكن الصّفقة لم تتم، والآن أدفع أقساط البنك من أرباح المقهى البسيطة.

لورينا بصقت على وجهي نصف الحقيقة، ولم أمسك بما بقـــي منها، سوى بعد مُكالماتي مع نادا. تذكّرت ما كتبته لي إيفانا: «ابحث عن الحقيقة كاملة، ولا تكتفي بشهادة شخص واحد». شكرتها أنها دفعت ما عليّ من دين للورينا، وندمت لأنني أسأت الظـــنّ بهـــا. ثمّ سألتها عن خالد وسفيان. «يتمنيان أن تزورهما مرّة أخرى». نطقتها

بصوت ليّن، وتخيّلت أن رأسها سيخرج من السّماعة، وتذكّرني في وجهها منبسط الأسارير، الذي عرفتها به. «لِم لا». أعلمتني أنّ أبي قضى سنوات طويلة في علاج مكثّف، وحقن وأدوية، كي يستعيد خصوبته. «وكي يقدرا على الإنجاب»، قالتها لي بصوت منخفض، كما لو أنها شعرت بخجل. تحسّست، في تلك اللحظة، عصفوري، بين فخذاي، وتخيّلت أن أُصاب بالأمر نفسه، ثم تذكّرت أنّ السّبب هو ما تعرّض له من تعذيب، وغمغمت: «الله يسامحك ياالحاج لزرق». هل تعلم نادا ما حصل لأرملها؟ سألتها عما سمعته من ساشا بأنه امتلك بيتاً في سراييفو، فنفت ذلك، من دون إقناع. ثم جاء الحديث عن ألينكا. «التحقت بها رفيقتها في البيت». هل يُعقل! تلك الجميلة تفضّل النّساء ولا تميل إلى الرّجال. ولا شكّ أنها تقتسم مع رفيقتها السّرير، الذي نمت فيه هناك. أستحق أن أصفع على وجهي. فأنا لا أملّ من الوقوع في المصائد. غازلت مختلّة عقليًا، ثم أُعجبت بسحاقيّة! لم يخطئ الله أن جرّدني من حبّ النّساء لي. لا واحدة تطيق صبرًا مع رجل سريع التّقلّب مثلي.

- رششت قليلاً من عطر، وجدته بين أغراضك.

لن أبصم قبلة، على شحمة أذن مليكة، ولن أشمّه، مرّة أخرى. لن يعود إليها، فهي أيضًا لم تعد لي الخاتم، الذي أدخلته في بنصرها، في لقائي الأخير بها. لا بدّ أن خاتمًا آخر ناب عنه.

- يمكنك رشّه كاملاً.

وكدت أضيف «أو تسكبينه في المرحاض». أمليت عليها عنواني، كي تُرسل لي صورًا لسفيان وخالد، وخرجت إلى شارع العربي بن مهيدي. تذكّرت حماقاتي مع مليكة، عندما كنّا نرفع

أعيننا إلى تمثال الأمير عبد القادر، ونفتّش عن خصيتي الجواد، الذي يركبه، ونحن نضحك. «أنت تحبين فقط الخصيتين»، أُمازحها. «وهل يوجد ما هو أثمن منهما؟»، تردّ كما لو أنّها تغلّبت عليّ. «عمّي شارك في دفن رفات الأمير»، أقول لها مزهوًّا. «إذًا، فهو رجل وأفحل وبوخْصاوي»، تقهقه. ثمّ وصلت إلى ساحة البريد المركزي، واحتككت بأجساد المارّة، كما لو أنني مُهاجم يقتحم دفاع خصمه، وفي أودان تفرّجت على واجهات محلات ملابس، تنتصب فيها مانيكانات، بلا رؤوس، قبل أن أبلغ شارع ديدوش مراد، وأتخيّل أن تلك العمارات الكولونيالية البيضاء، ذات مصاريع النّوافذ الزّرقاء، التي لم تبخل علينا بظلّها، ستنهار على رؤوس العابرين، تدفنهم عقابًا لهم على سوء سلوكهم معها، حتى وصلت مطعمًا صغيرًا، على زاوية، تُقابل كاتدرائية ساكري كور، ووجدت فتحي في انتظاري.

- اتّفقت مع تاجر أن يوفرّ لنا أجهزة كمبيوتر وأغراض مكتبية، بسعر مقبول.

سلّمته، قبل أيّام، المبلغ الذي طلبه منّي، دون أن يسألني عن مصدره، وتركته يتصرّف على هواه، فهو أجدر منّي في التّعامل مع الإدارات البيروقراطية. اتّفقنا على أن يكون مدير النّشر وأنا رئيس تحرير. أقنع زميلين قديمين في جريدة «الحرّ»، بالانضمام إلينا. كدت أنسى اسميهما لو لم يذكّرني بهما: «كمال وإيدير». وتكفّل بنفسه بانتقاء فنّيين ومُتعاونين ومُوظّفين للاستقبال وقسم الإعلانات، أطلعني على أسمائهم، وحرص على أن آتي لملاقاتهم، في اليوم الموالي، في مقر الجريدة.

- وافقوا على الاسم المقترح أيضًا.

اقترحت عليه أن نسمّي الجريدة «رادار»، تنطلق كأسبوعية، ثم نطوّرها إلى يومية، في حال توفّرت لنا المداخيل الكافية.

تفرّس فتحي في وجهي. كرع نصف كأس نبيذ، دفعة واحدة، وسألني:

- ألست فرحًا بالمشروع؟

- بلى.

لكن حلقي جفّ، بتّ أتنفس بصعوبة، وأشعر أن رئتاي تقلص حجمهما. لم أعد أعرف كيف ابتسم، أو كيف اقتنص نصيبي من السّرور. ظنّ فتحي أن الأمر يتعلّق بما وصلت إليه حالة الحاجّ من حرج. «هو بخير»، طمأنته. ليس يعلم أنني لست ابنه، وحسمت الأمر، أن لا أخبر أحدًا. لن يفرق الأمر سوى على ورق الجريدة؛ سأستعيد اسمي الحقيقي، وأودّع عمار بن براهيم، فأنا لست ابنًا له، ولا يروقني أن أظلّ مختبئًا خلف هويته.

زرت الحاجّ في اليوم الفارط، وانتبهت، قبل أن أدخل، أن أبناء الجيران قد كبروا، وورثوا منّا عاداتنا في لعب الكرة، على الطريق. وجدته، كعادته، شاردًا، يحمل سبحته، ويستغفر ويحمدل. نسي اسمي وفاروق لم يقصّر؛ يعتني به، في نومه ويقظته. لكنه ما يزال متبرّمًا، لا يُبادلني سوى الحدّ الأدنى من الكلمات، لأنني تركت سي أحمد يُدفن في غربته، وليس في مقبرة الأهل. «هي وصيته»، أخبرته. «لا أصدق». «اسأل أرملته إن أردت». قرّرت أن لا أكلّمه، من جديد، حتى يهدأ، وأن لا أفتح معه سرّ مشاركة سي أحمد في حرب البلقان، كي لا يكرّر عتابه لي، فالأفضل له أن يهتمّ بتجارته، بدل

محاسبة عمّه عما فعل. قبّلت رأس الحاجّ وخرجت. هو أيضًا لُسع، من جحور كثيرة. لولا الحاجّ لزرق، الذي ظلّ يحرسني، من ربوة بعيدة، ما كنت لأحصل على إعفاء من الخدمة الوطنية. الحاجّ لزرق وثق في الحاجّ عمّي، وأسدى له خدمات كثيرة، لأنه لم يفرط فيّ، وضمّني إلى دفتره العائلي. لكن لماذا اتّهم أبي بقتل أمّي؟ لا دليل له. هل أمّي انتحرت فعلاً؟ نادا أخبرتني بما أسرّه لها سي أحمد، بأن زوجته الأولى انتحرت، والحاج لزرق يصرّ على أنّه قتلها. مهما يكن فقد انتقم منه، ومعرفة الحقيقة من عدمها، لن يغيّر شيئًا.

تركت فتحي وأنا أشعر بمغص في معدتي. خلطت في الشّرب بين بيرة ونبيذ، واجتاحتني رغبة في التّقيؤ. عُدت إلى حيّ الرّمان، و لم أمنع عيني من التّحديق، في تلك الشّابة طويلة القدّ، حنطيّة البشرة، ذات غمازات، وخصلات فاحمة، تتسرّب من خمارها الملوّن، التي سكنت، مع أهلها، في الشّقة، التي هوت منها نبيلة. لا أعرف اسمها لكنني أمعن دومًا فيها كلّما مرّت، بخطاها المُتثاقلة، تمشي باعتداد، كعارضة أزياء، بمؤخرة رجراجة. ضايقتها بنظراتي، فشتمتني: «يعيطك العمى». رددت عليها بابتسامة بلهاء وأنا أتمتم «العمى في عينيك أنت»، ثم دلفت إلى مقهى الأحباب لشرب عصير ليمون، وصفعتني، على بابه، رائحة نعناع مغلّى، وما إن لمحني جاري شريف حتى قام من مقعده، مرحبًا بي.

– مرحبا سي سليم!

«أخطيني»، قلت في نفسي. لم أعر اهتمامًا لتملّقه. مذ صادفته يخرج من شقّة نصيرة، كلصّ مبتدئ، في ذلك الصّباح الباكر، وأنا عائد من بوسعادة، برأس يطنّ، بات كالجرو، يلعق حذائي ويتمسّح

بـــي، كي لا أذيع الفضيحة، ولا تبلغ زوجته وأبنــاءه. لا بـــدّ أن نصيرة أيضًا علمت أنني قابلته يتسلّل من بيتها، وهو مصـــدوم مـــن اكتشافي أمره، ويتوسّلني: «أسترني الله يسترك»، وإلا مـــا كانـــت لتُضاعف من جرعة لباقتها معي، وتصرّ على ملاطفتي كلّما تقابلنا في سلالم العمارة.

- أنوي شراء كلب يُزيل عنّي عزلتي، ويروّح به ابـــني عـــن نفسه.
- عليك بإخصائه، كي لا يكثر من النّباح.

رددت عليها، في المرّة الماضية، بوجه ضاحك، وأنا متحسّر أنني لم أذق من الفاكهة التي قضمها شريف، وخطر في بالي أن أشـــتري طائر حسون، بدل تلفاز، يقتسم معي ضجري، ويُسمعني غناءه كلّما شمل شقّتي الصّمت.

ابتلعت كأس العصير، وأنا أخفي رسغيّ، كما دأبـــت علـــى ذلك، كي لا يلحظ أحد آثار محاولتي للانتحار، ولفت نظري غياب النّادل الثّرثار، قليل الذّوق، مُناصر اتّحاد الحـــراش. ســـألت عنـــه صاحب المقهى، الذي كان ينشّ الذّباب ويُسوّك أسنانه.

- تقصد إسماعيل؟ حرق لإسبانيا.

«سيتعلّم آداب المقاهي هناك ويعود»، قلت في سرّي. أنا أيضًا تعلّمت قليلاً من آداب المقاهي، في ليوبليانا، ويمكن أن أُفيد بخـــبرتي المتواضعة النّادل الجديد، ذو الصّوت الأنثوي الرّخيم، مثل صـــوت مُذيعة الأحوال الجويّة، الذي كان يقسم شعره إلى جزأين، يطـــوف حول الطّاولات، وهو يدندن أغنية «يالمنفي»: «قولـــوا لأمّـــي مـــا تبكيش... ولدك ربـــي ما يخليش...».

- الله يكون في عونه.

رددت على صاحب المقهى، الذي علّق تقويمًا جديدًا للعام الحالي، وشريف يقف خلفي، ويلحّ عليّ:

- سيارتي في خدمتك. أوصلك حيثما تُريد.

يقضي يومه في ابتزاز الركّاب، وفي ثقب جيوبهم، ويتعامل معي بتزلّف.

- شكرًا.

دخلت شقّتي، وسقيت نبتة الجيرانيوم، التي اشتريتها من سوق كلوزال، مع باقة أزهار بلاستيكية، للزّينة، شغّلت الرّاديو، وانهرت بحذائي، على السّرير، متأمّلاً السّقف. سحبت سمّاعة الهاتف، بكسل، وشكّلت رقم إيفانا في سراييفو. رنّ مرّتين، كأنّهما ردح، فصل بينهما سكون عميق، ثم ارتفع صوتها الوديع، في الجهة الأخرى: «زدرافو». تصلّب فكّي. أجبتها: «هالو»، ولكن في باطني. قالت «ألو»، وتبكّمت. قفلت الخطّ، بيد مرتجفة، وأنا ألهث. للمرّة الثّانية، عجزت على الحديث معها. لم تكن لي جسارة لأخبرها أنني أتمنّى رؤيتها. كيف أفسّر مشاعري تجاهها؟ نحن من عالمين مُتباعدين، لكننا قريبين، وكلّ واحد منّا ينتظر من الآخر أن يمدّ له يدًا ويسحبه إليه. هل تُفكّر فيّ؟ أعرف أنه حبّ مستحيل، لكن ماذا عليّ أن أفعل لأتخلّص من ذكراها؟ أن أذهب إلى راقٍ، كما نصحني فاروق أم إلى طبيب نفسي أم أبحث عن قارئة فنجان أخرى تُخبرني بمصير علاقتنا؟

خفضت صوت الرّاديو، وأغمضت عينيّ، من التّعب والمشي الماراثوني، وأنا أستعيد صورة إيفانا وهي تقف في مقهى تريغلاو،

تبتسم لي، وتطوف بين طاولات الزّبائن، غير المُكترثين بحبتي الشّمام المهتزتين على مؤخرها، وشعرت حينذاك بالثّعبان النّائم، في سروالي، وهو يتحرّك وينتصب، ويقذف ماءً فاترًا. وعندما استيقظت، في الصّباح، عاود ألم المعدة وخزي. قفزت من السّرير، مسرعًا، كي ألحق على موعدي، مع فتحي، في مقر الجريدة الجديدة. انتبهت أن الكهرباء قد قُطعت، والسّاعة المعلّقة على الحائط، التي عادت إليها الرّوح بعدما غيّرت بطاريتها، تعدّت التّاسعة.

لم يكن المقر، الذي أجّرناه، أكثر من شقّة من ثلاث غرف ومطبخ وحمّام، في عمارة بشارع زيغود يوسف، سلالمها مُظلمة وتفوح منها رائحة منظّفات أشبه برائحة المستشفيات، تطلّ على وجه البحر، ونلمح من نوافذها صيّادين ومسطولين، يركنون تحت الحيطان، وبواخر قديمة، في حركة وسكون. «هم في البحر يُغامرون ونحن في اليابسة نستمني»، تمتمت. خصصنا غرفة للمحرّرين، وأخرى للفنّيين، وثالثة لي أنا وفتحي، وحوّلنا المطبخ إلى مكتب إعلانات، بينما وضعنا طاولة وكراسٍ في البهو، بما يُشبه قاعة استقبال. صافحت الموظّفين، وأنا أجتهد في طبع ابتسامة على شفتاي، وتناسي ألم معدتي، وحدّثني فتحي عن استطلاع يعتزم نشره في العدد الأوّل، عن زيارته إلى رقّان.

– ما حصل في رقّان من تجارب نوويّة يتجاوز ما حصل في هيروشيما.

بينما كنت أصارع برد ليوبليانا وثلجها، وقساوة قلوب بناتها، ذهب هو، في مهرجان مسرحي، يستحم تحت شمس رقّان، عاد منها بملاحظات، وبمخطوطة مسرحية.

- تخليّت عن مشروع المونودراما. أنا بصدد مسرحية عن قصّة حبّ تدور بين فرنسي وجزائرية، في الأيّام الأولى التي تلت التّجارب المشؤومة.
- المهم أن تكتب.

لا يبدأ فتحي مشروع كتابة حتى يتخلّى عنه، مثل صبي لا يشرع في لعبة حتّى يملّ منها ويقفز إلى غيرها. أبلغني أنه اتّفق مع مُراد بورغدة على كتابة مقال أسبوعي، وسألني عن المادّة الأولى التي أودّ نشرها.

- لم أفكّر بعد.

أنا أكتب نصًا مطوّلاً وحميمًا، لا أدري هل يحقّ لي نشره أم لا.

وما إن دخلنا مكتب الإعلانات، حتى فوجئت بحورية، تجلس في طاولة، لوحدها، وهي تصفف بعض الأوراق. لا أذكر أن فتحي نطق اسمها حين تلا عليّ أسماء الموظّفين.

- أقدّم لك الآنسة مرسغين.

وقفت في مكانها، ولم تتعرّف علّي، في البداية، بسبب شاربي، الذي لم أحلقه، ثمّ بادرتني: «السّلام عليكم مسيو»، دون أن تُصافحني، والدّهشة تخيّم على عينيها. «مرسغين؟» ولكن مليكة لقبها العائلي: «الوافي». تجنّبت إطالة الحديث معها، في حضور فتحي، ولم أشأ أن أضايقها بسؤالي. صبرت، بضعة أيّام، لأختلي بها، في مكتبي، وأسمع منها ما يُؤنس اشتياقي لمليكة.

قابلتني حورية في جلستها، وحياء على وجهها، كما لو أنّها تلميذة في حضرة أستاذها، والأمير عبد القادر يتلصّص علينا، وهو مسجون في كادر، علّقه فتحي.

وصلت إلى الجريدة بعدما قرأت إعلانًا بمنصب الشّغل. أُعجب فتحي بكياستها، ووظّفها. وطفا على ذهني لو أنّها علمت أنني شريك في المشروع، ما تجرّأت على المجيء.

- أنا في عامي الأخير في الجامعة، وأحتاج مصروف جيب.

اقترحت عليها أن تعمل، بنصف دوام، إلى أن تنهي مذكرة تخرّجها، ثم تشتغل بدوام كامل، فشكرتني، بكلمات باردة، كما لو أننا غريبين عن بعضنا بعضًا. جبل المودّة، الذي جمعنا، فيما مضى، ذاب، بعدما تخلّت عنّي أختها، وهجرت إلى فرنسا. شعرت حورية بالنار التي لسعت قلبي، ولا أشكّ في أنها تعاطفت معي، في داخلها. سألتني عن والدي وعن أحوالي، قبل أن تفتح بابًا كان موصدًا، وتستحضر المرأة، التي تعلّقت بها طويلاً.

- مليكة هي أختي غير الشّقيقة.

لطالما عاملتها كشقيقة كاملة لمليكة، وأغدقت عليها بالمجاملات والحلويات. مكاشفتها كان يمكن لها أن تُضايقني، أن أكشر على أنياب غضبي من مليكة، التي لم تُصارحني، لكن لا طائل من العتاب، فهي الآن بين ذراعي رجل آخر، يتحمّل نزقها ومزاجها المتقلّب.

- في شهرها الثّاني، اختفى والدها عبد الحكيم الوافي. كان شيوعيًا، يرأس خلية حزب محظور. البعض يقول أنّه مات في مُعتقل، في الصّحراء، وآخرون يقولون أنه فرّ إلى المغرب، غيّر هويّته وأعاد حياته هناك.

صمتت، للحظات، ثم واصلت:

- كانت مليكة تنتظره، ولا سيّما في أعياد ميلادها. لم تيأس من عودته يومًا ما. وفي الأخير، قطعت حبل الانتظار.

تزوّجت لتغادر البلد، وتنسى يُتمها.

أنا ومليكة عشنا مثل لقيطين. نسرق لحظات متعة صغيرة كي ننسى من أين جئنا. كان وجهها يتقلّب كلّما اقتربت منها بشفتي. تتحوّل من امرأة ناضجة إلى مراهقة بين يدي. لكن سخطي عليها ليس سببه فراقها لي، بل استخفافها بي.

– حميد هو من كان يدفع ثمن إيجار الشّقة.

اعتذرت منّي حورية، بصوت خفيض، لأنها كتمت أمر زواج مليكة، حين هاتفتها من سلوفينيا، وألحّت عليّ أن أقسم لها بأن لا يسمع شخص آخر، مُصارحتها لي.

– كان يبيت معنا في البيت، حين يأتي في زيارة إلى البلد.

وفي تلك الأثناء، تتحجّج مليكة بأن أمّها تزورها، تتمنّع عن استضافتي أو مُقابلتي، وتقطع الهاتف، كي لا أتّصل بها، على غفلة. لطالما حيّرني أن تمتلك مُدرّسة عادية، في ثانوية، مالاً كافيًا، لتأجير شقّة في حيّ مرموق. لم يخطر في ذهني قطّ، أن علاقتها مع حبيبها الأوّل لم تنقطع. هل يعلم حميد أنّها خانته معي؟ أبي خدعني ومن ظننت أنّها حبيبتي ضحكت علي. هل يكفيني هذا العار أم ينتظرني المزيد؟

*«مال حبيبي ماله/ كان معاي كان*
*عذّبني بجماله/ خدعة على الأمان*
*خلاّني خلاّني/ في الهموم والأحزان».*

دندنت قصيدة محمد بن مسايب، في سرّي، والتي حفظتها، من الرّاديو، وطلبت من حورية أن تبلغها أنني سامحتها، و«اللي فاتْ ماتْ»، كما قالت لي ذات مرّة.

الأيّام تتدافع، وموعد إطلاق العدد الأوّل، من أسبوعية «رادار» يقترب، والقيظ يرتفع. أنـــاس يُهرولـــون، في كـــلّ الاتّجاهـــات، مثل النّمل، والعرق يتصبّب من وجوههم، كما لو أنّهم خرجوا للتوّ من حمام ساونا. فتحي يزداد توترًا، وهو يحمل المشروع على ظهره، كما لو أنه سيزيف يحمل صخرته. نـــومي قـــلّ، والأرق يُقـــاسمني فراشي.

ذات صباح، بدأ منعشًا، فتحت عيني على صوت بائع سمـــك متجوّل، يجرّ عربة، ويعوي أســـفل العمـــارة، كـــذئب يحتضـــر: «سردين... سردين...»، وددت أن أكمم فمه مثلما تكمم أفـــواه الكلاب، كي لا يُزعج هذياني مرّة أخرى، وقمت من فراشي، تأهّبًا للخروج، حين وجدت أسفل الباب مظروفًا أصفر. كُتب عليه اسمي وعنواني بالإنجليزية. تخّيلت، لوهلة، أن نادا أرسلت لي صور ســـفيان وخالد أو شيئًا آخر، فعدت إلى الدّاخل وفتحته، ووجدت مُلصـــقًا، كُتب بالإنجليزية والصّربو - كرواتية:

مسرح التلّ يعرض

**حطب سراييفو**

**(مقتبسة عن هيروشيما، حبّي)**

تأليف: إيفانا يوليتش

بمساعدة سليم دبكي

الأحد والثّلاثاء والجمعة، على **السّاعة السّابعة مساءً**

عاد طيف إيفانا ليدقّ رأسي، ولا يتركني أدخل حياتي الجديدة، في أمان. أرفقت لي مع الملصق مخطوطًا، كُتب بخط متعجّل، عن حياتها وسيرتها، وكيف عاشت وكبرت في سراييفو، وعن الأيّام التّعيسة، التي قضتها في ليوبليانا. «نجوت من الموت، وخرجت من حبس، ظننت أنني سأمكث فيه سنوات طوال. أزهقت روحًا، والتحقت بالقتلة»، هذه هي الفقرة الأولى التي كتبتها. ثم حكت عن إغراءات أبي لها، وإرغامه لها على فتح ساقيها له. لم يُخطئ ظنّي، «أنا ابن مكبوت»، زفرت. وصفت لي، بدّقة، لحظاته الأخيرة، وكيف مات ميتة ذلّ. وعدتني، في مقهى تريغلاو، أن تقرأ لي بعض ما تكتب، ثم اختفت، وها أنا الآن أقرأ عن انجذابها لي، الذي خبّأته في صدرها.

لم يبق سوى ثلاثة أيّام على إطلاق الجريدة. دخلت على فتحي، في المكتب، فوثب من مكانه، مبتهجًا، كمُشجع مسرور بتسجيل فريقه هدفًا.

- أجريت حوارًا مع الشّاب خالد.

لست أدري كيف وصل إلى خالد، الذي يتزاحم الجميع للظّفر بكلمة منه أو صورة معه. أخبرني أن المغني سيُحيي حفلة، في اليوم عينه، الذي سيغني فيه الشّاب مامي.

- هما مثل الضّرات.

في اليوم المشهود، بينما الحرّ يسقط، والغبار يتصاعد، والنّاس مشغولون بهمومهم، التي لا تنتهي، وحكاياتهم الحلزونية عن الضّحايا، الذين يتكاثرون ويقلّلون من وحشة ساكني القبور، صدرت الجريدة. ذرعت الجزائر العاصمة، أطوف بين أكشاك الباعة،

أتأمّلها وهي تُعرض مع صحف أخرى، أتلمّسها، وأقتني بمالي نسخًا منها، كما لو أنني أحثّ الآخرين على شـــرائها، وقـــد تصـــدّرتها مانشيت:

| |
|---|
| **حطب سراييفو**<br>النّاجون من الطّوفان... في الجزائر والبلقان<br>سلسلة يكتبها: سليم دبكي |

الحلقة الأوّلى، من قصّة تمتزج فيها سيرتي، بسيرة إيفانـــا، دون ذكر الأشخاص بأسمائهم الحقيقية، مع ما حصل لكلينا في ســـلوفينيا. في تلك الليلة، سُكبت كؤوس كثيرة، ودفع فتحي، من شدّة الفرح، فاتورة شرب سكارى آخرين، شاركونا طاولات الحانة، مُنخفضـــة الإنارة، في شارع باستور. أغرق رأسه بنبيذ محلي، وهو يشتم مدراء الجرائد الأخرى ويتوعّد أن «رادار» ســـتتفوّق علـــى الجميـــع في المبيعات. بالغ في تفاؤله، ثم زلّ لسانه وهو يكلّمني عن حورية. راقه جمال وجهها ونوى مُواعدتها.

- إن فعلتها فلن أُسامحك.
- ما بك؟

هو رجل جادّ، في العمل، لكنه مكبوت، وكسيح القلـــب. لا يضجر من خيانة زوجته، التي أبعدها عن العاصـــمة، ولا يتـــوانى في مُغازلة موظّفات يافعات أو صحافيات متخرّجات، حـــديثًا، مـــن الجامعة. عكّر مزاج السهرة، وانسللت إلى الخارج، وأنا ألعن رعونته.

في اليوم التّالي، استيقظت بشعور يشوبه فرح. فمشروع الجريدة يمدّني بالاستقرار. وليس عليّ سوى الاعتناء بهـــا، كـــأمّ شـــغوف

برضيعها. رششت عطرًا على عنقي، قبل الخروج، وحملت منشفة، في حقيبتي، حذر الرّطوبة العالية، وفكّرت أنّه حان الوقت لاجتاز امتحان السّياقة وأشتري سيارة. لا يُعقل أن أبقى هكذا أهرول خلف باصات وسائقي الأجرة، وأقع في شباكهم، كلّ مرّة، كسمكة ساذجة. فتحت الباب، وهممت بالتوجّه إلى شارع زيغود يوسف، حين داست رجلي ورقة مطوية. بدأت بالبسملة والحمدلة، بخطّ مُرتبك، وتذكير بآيات من القرآن، ثمّ:

«**نحن نعلم أين تسكن وأين تعمل وقد اقترب دورك**». ممهورة بختم: «جماعة البلاغ والبيان».

ماذا يريدون منّي؟ هل هناك شيء آخر لم أخسره في حياتي؟ لم يرسموا خنجرًا ولا مسدّسًا كما في رسالتهم إلى مليكة، ولم يرفقوا لي كفنًا ولا صابونًا، كما فعلوا مع زميلتي السّابقة، لكنها رسالة جادّة، وأنا لست مهيّأً للموت. لم يخطر في بالي سوى فتحي. تجاوزت ما وقع بيننا من خصام، بسبب كلامه عن حورية، اتّصلت به على رقم الجريدة، وأملت أن يطمئنني أو يسدي لي نصحًا.

- أين أنت الآن سليم؟

صرخ كما لو أنني الجاني ولست الضّحية.

- أكلمك من البيت.
- اجمع أغراضك، واذهب إلى فندق المنار، في سيدي فرج. سألحق بك.
- ...
- سوف أتّصل بالحاج لزرق ليتدبّر لك غرفة هناك.
- ...

- أهرب حالاً. أهرب.

لاحت غمامة قاتمة بين عينيّ، وتهالكت على الكرسي. أطرافي ترتعد، وأسناني تصطك، كما لو أن بردًا غمرني، أو أن أحدهم صبّ سطلاً من الماء المثلجّ على رأسي، وأنا أُعيد شريط الأحداث، التي داهمتني، خلال عامٍ، أنبش عن لحظة الانقلاب، التي زحزتني من حياتي الرّتيبة، ورمتني في بحر متلاطم، مرتع بالبلاء. أخذت أتعرّق وقلبي يخفق بشدّة. مال رأسي على الطّاولة، أغمصت عينيّ وأنا أزفر، وشاهدت إيفانا تدخل مع أمّي، التي شعّ من وجهها نور، ولم أتبيّن ملامحها. لم تلتفتا إليّ ووقفتا جنب البلكونة، ثمّ انفجرت أمّي ضاحكة وهي تخبر إيفانا: «هو لا يعرف شيئًا». شحب وجهي ولم أجد كلمات للردّ عليها. حاولت إيفانا أن تلطّف الجوّ: «كان صغيرًا»، ثم رمقتني بنظرة بين الرّغبة والمكر، كما لو أنها استعارت عينا الموناليزا. «ما يزال صغيرًا، لم يكبر»، ردّت عليها أمّي. أردت أن أسأل إيفانا كيف تعلّمت العربية، لكن صوتي انقطع. أدرت لهما ظهري ووجدت الحاجّ إبراهيم يُحاصرني بنظراته، كما لو أنه تعافى من الزهايمر. «مُذ عرفتك وأنت جبان»، قذفني بتلك الجملة، ووجدتني أقبّل رجليه كي لا يُعيد كلامه على مسمع إيفانا. «من أين دخلت؟»، سألته. لكنه له يسمعني. همّوا بالخروج، يتقدّمهم الحاجّ، ثم أمي، وأخيرًا إيفانا، التي أمسكت بيدي، وضغطت عليها. حين فتحت عيني، أبصرت شريف، يقف على الباب.

- هل أخذك، بسيارتي، إلى مكان ما؟

تجاورت مع فتحي، في غرفة تطلّ على شاطئ سيدي فرج، لا ينقطع الماء عن حنفيتها. وفي كلّ مرّة يسألني عن مليكة، تطفو صورة

إيفانا في بالي، أتخيّلها وهي تنحني أمام المُصفقّين، بعد عرض مسرحيتها، تلوّح بيديها، وقد صارت مشهورة في مدينتها، ونسيتني. ألست أُبالغ؟ هل في حكايتي، التي قامت بمسرحتها، ما يستحق إعجاب النّاس؟ لقد كتبت لي في رسالتها: «صورتك ستبقى محفورة في مخيّلتي»، وذلك يؤنسني كلّما اشتقت إليها. كلّ ليلة، أبلع منوّمات، وحين أستيقظ، ألعن أبي، الذي أورثني عارًا لا يُمحى. سلسلة «حطب سراييفو» كبرت، ورسائل القرّاء فاجأتني، مع أنني لا أكتب في موضوعات الموضة؛ لا عن الجنس ولا في نقد السّياسة. مُراد بورغدة حرّضني، في الهاتف، على نشرها في كتاب. فهل أنشرها باسمي وأسماء الآخرين الحقيقية؟ «سأفكّر»، أجبته. مبيعات الجريدة تصاعدت والمعلنون تزايدوا، وكلّما خرجت في مهمّة ميدانية، أتجنّب المرور من الحيّ الذي سكنته مليكة. من يقيم في تلك الشّقة الآن لا بدّ أنه يشمّ رائحة عاشقين، يتمددان على الأريكة، أو يتقابلان في غرفة مرتّبة، ويسمعان الشّاب خالد.

ثم جاء الحاجّ لزرق، في مساء حارّ ورطب، ضاعف من ضيق التّنفس الذي ألمّ بي، للاطمئنان عليّ، ومعاتبتي. «لو قبلت عرضي، الذي أوصلته لك مع عمّك، للعمل في الصّحراء، لتجنبت التّهديدات». كلامه أحرجني. قضى عمرًا وهو يرصدني وعينه لم تغفل عنّي. «هل نقلت كلّ أغراضك من شقّتك؟»، سألني. «نعم». لم تكن لي أغراض مهمّة عدا كتبي، ونبتة الجيرانيوم، التي أعتني بها أكثر مما أعتني بنفسي، فسخت عقد الإيجار، وتركت تلك السّاعة الحائطية، التي يخرج من طرفيها قرنا غزال، في مكانها كما وجدتها. وارتبكت من صلته المتينة مع فتحي، الذي لم يكفّ عن تبادل نكت

وضحكات صاخبة معه، لكنه وعدني أن لا يفضح سرّي. قرأ الحلقات، التي نشرتها، عرف الأشخاص الذين قصدتهم، وأنّبني: «أنا لم أعذّب أباك». لم أجد كيف أردّ عليه، سوى تكرار: «اللي فاتْ ماتْ»، كي يغيّر الموضوع. ثم آراني صورة بالأسود والأبيض، لامرأة ترتدي زيًّا قبائليًا، بعينين كبيرتين ووجه مستطيل. «هل هذه الطّاووس عمروش؟»، سألته. «بل أمّك الزّهرة». خجلت من نفسي، فقد كانت تلك المرّة الأوّلى التي أرى فيها صورة لها. أطرتها وعلّقتها على حائط الغرفة. مسحت عليها بيدي وتخيّلت لحظاتها الأخيرة، وهي تموت برصاصة بندقيّة. شعرت بدمها يسيل في رأسي، ونمّقت أسفلها مقطعًا لفرنسي بريشرن.

*«لست أبصر في السّماء سوى نجمتين*

*عينا حبيبتي الجميلتان».*

# شكر

أشكر أمينة وبوريسلاف وزلاتكو، الذين رافقوني، خلال إقامتي في سراييفو، سهّلوا لي ملاقاة بعض عائلات ضحايا حرب البوسنة والهرسك، وساعدوني في فهم وترجمة كلمات وجمل من الصّربو - كرواتية.

كما أشكر أنيسة وشريفة، ونساء بلدة أولاد يعيش، اللواتي حكين لي، بشجاعة، عما عشنه من آلام، بين عامي 1994 و1998.

وأوجّه تحيّة لذكرى مارسيل بوا، الذي رحل قبل أن تصدر الرّواية. كان أوّل شخص حدّثته عنها، وتناقشنا، مرّات، بشأنها، وهو يصفّ البوسنيين بإخوة الصّبر.